

جامعة الأزهر

معدن الدراسات الإسلامية والعربية

أدب اللغة في العصر من الأندلس إلى الحديث

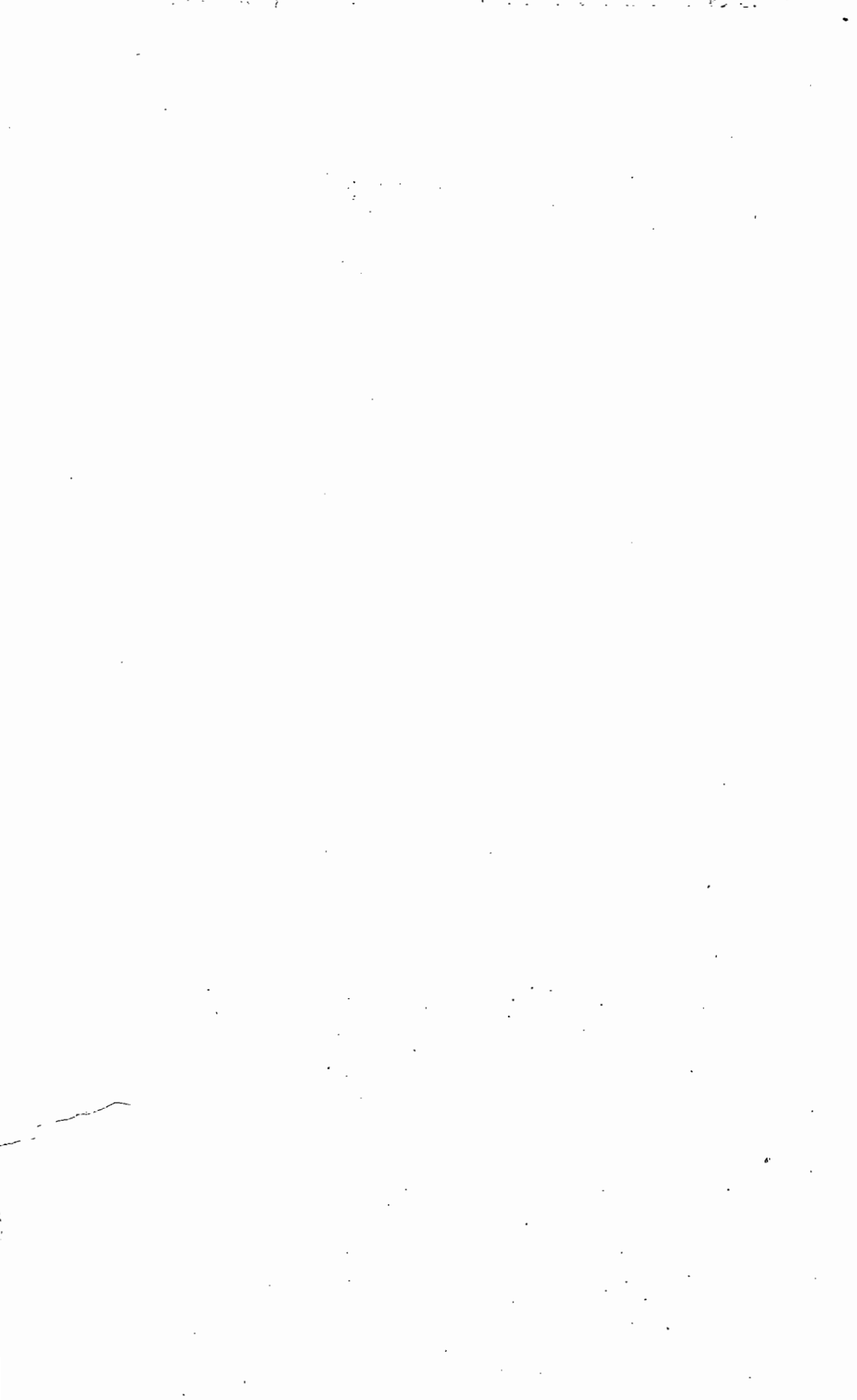
لطلاب

السنة الثالثة

تأليف

الدكتور
محمد السعدى فرهود

الدكتور
محمد محمد خليفه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد الله ولا محمود سواء وأصلى وأسلم على رسول الله وعلى
ومن وآله وبعد .

فإني حين أقدم إلى أبنائي طلاب السنة الثالثة في معهد الدراسات
الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر . هذا الكتاب في الأدب الأندلسي ،
والأدب الحديث ، أسأل الله أن يبين لهم فيه خير زاد من الأدب يتزودون
به وهم في مرحلة التكوين التي يعدون أنفسهم فيها لمستقبل أرجو أن يكون
لهم فيه الخير وأن يعينهم ما في هذا الكتاب على رسالتهم التي سيحملونها
إلى أبناء العروبة إنه سيعجب على الله قصد السبيل .

المؤلف

المغرب فدانت له البلاد إلى طرابلس وأصبح هذا الجزء من بلاد المغرب في حوزة الإسلام . فحيناً يعين له وال من قبل الخليفة وحيناً يتبع ولاية مصر . وفي ولاية عقبة بن نافع امتدت الفتوحات الإسلامية إلى المحيط ، ولهذا أنشأ مدينة القيروان لتكون حصناً للحاميات الإسلامية .

وفي أثناء ولاية موسى بن نصير على بلاد المغرب أطلع إلى فتح الأندلس فاستأذن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في فتحها فأذن له . وعبا موسى ابن نصير لذلك الفتح جيشاً تحت إمرة طارق بن زياد فزل في الجبل الذي سمي بعد ذلك بإسم (طارق) وخطب في جنده البالغ عددهم زهاء عشرة آلاف خطبة ألهمت نفوسهم للملاقاة جيش جرار في العدد والعتاد ، وبعد جولات صادقة من المسلمين تمزقت جيوش (لنريق) وتبعهم طارق قشقت قلوبهم ، وبعث إلى موسى بن نصير يبشره بالفتح ، فانتقل موسى إلى الأندلس على رأس جيش ، وأتم مع طارق فتح الأندلس حتى جبال البرانس .

واتجهت همه موسى إلى أن يسير بجيوشه إلى الشرق من شمال البحر الأبيض حتى يجعله بحيرة عربية ، وخاف الخليفة على جيوش المسلمين من تلك المغامرة فأمر موسى بالاكفاء بفتح الأندلس .

ويعتبر موسى أول وال في العهد الذي أطلق عليه عهد الولاة .

وعاد موسى إلى دمشق بعد أن ولي على البلاد ابنه عبد العزيز ، ثم تنابح الولاة على البلاد حتى شجر الخلاف بين اليمينيين والمضريين . ثم انفقوا على تعاور الإمارة بينهم فعام لليمنيين وآخر للمضريين ، ثم غدر الينيون بالعهد واستبد عبد الرحمن الفهري بالأمير ، ولهذا حتى المضريون وترقبوا فرصة للتغيير .

عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وأمه من سبايا بلاد المغرب . وقد حملت إلى الشرق في عهد هشام بن عبد الملك فأعجب معاوية بجماها فاستوهبها من أبيه فولدت له عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ ، ورعاه جده هشام بعد موت أبيه .

ولما انتزع العباسيون الملك من الأمويين سنة ١٣٢ هـ أعملوا السيوف فيهم ففر عبد الرحمن إلى قرية على شاطئ الفرات ثم أخذ طريقه إلى بلاد المغرب ليعيش هناك في كنف أخواله . وبعد أن استقر به الأمر في المغرب بعث بدرًا مولاه ليستطلع له أحوال المسلمين بالأندلس ، فاتصل بدر سرًا برؤساء البنيين ، والشاميين ، والبربر . وهيا النفوس للحكم الجديد . ثم انتقل عبد الرحمن إلى بلاد الأندلس . فانضم تحت رايته أولئك جميعا وقاتل يوسف الفهري (والى العباسيين على الأندلس) فاتصر عبد الرحمن وألقب نفسه بالداخل ، وبدأ عهد جديد أطلق عليه عهد الأمراء أو أبناء الخلفاء أولا ، والخلفاء ثانيا ، وبدأ عهد بني أمية بالأندلس سنة ١٣٨ هـ .

ملك بني أمية

وتتابع أمراء من بني أمية بعد عبد الرحمن . حتى كان عهد الناصر الذي تولى سنة ٣٠٠ هـ فرأى أن الخلافة العباسية أصبحت اسمية . وأن تصريف الأمور في بغداد بين الفرس من آل بويه وغيرهم ، فنصب الناصر نفسه خليفة ، ودعى له بإمارة المؤمنين على المنابر إلى أن كانت أيام المستعين بالله الذي استعان بالقاسم بن حمود فولاه الجزيرة الخضراء ، ويعلى بن حمود فولاه طنجة بعد انقراض دولتهما بفاس ، ولكن عليا طمع في الملك فاستبد

بالأمر ولقب نفسه الناصر ، وتنازع الأمويين الحكم ، فانشعبت البلاد بين بني أمية وبني حمود ، وسرى إلى أمراء البلاد هذا الموقف فاستقل كل أمير بأمارته . ونصب نفسه ملكاً عليها ، وعرف هذا العهد بعهد ملوك الطوائف (من سنة ٤٢٢ إلى سنة ٤٨٤ هـ)

عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وبني الأحمر

وتعددت العروش في هذه العهود وكانت عروشاً واهية استمد بعضها السلطان من ملوك النصارى الذين كانوا يتحصنون في الشمال ، وكانت لهم غارات على تلك الدويلات الإسلامية التي كثرت ، ففي أشيلية دولة بني عباد وفي قرطبة دولة بني جهور ، وفي بطليوس دولة بني الألفطس ، وفي طليطلة دولة بني ذى النون ، وفي المرية دولة بني صمّاح ، وفي سرقسطة دولة بني هود ، وكمن دويلات قامت في مدينة وما حولها الأمر الذي حفز ملوك النصارى إلى فرض الجزية على المسلمين فأدوها جميعاً وهم صاغرون ، وتحركت العزة الإسلامية في نفس المعتمد بن عباد فقتل رسل ملك النصارى الذين جاءوا يطلبون الجزية ، ولغ الأمر ملك النصارى فزحف بجيوشه على أشيلية . وكادت تدور الدائرة على جيوش المعتمد لولا أن جيوش يوسف بن تاشفين ملك المغرب لبث داعي المعتمد حين دعاه واشتبكت مع النصارى في معارك انتهت بهزيمة هؤلاء النصارى وتراجعهم إلى الشمال ، وعادت جيوش يوسف إلى المغرب . وعاد ملك النصارى فأغار على أشيلية ، وجاء يوسف بن تاشفين بجيوشه للمرة الثانية فأجلى النصارى ، ولكنه طمع في ملك الأندلس فاحتل البلاد ، وحاول المعتمد إجلاله فلم يفلح ، وبعد معارك دارت بينهما انهزم المعتمد ووقع أسيراً ونفاه ابن تاشفين إلى أغات وهي قرية في بلاد المغرب ، ونصب يوسف نفسه ملكاً على الأندلس كلها بعد خضوع ملوكها واستسلامهم له ، ومن هنا بدأ عهد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ .

وبعد موت يوسف تنازع أولاده الملك فكان خلافتهم سنيا في القضاء على دولتهم على يد عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين الذين أقاموا دولتهم في المغرب ثم انتزعوا ملك الأندلس ، وحكموها من سنة ٤٤٢ هـ إلى سنة ٦٢٨ هـ ووثب محمد بن نصر سنة ٦٣٠ هـ : فترع الملك من الموحدين وأقام دولة بني الأحمر التي حكمت من سنة ٦٣٠ إلى سنة ٨٩٧ هـ ، وقد استطاع الملوك الأوائل من بني الأحمر استعادة سلطان العرب حيناً ثم دب بين أمراء بني الأحمر الخلاف ، وأشعل التصاري بينهم نار الدسائس ، وزاحت الفتنة تأكل كيان المسلمين وسلطانهم حتى قضت عليهم ، وطرده المسلمون من تلك البلاد التي كانت لهم فيها دولة ومجد . وخرج منها آخر ملوكهم أبو عبدالله ابن محمد سنة ٨٩٧ هـ ولم يكن يرضى على خروجهم سبعة أعوام حتى نسخت المسيحية كل آثار المسلمين في الأندلس ، وهدمت المساجد ، وأنت على التراث الإسلامي الذي عملت فيه يد الحضارة العربية طيلة ثمانية قرون . وراح شعراء الأندلس ليكون ذلك الملك الزائل بشعره هو ذوب القلوب الباكية والنفوس الجريحة . وكان آخر ذلك الشعر رسالة استنجد بـعنه أبو عبدالله بن محمد يستنجد بسلطان المغرب وهي من شعر كاتبة المعقل :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعباً لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرتنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول نمنا بها تحت أفنان من النعم
فلا تم تحت ظل الملك نومتنا وأى ملك بظل الملك لم ينم
خليفة الله وإفأك العبيد فكُن في كل فضل وطول عند ظنهم

وكانه بعث هذه الرسالة ليمهد لنفسه مقاما عند سلطان المغرب ، وأفلت شمس الإسلام عن الأندلس برحيل أبي عبدالله .

حالة اللغة العربية في الأندلس

منذ الفتح الإسلامي ، واستقرار الحكم في الأندلس تدفقت القبائل العربية على البلاد فنزح إلى هناك بعض القرشيين والهاشميين الذين كانت منهم دولة بني حمود ونزحت فروع من بني مخزوم ، ومنهم أبو بكر المخزومي الشاعر الأعمى والوزير الشاعر ابن زيدون ، ورحل بعض الفهريين ومنهم كان عبد الرحمن الفهري الذي غلبه على أمره عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية في الأندلس ، أما البنيون فكانوا أكثر انتشاراً في البلاد ، فقد نزحت فروع من كهلان ومنهم كان محمد بن هانيء الشاعر ، كارحل كثير من عرب الشام ، وبخاصة في أيام بني أمية ، ورحل من أهل حمص ، والعراق ، ومصر ، وجمع الجميع الإسلام فكونوا جميعاً أمّة اختلطت بأهل البلاد بالمصاهرة والمصادقة ، وكان لهذا الاختلاط ، أثره في نشر الإسلام واللغة العربية وآدابها .

وقد شغل الولاة في الفترة من ٩٢ — ١٣٨ بتسكين القلاقل والفتن الدائرة بين العرب والنصارى من ناحية وتلك التي كانت تنشب بين القبائل العربية من أجل النزاع على النفوذ والسلطان من ناحية أخرى ، فلم يكن عهد الولاة عهد علم ولا أدب ، اللهم إلا الخطابة التي كانت تصول في ميدان الخلافات لتسكين الاضطرابات .

وقد أقبل الأندلسيون الذين اتصلوا بالعرب بالمصاهرة ، والخدمة ، والاتجار ، والعمل الحكومي على تعلم اللغة العربية منذ الفتح ولكنهم لم يكونوا كالعرب في سلامة ألسنتهم وقوتها ، وأما عهد بني أمية الذي بدأ سنة ١٣٨ — ٤٢٢ ، فكان العصر الزاهر للغة العربية في الأندلس ، لأن ملوك بني أمية الذين فقدوا دوائهم في الشرق عمّوا بتشجيع دولة لهم في الأندلس

الغنية بالخيرات لتنافس الدولة العباسية في الشرق ، فلم يكدر يستقر لهم الامر حتى فتحوا البلاد المواقدين ، وفتحوا لهم الخزان ، فأغروا علماء الشرق والادباء كأبي علي القالي وغيره بالرحيل إلى الأندلس ، والإقامة فيها ، وعتوا بتشيد المساجد والمدارس والمكتبات ، فحفلت أرجاء البلاد بعد قليل بمجالس العلم والأدب وجلبوا الكتب من الشرق الإسلامي ، وسابقوا العباسيين في فتح قصورهم للعلماء والادباء ، وألحبوا قرائح الشعراء بالمال . وكان من ملوك بني أمية شعراء وعلماء كالعباسيين ومن شعرائهم عبد الرحمن الداخل الذي يقول وقد رأى نخلة غريبة عن منطقة النخل فهاجت أشجانه :

نبت لنا وسط الرصافة نخلة تنامت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى في التعرب والنوى وطول التناهى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فثلك فى الإقصاء والمنتهى مثلى
وقال أيضاً :

أيها الراكب المييم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرضى
قد قضى الله بالفراق علينا فمضى باجتماعنا سوف يقضى
وكان من أكثرهم عناية بالعلم والأدب عبد الرحمن الناصر الذى تولى من سنة ٣٠٠ - ٣٥٠ ، وقد طلب أبا علي القالي صاحب الآمال من الشرق ليقوم على تأديب ابنه الحكم المستنصر ، وبلغت في عهده المساجد في الأندلس سبعة آلاف مسجد للعبادة والتعليم .

وكان أكثرهم عناية بالمكتبات العربية ابنه الحكم الذى كانت تحوى مكتبته ٢٠٠ ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون ولم يوجد فيها كتاب إلا وعليه تحقيق أو تعليق بخط الحكم ، وكان في القصر جماعات للنسخ وأخرى

للضبط ، وثالثة للتجديد ، وكثيراً ما بعث التجار إلى الشرق لشراء الكتب ، وقد وكل لأخيه عبد العزيز أمر المحافظة على المكتبة كما جعل لأخيه المنذر أمر الإشراف على أندية العلوم المختلفة ، وقد حاكاه كثير من الأندلسيين في اقتناء الكتب حتى أصبح ذلك من مظاهر الوجاهة عند الأندلسيين ، وكانت المكتبات العامة والخاصة مفتحة الأبواب لمن يريد النسخ أو الاطلاع وكل ذلك سهل على الناشئين الزود من العلم .

ومن شعراء الملوك الأمويين المستعين بالله الذي حاكى الرشيد في حياته وشاعريته بل في قوافيه التي أرسلها في مشرقاته .

فقد قال الرشيد :

ملك الثلاث الآفات غثاني وحلني من قلبي بكل مكانى
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعن وهن عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

فقال المستعين بالله :

عجايبها الليث حد سناني وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وتملكك تقضى ثلاث كالدمى زهر الوجوه نواعم الأبدان
حاكت فيهن السلو إلى الهوى فقضى بسلطان على سلطانى
لا تعذبوا ملكاً تذلل فى الهوى ذل الهوى عز وملك ثن

وعاش الأمويون حياتهم فى الأندلس يولون العلم والأدب عناية عظيمة استجابة لداعية منافستهم للعباسيين ، وقد تجاوب معهم العرب النازحون وسكان البلاد الأصليون الذين هجروا لغتهم اللاتينية ، وأقبلوا على اللغة العربية يدرسونها بشغف وهمة ، ونسى المسيحيون منهم لغتهم حتى لم يكن يوجد من بينهم من يستطيع الكتابة باللاتينية .

أما عهد ملوك الطوائف فهو وإن كان عهد انحلال سياسي إلا أنه ازدهرت فيه العلوم والآداب ، بسبب تنافس ملوك هذه الدويلات في العلم والآداب والعناية بأصحابها . ومن ثم غمروا العلماء ، والأدباء والمؤلفين بالمال وأنفقوا الكثير من الأموال على إنشاء المكتبات ، وعمارة المساجد ، وعقدوا في قصورهم مجالس للآداب والمناظرات ، وقدموا المبرز في العلم والآداب ، وقصروا مناصب الدولة على الأدباء ، ويندر أن تجد وزيراً غير متحل بالأدب وكان أعظم ملوك هذا العهد عناية بالأدب والأدباء . المعتمد بن عباد ملك أشبيلية الذي كان شاعراً ، وكانت اعتماد زوجته شاعرة وكان وزراؤه وندماؤه جميعاً شعراء ، وكانت مجالسه ميادين تهتف فيها شاعريته وشاعرية مناديه وجلسائه بروائع الشعر ، وقد حدثوا أن جارية خرجت إليه بخمر وقد لمع البرق فارتاعت فقال :

روعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

وقد قال وهو في منغاه بأغاث في يوم عيد حين رأى بناته حافيات بين يديه يأكلن من غزل أيديهن فيسكت شاعريته وصورت هذه المأساة في قوله يخاطب نفسه متحسراً .

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً ففناءك العيد في أغاث مأسورا
تري بناتك في الأطنار جائنة يغزان للناس لا يملكن قطميرا
يطآن في الترب والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممثلا فردك الدهر منياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسره فإنما بات بالأحلام مغرورا

وكان من وزرائه ابن زيدون وابن عمار وغيرهما من عابرة الشعراء وكان ابن صمادح ملك المرية شاعراً ، وابن المظفر ملك بطليوس كان عالماً

جمع علوم الأدب والنحو وفوائد الأخبار ، ودون كثيراً من ذلك في كتابه (المظفرى) ، وكان ابن هود ملك سرقسطة واسع الاطلاع في الرياضة وله فيها مؤلفات ، ومن كل ذلك تبين حالة النهضة الأدبية في عهد ملوك الطوائف (والناس على دين ملوكهم)

أما ملوك المرابطين فهم بربر من شمال افريقية ، لم يعنوا بلغة العرب ولا بأدائها ، وكانوا شديدي الكراهية لعلوم الفلسفة ، والمنطق وقد أحرقوا كتب الغزالي ، ومنعوا الكلام في العقائد ، ولما رأى الأدباء عدم تشجيعهم للأدب انصرفوا عنه ، فتعطلت نجالة ومجالس العلم ، وقد راجت الأزجال في هذا العهد لأنها باللغة العامية التي يفهمها هؤلاء الملوك ، وبهذا نستطيع أن نقول : إن هذا العهد عهد ازدهار للأدب العامي الذي تجلى في الأزجال :

وعنى عهد الموحدين بإحياء العلوم والآداب فبدأت تدب الحياة في الأندلس . وأهم من عنى منهم بالحياة العلمية يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فقد اشتهر بجمع الكتب واشتغاله بالعلوم ، وظهر في أيامه الفيلسوف ابن رشد وابن طفيل ، وقد لخص ابن رشد كتب أرسطو بأمر يعقوب .

وملوك بني الأحمر كانوا عرباً ، ولهذا تعصبوا للفتح ولأدائها فنهضت اللغة العربية نهضة كادت تعيد لها مجدها أنسلف لولا الفتن التي عصفت بهذه الدولة . وعلى الرغم من تلك الفتنة . اشتغل كثير من العلماء بالتدوين ، والتأليف في مختلف العلوم .

وأهم ظاهرة في أدب هذا العهد تلك النفثات الجريئة التي كان يرسلها أولئك الأدباء كلما رأوا مدينة من مدن الأندلس تسقط في أيدي النصارى ويضر أهلها بدينهم إلى أخرى ، وكثيراً ما بكوا ، وكثيراً ما استنجدوا ولم يجد اليك . ولا الاستنجاد ، وضاعت هتافاتهم بين الرياح . ومن بين تلك

التفئات تلك النفقة التي يرسلها الرندى فى قصيدة باكية يقول منها :

لكل شىء إذا ماتم نقصان فلا يفر بطيب العيش لإنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول عن سره زمن ساءته أزمان
دمى الجزيرة أمر لاعزاء له هوى له أحد وانهد شملان
فاسأل بلنسيه ماشأن مرسية وأين شاطبة أم أين جبان
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
لمثل هذا يتوب القلب من كمد إن كان فى القلب لإسلام وإيمان

وقد عاشت اللغة العربية لسان الأندلسيين ثمانية قرون لأنها لغة الحاكم،
والمحكوم كثيرا ما يقلد الحاكم ويتقرب إليه ويخضع لسانه للغة .

وهى إلى جانب ذلك لغة الدين الجديد الذى دان به الكثير من
الأندلسيين وأقبلوا على لغته يمجودونها وعلى القرآن يحفظونه .

وكان لعناية ملوك المسلمين فى كثير من العهود باللغة العربية وآدابها
أثر كبير ساعد على انتشارها وازدهارها وكان ذلك عن طريق الاكثار
من المساجد ، والمكتبات ، وكان لاختلاط العرب واندماجهم فى الأندلسيين
بالمصاهرة وغيرها الأثر الذى لا يمحى فى تغيير لسان الأندلسيين ، وأمام
اجتياح اللغة العربية للغة اللاتينية اضطر القساوسة إلى ترجمة التوراة وكتب
الكنيسة إلى اللغة العربية حتى لاتضيع تعاليم تلك الكتب من نفوس من
ظلوا على أديانهم ولم يعتنقوا الإسلام .

الاتصال الثقافي بين الأندلسيين والمشاركة

وأثر ذلك في نهضة الأدب ، والحضارة الأدبية

والعلمية في الأندلس وفضلهما على النهضة الأوروبية

لقد عرف عن بني أمية إبان حكمهم في الشرق تعصبهم للعرب ولغتهم وورث عنهم أحفادهم الذين حكموا الأندلس ذلك التعصب فلم يكذب استقرار الأمر لدولتهم حتى حيوا الهجرة إلى نفوس الكثيرين من عرب المشرق بكثرة عطايهم التي حملت أسرها الأنبياء إلى أرجاء الشرق العربي ، فرحلت إلى هناك كثرة من عرب الشام والعراق ومصر والحجاز واليمن . ودخل أولئك النازحون الأندلس وألستمهم عربية خالصة ، وفي خدورهم قرآن محفوظ ، وفي حوافظهم أحاديث وشعر وخطب جاهلية وإسلامية ، وفي عقولهم علم ، وفي أحوال بعضهم بعض مادون عما يتصل بالإسلام أو ما قيل في معاركة أو ما يتصل بتاريخه ، وحينما بلغوا الأندلس أقطعهم ملوك بني أمية أرضاً في أرجاء مختلفة من البلاد فأنبثوا فيها لبؤدوا رسالة الإسلام في المساجد التي شيدت ، ولبعلوا الناس لغة العرب وما كان لديهم من المعارف التي جاءهم بها الدين الجديد .

وقد عني المنصور والرشد والمأمون من خلفاء العباسيين بترجمة العلوم والفنون والآداب الفارسية والرومانية واليونانية والهندسية ووفروا بذلك على ملوك بني أمية في الأندلس بذل جهود جديدة في الترجمة ، حيث لم يترك العباسيون علماً أو فناً أجنبياً لم يترجم وحينما ظهرت في الشرق أجيال من العلماء في مختلف تلك العلوم نزع بعضهم إلى الأندلس يحمل بعض ما ترجم ونزع من الأندلس من ينسخ ما ترجم في الشرق . أو يشتري ما نسخ . وكذلك كان الحال في العلوم الإسلامية والعربية .

حين انجبه العلماء في الشرق إلى التأليف وبرز منهم نوابغ طلب بعضهم إلى الأندلس ، كآبي علي القالي صاحب الأملال أو اشترى الأندلسيون كتبهم كالآغانى لأبى فرج الأصفهاني ، ووفد إلى الشرق كثير من طلاب الأندلس يطلبون العلم في مصر ، وانشام ، والعراق ، والحجاز ، كما وفد بعض النساخ ينسخون مادون من العلوم أو ما يمليه العلماء على طلابهم . وكان الطريق بين الشرق والأندلس لا يقيب عنه مواكب العلماء النازحين من الشرق ومواكب الطلاب . وتجار الكتب الوافدون من الأندلس ، وقد وضد كل ذلك الصلات الثقافية بين الأندلسيين والمشاركة .

وهكذا تأثر المجتمع الأندلسي بالمجتمع الشرقي في كل شيء ، وكان لانصاله به أثر انطبع على الناس في عقولهم وكل مظاهر حياتهم ، وقد تأثر الأدب في الأندلس أيضا تأثر بذلك الاتصال . فالمعقبة البرية النازحة من الشرق أثرت أثرها في الأندلسيين .

والمكتبات العامة للعلوم والفنون والآداب المدونة والمترجمة التي نقلت من الشرق إلى الأندلس فزخرت بها البلاد حتى بلغ عددها ستين مكتبة كان أشهرها مكتبة قرطبة أثرت أثرها كذلك في خلق أجيال من الأدباء ، والمساجد المنتشرة في أرجاء البلاد التي بلغ عددها في أيام الناصر سبعة آلاف مسجد أدت رسالتها العلمية والأدبية إلى جانب المدارس التي أنشئت لتعليم القرآن والقراءة والكتابة ، وكان يقوم بالتدريس في هذه وتلك علماء من المشاركة أو ممن طلبوا العلم في الشرق أو ممن تربوا على ما نقل من الشرق .

وهذه المساجد والمدارس كان لها أثرها في تكوين أدباء قادوا النهضة الأدبية في مختلف العهود .

لكل هذا يمكن القول بأن الاتصال الثقافي بين الأندلسيين والمشاركة كان له أثره في النهضة الأدبية التي كانت في الأندلس .

حتى إن بعض ما ألف في الأدب والتاريخ في الأندلس كان متأثراً بالشرق وما كان في الشرق ، ويثبت لنا ذلك ما روى من أن الضاحب بن عباد حينما سمع بكتاب العقد الفريد الذي ألفه أحمد بن عبد ربه في الأندلس وأنه يعتبر من كنوز الأدب ، بعث في طلبه ، فلما جاءه وقرأه . قال : هذه بضاعتنا ردت إلينا . وبذلك يشير إلى أن كل ما في الكتاب شرقي .

وقد ساعد على تأثر الأندلسيين بأدب الشرق ذلك النهم الأدبي الذي كان لديهم . وقد دفعهم نهمهم إلى حفظ الكثير من كتب اللغة والأدب وعبون التاريخ حتى قيل : إن بعضهم كان يحفظ كتاب الأغاني ، وآخر كان يحفظ كتاب الكامل للبرد . وذلك يكشف عن حب الأندلسيين العميق لقراءة ما جاء من الشرق وحفظ العالي منه .

أما أثر اتصال الأندلسيين بالمشاركة في الحضارة العلمية ، فما لا شك فيه أنهم كانوا تلاميذ للمشاركة أول حياتهم ، فوفد طلابهم إلى الشرق يفتنون من علومه ومعارفه الإسلامية والعربية ، والمترجمة عن الفارسية واليونانية والرومية والهندية .

ووفد النساخ ينسخون من الشرق ما ألف في العلوم ، وما ترجم منها إلى العربية ، كما وفد تجار الكتب يشترون من علماء الشرق أعظم مؤلفاتهم وهؤلاء وأولئك نقلوا إلى الأندلس الكثير من كتب الزراعة والفلك والرياضة . والطب ، والكيمياء ، والموسيقى . كما نقلوا كتباً في أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والتفسير والحديث ، وكتباً في فنون الأدب والبلاغة ، والقصص ، والرحلات ، ودواوين الشعراء ، ومعجمات اللغة والنحو ، واللغة والعروض ، والرياضة ، والفلسفة ، وأقبل طلاب العلم

فهو الأندلس على تلك الكتب ينهلون منها المعارف ، كما أقبلوا على العلماء الوافدين يتلقون عنهم ألواناً من العلوم حتى نبغت فيهم أجيال من العلماء المتخصصين . قادوا النهضة العلمية في الأندلس .

فضل الحركة الأدبية والعلمية

على النهضة الأوروبية

اتجه العرب في الأندلس إلى العلم والدروس والتأليف والنقل ، ونبغ منهم ومن الأندلسيين بعد حين طوائف من العلماء في النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما نبغ منهم الأطباء والفلاسفة ، كما انجهوا إلى العناية بالفنون والآداب والغناء والموسيقى ودوت أخبار تلك النهضة العظيمة في آفاق أوروبا . فاتجه إلى الأندلس بعض الراغبين من شباب أوروبا في النزود من تلك الثقافات ، ووجدوا في كليتها ومدارسها ومكتباتها المناهل الزاخرة .

ثم عادوا إلى بلادهم ينشرون العلم .

ولما غلب المسلمون على أمرهم في الأندلس ، وتركوا وراءهم كنوزاً ثمينة من العلم والآداب ، لم تلبث أن تحاطفتها أيدي الأوروبيين .

وعلى الرغم من أن النصارى حين استيلائهم على الأندلس دمروا الكثير من التراث الإسلامي والعربي ، والمترجم من العلوم والمعارف ، فقد سلم من حرائقهم بعض ذلك التراث ، ولم يزل مبعثراً في مكتبات أوروبا ومكتبات أسبانيا وكان لما خلقه العرب وراءهم من العلم والآداب الأثر الكبير في نهضة أوروبا العلمية والفنية والأدبية ، حيث أخذ أهل أوروبا عن العرب العلوم ، والفنون كفن العمارة والموسيقى والشعر .

وقد قيل إن الشعر الفرنسي العاى من نوع الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربى ، والأسبان كانوا أول من أخذ القافية عن الشعر العربى .

وقد شمت فى الأندلس أنوار المعرفة على أوروبا قبل خروج العرب منها وبعد نزوحهم عنها ، وأخذت النهضة العلمية فى أوروبا تحت الخطى بعد ذلك مهتدية بالنهضة العربية . وهذا صدق قول بعض علماء أوروبا .

إننا مدينون للعرب لأنهم الحلقة التى وصلت مدينة أوروبا قديماً بمدنيتها حديثاً ، وقد علمنا أن العرب ترجموا علوم اليونان والرومان إلى العربية فبعض علومهم مأخوذ من بعض الأمم الأوروية العريقة فى العلم والمعرفة .

الحركة العلمية

كان العلم قبل دخول العرب الأندلس مقصوراً على طائفة القساوسة . فلما استقرت أقدام المسلمين هناك وتوطد الملك لبنى أمية ، وامتزج العرب بسكان البلاد امتزاجاً سرى فى العقول والدماء ظهرت بميزات عقلية جديدة لم تكن للعرب اشرقيين . فشغلوا حياتهم بنقل العلم ونشره ، وجابوا آفاق البلاد يطلبون العلم ، وجذبت خيرات الأندلس وعناية ملوكها العرب علماء المسلمين فرحلوا إليها من العراق والشام ، وعمل كل أولئك بفضل عناية الأمويين على تدعيم ذلك الملك على أساس العلم .

وأخذت العناية بجميع الكتب ونقلها من الشرق تزداد . فلم يتركوا علماً مما دون فى الشرق أو ترجم لم ينقلوه ، ونجاوب مع هذه الرغبة طبقة العامة فراحوا يقتنون الكتب ، وينشئون لها فى دورهم قاعات للاطلاع حتى أصبح ذلك من أكبر مظاهر الوجهة عند الأندلسيين ، ولقد بلغ ما جمع من الكتب فى عهد الحكم المستنصر الذى تولى الملك سنة ٣٥٠ هـ قدر ما جمعه العباسيون وكان المنصور بن أبى عامر من أشد العاملين على ترقية العلوم ، وتشبه بالأمون العباسى فى زيارته لدروس العلم وحضور مجالس العلماء ومناقشتهم .

وقد نشطت مرحلة الدراسات منذ وطئت أقدام المسلمين الأندلس وأنشئوا لذلك المساجد والمدارس في المدن والقرى ، وعنهم أخذ أهل أوروبا نظام المدارس والكليات والمعاهد حيث انتشر كل ذلك في الأندلس . وقاد الحركة الدراسية فيها طوائف من العلماء ورجال الفكر ، وقامت لدراسة الطب هناك أربع مدارس في قرطبة وأشبيلية وطليطلة ومرسية .

ومن الأطباء الذين ظهروا هنالك . أبو العلاء بن زهر وابنه عبد الملك صاحب كتاب التيسير وكتاب الأغذية في الطب .

ومن ظهروا في الفلسفة ابن حزم . وله فيها وفي غيرها مؤلفات ومن علماء الرياضة والطب ابن الصائغ ، ومن علماء النبات ابن البيطار ، ومن علماء الهندسة الحافظ أبو الوليد .

وقد وجدت كثرة من علماء الأندلس لم تقتنع بالتخصص في علم أو فن بل درسوا وتبحروا في علوم مختلفة . فبعض هؤلاء الذين ذكرناهم وغيرهم كان من علماء الدين واللغة إلى جانب دراستهم الواسعة للرياضة والطب والفلسفة والفلك ، وكل ذلك يدل على النهم العلمي في نفوس هؤلاء العرب أو الأندلسيين .

وظهرت حركة التأليف في مختلف العلوم بعد تمكن هؤلاء العلماء من العلوم التي ألفوا فيها ، وبذلك ضموا إلى المكتبة العربية في الأندلس جديداً من الكتب لم تكن عند المشاركة ، ولم يتخلفوا عن التأليف في علم من علوم الدين واللغة والتاريخ والأدب وغير ذلك من علوم الرياضة والنبات والحيوان والطب والفلك والموسيقى والحساب والهندسة وعنى بعض المؤلفين من الأندلسيين عند الكلام على النهضة العلمية في الأندلس بذكر علماء الأندلس ومؤلفاتهم كصاحب فتح الطيب والقاضي أبي القاسم صاحب طبقات الأمم .

من أشهر المؤلفين

١ - ابن عبد ربه

هو أحمد بن عبد ربه القرطبي ، كان جده مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقد ولد سنة ٢٤٦ بقرطبة ونشأ بها ، وتعلم علوم العربية ، وآدابها وحفظ أيام العرب ووقف على تاريخهم ، وحفظ الكثير من الشعر ، وقرأ من كتب المشاركة ما دون وما ترجم ، وامتاز بسمعة اطلاعه ، واشتغل بالشعر ، فنظم القصائد والأراجيز ، وشهد له المتنبى بالفصل ، وقد قال في أعراس الشعر المختلطة وشعره منشور في كتابه العقد الفريد في أبوابه المختلفة ، وأراجيزه التي وضعها سجل فيها تاريخ عبد الرحمن الناصر وحروبه ، ولم تكن تلك الأراجيز قصصا متعنا وإنما كانت لتدوين التاريخ .

وبهذا يعد من أوائل من نظم العلوم بتلك الأرجوزة التاريخية وكذلك بأرجوزته التي وضعها في العروض ، وهما في كتابه العقد الفريد ولو لم يكن له غير هذا الكتاب لكفاه .

كتاب العقد الفريد

هذا الكتاب من أمهات كتب الأدب التي ظفرت بسبق ظهورها وطبعها في مصر ، وكان من أعظم مراجع الأدب في نصف القرن الماضي وقد جمع فيه أخبار المشاركة من العلماء والأدباء . وتجاوز ذلك إلى العلوم المترجمة من طب وموسيقى ، وجمع فيه زبد ما في كتب أبي عبيدة الجاحظ وابن قتيبة ، ووشاء بكثير مما ترجم عن الفرس واليونان والهنود ، وحلاه بالفكاهات والملح والنوادر والحكم والأمثال وقسمه المؤلف إلى خمسة وعشرين كتابا ، بدأ كل كتاب بمقدمة من إنشائه ، وأطلق على كل كتاب جوهرة من جواهر العقد كالزردة والياقوتة والمرجانة ، والكتاب جامع لكثير من الرسائل ،

وخطب الوفود في الجاهلية وصدر الاسلام ، وقد ضمن كل كتاب ما قاله
هو في المدح أو الرثاء أو التهنة أو الوصف أو النزل ،

ولم يتعرض فيه لشيء من النهضة الأدبية أو العلمية في الأندلس كما يذكر
أخبار أحد من أدائها أو شعرائها : وهذا يعد شرفاً ، وقد بعث صاحب
ابن عباد في طلبه عند ما سمع بظهوره فلما قرأه قال :

هذه بضاعتنا ردت إلينا إذ ليس فيه شيء من أخبار الأندلس إلا تاريخ
عبد الرحمن الناصر في تلك الأرجوزة التي أسلفنا الكلام عنها .

ابن مالك

هو جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجبالي نسبة إلى جبان بفتح
الجيم وهي إحدى بلاد الأندلس وقد ولد سنة ٥٦٠ هـ .

وكانت مدن الأندلس وقراها في هذه الحقبة حافلة بالعلماء التابعين .
وبالمساجد التي تعقد فيها حلقات الدرس ، وبالمدارس والمكتبات .
وكانت بيوت العلماء مائة لطلاب العلم يقدون إليهم لينهلوا من معارفهم
ما شاءوا .

وكانت جبان ككل مدينة أندلسية أو قرية فيها من العلماء الذين برزوا
في مختلف العلوم ما فيها .

وبين هذه البيئة العلمية نشأ ابن مالك واتجه من صباه إلى الدرس
وساعده على التبوع حافظه وواعية ، وذكاؤه نادر ، وحب للمطالعة والمراجعة ،
واتجه إلى حفظ الكثير من أشعار العرب .

وقد بدأ ينطق العربية عن أبي المظفر وأبي الحسن بن ثابت وغيرهما من
العلماء ، ثم أخذ القراءة عن أبي العباس أحمد بن نوار ، ثم قرأ كتاب سيدييه
على أبي عبد الله بن مالك .

وحبت إليه الهجرة في طلب العلم ككثير من الأندلسيين الذين رحلوا
إلى الشرق يطلبون للعلم في بلاد الشرق المختلفة التي كانت مليئة بكثير من
العلماء الأعلام.

وإن ثم رحل ابن مالك إلى حماة وحلب ودمشق، ولم يزل يأخذ التلمذة
عن علمائها في الأندلس والشرق، حتى نبغ وتصدر للتدريس حيناً في حماة
وحيناً في حلب وحيناً في دمشق وحيناً في القاهرة، وقد تخرج عليه في هذه
البلدان جماعات من العلماء، وقد ضوئية في المباحث في النحو والصرف والفقه
والصرف وغريب الفقه، وفهم أشعار العرب، ولا يشهد على قول أحد في اللغة

مؤلفاته : لقد كثرت مؤلفاته التي للنحو والصرف ومن تلك المؤلفات

تسجيل القوائد ، والموصل في نظم المفصلة ، والكافية الشافية ، المالك
والخلاصة وهي مختصر الشافية بما وجد في الأعلام بملك الكلام وهو لا يخطئ
الأفعال والأعواب بشكل البخاري منه في له ارف ، ومنه تنال
في مسائل لفظية له في مسائل لفظية
الإلفيت المعاني ، ومنه تنال
وهي له

وهي مختصر الكافية ، وقد نظم فيها ما لا يسجد قواعد النحو والصرف ،
واستوعب فيها كل ما وضعه النحاة من القواعد ، وقد يتوصل إلى استخراج
لا يخطئ النحاة في المسألة ، ويفصل بين رأيين فيها ، وقد تناول فيها الجمال
جميع أبواب النحو ، فتكلم عن الكلام وأقسامه والعلامات المميزة لكل قسم من
عن العرب والمبنى الخ ، وهي بين يديك هذا الكتاب إلى الإطالة في النحو فخذ
بها وعنى بشرحها كثير من الشراح من أشهر ابن عقيل والإشعري
وهي له
وهي له
وهي له

الخطبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة

كان تاريخ المسلمين في الأندلس مليئاً بالحروب والفتن حتى قيل :
ليس هناك غير في بلاد الأندلس لم يرق فيه دم .
فقد دخل المسلمون تلك البلاد تحت إمرة طارق والرماح مشرعة والدماء
مطلولة حتى آخر حجر منها بعد عتافه قرون .
ولقد دخل طارق يقود جيشاً من العرب والبربر فقاد معركة دامية .
فيها سقطت في النصر وبنو أمية موسى بن نصير بجيش كبير .
وتقدموا بجيشهما حتى فتح البلاد ، ثم بدأت الفتن تلعب بدور
العرب فثار في الأندلس قبائل القبائل التي يتألف منها جيش المسلمين .
كانت ترى كل قبيلة أنها أولى بالسيادة وظلت هذه الفتن تلعب عليها
اتتهى عهد الولاة .

وبدأ عهد بني أمية هناك بحرب دامية بين الداخل ويومئذ
وانتصر فيها الداخل ، ثم قامت هناك فتن بين المسلمين شغل الداخل يا
طولاً وعظيمة ، وكان في أيام الناصر جروب مع النصاري الذين
شككوا في الإسلام فغير قلب عليه ركبوا أحسوا ضعف ملوك المسلمين
ولم يزل السيف يخالض تلك المعارك والفتن ، ويخوضها معه النصارى بعد
قراءة ثلاثة قرون .

والحرب وما يعقب الحرب من أهوال دواعي الخطابة .
فالْحَرْبُ تتطلب تحييب الجهاد إلى النفوس ، والتحريض على قتالها .
والفتن تتطلب إغراق المصلي واستنهاض الهمم .
وقد انتهى الحرب أو تمكن بالفرارات ومفارقات الصلح .

وعند فتح الأندلس ، كانت الألسنة العربية لم تزل قادرة على القول خالصة من شوائب اللحن .

ومن هنا كانت الخطابة في عهد الولاة قوية الأسلوب كقوته في عهد بني أمية في الشرق وحينما دخل بنو أمية الأندلس دخلوها وأرواحهم مشبعة بروح التعصب للعرب وللغتهم وورث عنهم أبناؤهم وأحفادهم ذلك التعصب فראה قرن من الزمن ، وتجاوب معهم في التعصب للغة العربية وفي العمل على نشرها بين الأندلسيين الكثير من العرب النازحين من الشرق .

ولهذا عاشت ألسنة العرب حينما من الزمن فصيحة قادرة على القول واكتسب هذه القدرة كثير من الأندلس عن طريق الدراسة والتعلم .
ومن ثم عاش أسلوب الخطابة قويا فترة من أيام حكم بني أمية .
وهذا هو الطور الأول من أطوار الخطابة في الأندلس .

أما موضوعات الخطابة في هذا الطور فهي :

١ - الخطابة الدينية : وقد تجلت في خطب الجمع والأعياد والوعظ .

٢ - الخطابة السياسية : كالخطب التي كان يقوم بها دعاة بني أمية لتوطيد ملكهم أو يقوم بها أنصار العباسيين لاسترجاع ملكهم وكان ذلك في عهد الداخل ، وكالخطب التي كانت تأتي عند حضور الوفود .

٣ - الخطابة الحربية : وكانت تدور حول تحبيب الجهاد والتحريض على القتال وفي النهضة بالفتح ، والشكر على الاستبسال ويتصل بها ما كان حول الفن من إهانة العصيات .

٤ - الخطابة الاجتماعية : كخطب المدح ، وكثيرا ما تكون في مجالس الملوك أو الرؤساء وكالمحاضرات والمناظرات التي كانت تقوم بين العلماء .

أسلوب الخطابة في هذا الطور :

كانت الخطابة في هذا الطور كما لها في الشرق من حيث مائة الأسلوب ،
وتخير الألفاظ المعبرة ، والبعد عن التكلف ، والميل حيناً إلى الاقتباس من
القرآن والتضمين .

وكانت ممانيتها غاية في الوضوح بعيدة عن الإبهام والغموض .

أما الطور الثاني للخطابة : فعلى الرغم من وجود دواعيها التي كان من
أهمها الحرب والفن في بعض الفترات فقد ضعفت الخطابة فيه ، لأن الناس
فقدوا قدرتهم على الارتجال فاضطرتهم المواقف إلى تجهيز الخطب وإعدادها
وكان اشتغالهم بالشعر والكتابة والعلم والتصنيف فيه صارفا لهم عن
الخطابة وتجريدها .

وتكاد تنحصر موضوعات الخطابة في هذا الطور فيما يلي :

١ - الخطابة الدينية : في الجمع والأعياد والمظالم وأكثر خطبهم
في ذلك كانت تعد للموقف ، وفي آخر العصر كانت تعد متناولة
للمناسبات الدينية .

٢ - الخطابة السياسية : وكانت على ألسنة الوفود التي يبعث بها
الملوك والرؤساء ، وهذه كذلك كانت تعد وتكتب ولم تتخذ من مظهر
الخطابة غير الإتيان . وكثر هذا النوع في آخر العصر حينما كان يرسل
ملولا الأندلس الوفود إلى المغرب لاستنجد ملوكه . ورثاء الملك الإسلامي
الذي راح يتساقط مدينة بعد أخرى .

الأسلوب : أما أسلوب الخطابة في هذا الطور فقد ظهرت فيه الصناعة
المتكلفة ، وأهمها العناية بالسجع .

وكان يميل إلى الإطناب في جملة شأن الكتابة لأن الخطابة كانت
تكتب وتلقى .

وفيما أنشأه لسان الدين الخطيب وبعث به إلى ملوك المغرب فالتقى بين أيديهم صور من الخطابة من حيث الإلقاء ، وإن كان يعتبر صوراً من الكتابة من حيث الإعداد .

من نماذج الخطابة

١ - من خطبة طارق بن زياد يحرض جنده على القتال :

أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم وليس لكم - والله - إلا الصديق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أصبح من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم ببيشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم^(١) ، ولا أقوات إلا ما تبتخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتتاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم ، وتغوصت القلوب من رعباً منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لمكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت .

وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة^(٢) ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أرباً^(٣) بها عن نفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الأبد طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات الرومان ،

(١) لا وزر . لا عاصم ولا مانع لكم أنكم لا تعتمدون إلا على سيوفكم .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض ويقصد هنا البعد ومعنى (أنا عنه بنجوة)

أني بعيد عنه لا ينالني منه ما يضرك .

(٣) أرباً : أعلو وأرتفع .

الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان^(١) ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عزابانا^(٢) ، ورعيكم للوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا^(٣) ثقة منه بارتياحكم للطعان ، وإسماحكم بمجالد الأبطال والفرسان^(٤) ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنتها خالصاً لكم من دونه . ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولي إجمادكم على ما يكون لكم ذكرآ في الدارين .

واعلموا أني أول مجيب إلى مادعوتكم إليه ، وإنني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاعة القوم لنريق^(٥) ، فقاتله إن شاء الله ، فإن هلك بعدة فقد كفيتهم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه^(٦) وإن هلك قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزمي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا اللهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخلدون .

٢ - من خبطة المنذر بن سعيد البلوطي في حضرة عبد الرحمن الناصر . حينما وصل إليه رسول ملك الروم قال :

أما بعد فإن لكل حادثة مقاما ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال . وإنني قت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم فأصغوا إلى بأسماعكم وأمنوا على بأفئدتكم .

(١) العقيان : الحرز الياني

(٢) المزبان : جمع عزب أو عزب وهو من لم يتزوج

(٣) الاختان : جمع ختن وهو الصهر أو كل ما كان من قبل المرأة يعتبر

ختاناً لزوجها

(٤) أى مرانتكم على مضاربة الأبطال والفرسان بالسيوف

(٥) لنريق : ملك أسبانيا أيام الفتح الإسلامى وكان يقود بنفسه المعركة

(٦) أى لم تكونوا بحاجة إلى مثل هذا البطل لأنكم جميعاً على غراره من البطولة

معاشر الملا : إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، والبطل كذبت
وإن الجليل - تعالى في سمائه ، وتقديس بصفاته وأسمائه - أمر كليمه (١)
موسى - صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه - أن يذكر قومه بأيام
الله جل وعز - عندهم ، وفيه وفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أسوة (٢) حسنة ، وإني أذكركم بأيام الله عندهم وتلافيه لكم بخلافه أمير
المؤمنين التي لمت شعركم (٣) ، وأمنت سر بكم (٤) ودفعت قوتكم بعد أن كنتم
قليلا فكثركم ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم ، ولأه الله رعايتكم ،
وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها (٥) على الآفاق ، وأحاط
بكم شمل التفاق حتى صرتم في مثل حدقة البعير (٦) من ضيق الحال ونكد
العيش ؛ فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، واتقلتم بسياسته إلى تمهيد
كذب العافية بعد استيطان البلاء .

أنشدكم معاشر الملا ، ألم تكن الدماء مسفركة فحقها (٧) ، والسبل
مخوفة فأمنا ، والأموال منتهية فأحرزها وحصنها .

فأذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها
بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم . وشفي صدوركم ، وصرتم يدا على

(١) كليم الله هو موسى عليه السلام

(٢) الأسوة : القدوة

(٣) لمت : جمعت والشعث : التفرق

(٤) السرب : النفس

(٥) السرايق : مايمد فوق صحن البيت والمعنى المقصود هنا : الفتنة

التي خيمت

(٦) حدقة البعير عينه ويضرب بها المثل في الضيق

(٧) حقن الدماء : حبسها وأتقلها من القتل

عدوكم بعد أن كان باسمكم^(١) يذمكم .

تمودج من الطور الثاني

تألب بنو حسون على قاضى مالطة إبنى محمد عبد الله الوحيدى .

فقام أبو عبد الله بن الغفار بين يدى يوسف بن ناشفين يدافع عنه فقال :
لأنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، ونصل على خير أنبيائه
محمد الهادى إلى الصراط المستقيم وعلى آله وصحباؤه نجوم الليل البهيم^(٢) .

فإنا نحمد الله الذى اصطفاك للؤمنين أميرا ، وجعلك للدين الحنيف
نصيرا وظهيرا ونفزع إليك عا دهمنا فى حماك ، ونبت إليك مالحننا من
الضيم^(٣) ونحن تحت ظل علاك ، وبأبى الله أن يدم من احتسى بأمر
المسلمين . ونصاب بضم من ادرع بحصنه الحصين^(٤) ، شكوى قت بها بين
يديك فى حق أمرك الذى عضده مؤيده لتسمع منها ما نختبره برأيك وتنقده ،
وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت بهدله
فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته
وبرضى الله تعالى - ويرضى الناس بظاھرهِ وسريته . ما علمنا عليه من سوء ،
ولا درينا له موقف خزى ، ولم يزل جاريا على ما يرضى الله - تعالى -
وبرضيك وبرضينا إلى أن تعرضت بنو حسون إلى الطعن فى أحكامه ،
والهد من أعلامه ، بل جمحوا فى لجأهم^(٥) فعموا وصموا وفعلوا وأمضوا
مابه هموا .

وللى الشجب يرفع الكف من قد جف عنه ميل عين ونهر

(١) البأس : الشدة والقوة

(٢) البهيم : المظلم (٣) نبت : لشكو . والضيم ، النذل

(٤) ادرع بحصنه : أى احتسى به فكأه جملة درعا له

(٥) اللجأ : التماذى فى الخصومة

الكتابة الأدبية

موضوعاتها ، خصائص أسلوبها ، أظهر ما تمتاز به من الكتابة
في الشرق

نزل العرب الأندلس ولغتهم عربية خالصة حين يكتبون أو يملون على
كتابهم ما يكتب ، وقد شغلهم الأحداث عن التأثر بالجو الجديد في الكتابة
فبقى لكتابهم طابعها الذي كان لها في الشرق من حيث : روعة الأسلوب
وقوة البيان ، والبعد عن التكلف وعن التعميق ، وقلة السجع ، والميل إلى
الإيجاز غالبا ، وعاشت الكتابة الأدبية مع الأغراض التي كانت لها في عصر
بنى أمية والتي كان أهمها الرسائل الإخوانية .

فلما قام ملك بنى أمية في الأندلس ظهر النشاط الفكري ونجحت قوته
وبلغت النهضة العلمية والأدبية مبلغاً سائر النهضة في المشرق .

وكان لكثرة العلماء الأندلسيين من الشرق من أمثال :

أبي علي القالي صاحب الآمالى وصاعد بن الحسين البغدادي ومئات
غيرهما من أعلام العلماء والأدباء ، كما كان لكثرة المدارس والمكتبات
والمساجد وعناية الملوك والأمراء والوزراء بالنهضة الأدبية الأثر الكبير
في نهضة الكتابة ، كما كان لرحلة الكثير من أبناء الأندلس إلى الشرق
للزود من ثقافته وعودتهم إلى الأندلس بثروات من العلم والآداب محفوظة
أو مخطوطة . كل ذلك قد اجتمع مع الرغبة الحافزة إلى بناء أمة عربية في
الأندلس تباهى بعلمها وأدبها الشرق العربي مهد الحضارة العلمية والأدبية ،
وأعانهم على ذلك البناء سعة الاطلاع ودراية أيام العرب ومفاخرهم
وآثارهم .

وعاش العرب في الأندلس والمتعربون من أهلها عهد بنى أمية وملوك

الطوائف يصورون كل ما يشاهدون بأقلامهم كتابة معبرة عن الطبيعة وجمالها ، والمعاني الاجتماعية التي يعيشون فيها ، فكان نثرهم الأدبي مظهرا للمدنية والحياة العقلية والسياسية الجديدة ، وراح النثر يتناول الأغراض التي تناولها الشعر من وصف المباني والقصور والتمائيل ، ومحافل الأمراء وأبهة الملك والمجادلات والمناظرات ، ومجالس العلم والأدب وطرق الموضوعات الاجتماعية .

وكثر الفصول الممتعة في المناظرات الخيالية . كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر ، والمناظرة بين بلاد الأندلس لابن بحر صفوان . وكتبوا في الزهد والتصوف ، وأجادوا فن المقامات وكتبوا فيها فصولا ساحرة جال فيها الخيال جولاته ، واستخدموا فيها براعة الأساليب واتقاء الألفاظ ، وأمنوا في إبراز الصناعة في تلك المقامات شأن مقامات الشرقيين ، وكثيرا ما نشاهد للأندلسيين صوراً من الأدب الرائع رقت فيه الألفاظ وتدفقت المعاني وراح الخيال حتى لا نكاد نجد بين ذلك اللون والشعر من فرق غير القافية .

ونستطيع أن نستخلص مما قدمنا موضوعات الكتابة الأدبية في عصرى بنى أمية وملوك الطوائف أنها كانت :

١ - الوصف : وقد اقتضت أقلامهم في وصف المشاهد والقصور والمحافل ومجالس الشراب وآلاته ، ومجالس الغناء والرياض .

٢ - الموضوعات الاجتماعية : لقد تناولوا الكتابة في الموضوعات الاجتماعية بأسلوب قصصى كرسالة حنّ بن يقطان لابن الطفيل .

٣ - الرسائل الخيالية : كرسالة ابن شهيد وهي من نوع رساله الغميران لابن العراء الممرى .

٤ - المقامات : كقامة أبي حفص ابن الشهيد على لسان الديك .

٥ - الرسائل : المتضمنة الإشارة إلى الأحداث والوقائع التاريخية

والأمثال والحكم كرسالتى ابن زيدون الهولية والجديدة ، والحافلة بالمعلومات التاريخية وسرد آثار المؤلفين كرسالة ابن حزم فى تفضيل مدن الأندلس .

٦ - المنظرات الخيالية : كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد أو بين

البلدان كرسالة أبى بحر صفوان ، أو بين الأزهار وتفضيل الورد كرسالة ابن برد .

٧ - الرسائل الاخوانية : فى العتاب والاعتذار والفخر والمدح والتهنئة

والشوق والتهادى والتعزية .

خصائص أسلوب الكتابة فى عهد بنى أمية وملوك الطوائف

يمتاز أسلوب الكتابة فى عهد بنى أمية وملوك الطوائف بركة ألفاظه وتحليته بالاستعارات الجميلة ، والتشبيهات البديعة ، والسجع القصير الفواصل الذى يحكى سجع الخائم ، كما يمتاز بتضمين الكتابة بالأمثال والحكم ، والاكتناز من الترادف ، والإشارة إلى الوقائع التاريخية ، والخلو من المحسنات زلأما جاء عفوا فى أوائل هذا العهد ، ثم الاكتناز من المحسنات بعد ذلك بعد أن سرت إليهم العدوى من المشاركة .

وأما المعانى فهى زاهرة بالصور النفسية والاجتماعية . وهى بعيدة فى الجملة عن العمق والغموض إلا فى بعض كتاباتهم الفلسفية .

الكتابة من عهد المرابطيين إلى آخر حكم المسلمين

وأما الكتابة من عهد المرابطيين إلى أواخر عهد بنى الأحمر فقد كانت موضوعاتها هى موضوعات العهد السابق لأن الكتاب غنوا بتقليد من سبقهم فطرقوا الموضوعات التى كتبوا فيها .

وظهر للكتابة موضوع كانت بوادر الكتابة فيه من أواخر عهد ملوك الطوائف ولكن الكتاب في عهد بنى الأحمر أوغلوا فيه وهو موضوع الشفاعة والاستنجاد فكتبوا الرسائل المطولة يستشفعون فيها برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو بالأولياء وأرسلت لتلقى في الروضة الشريفة أو في الأضرحة . كما كتبوا يستنجدون بملوك المغرب بعد أن داهمهم عدوان النصارى وزحفهم من الشمال .

خصائص الكتابة وأسلوبها في هذا العهد :-

لقد طغت الصناعة والتكلف على أسلوب الكتابة فأرسلوا السجع الملهل الفقرات ، والتورية بمصطلحات العلوم ، ومال الكتاب عامة إلى الإطناب المل ، وبخاصة في رسائل الاستشفاع والاستنجاد ، ولم يتركوا صناعة لفظة إلا سافوها تاركين النظر إلى المعنى حتى ضاعت المعاني وراء زخارف المحسنات الممقوتة ، وإمام الصناعة في هذا العهد هو لسان الدين ابن الخطيب

أظهر ما يمتاز به كتابة الأندلس من الكتابة في المشرق

١ - الميل إلى الأساليب القصصية والرسائل الخيالية كالحديث الذي تخيله ابن برد بين الأزهار والمناظرات بين المدن الأندلسية وبين السيف والقلم .

٢ - التقنن في إبراز وصف الطبيعة في صور معبرة تضع بين يدي القارئ ومشاعره أفانين الجمال التي كانوا يعيشون فيها .

٣ - تسجيل جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية التي كانوا يعيشون فيها من حيث تسجيل صور مجالس الخمر والغناء وحياة المجون والفكاهة والمرح .

٤ - تصوير كل مظاهر الحضارة والترف التي عاشوا بين ظلالها من وصف القصور والتمائيل وأبهة الملك .

٥ - العناية بتضمين كتاباتهم الكثير من أمثال العرب وحكمهم والمأثور من شعرهم .

٦ - التلبيح إلى الوقائع والأحداث التاريخية التي عاشها العرب في الشرق .

٧ - الاقتباس من القرآن والحديث في الكثير من كتاباتهم .

٨ - العناية بالسجع القصير الفقرات في عهد بني أمية وملوك الطوائف والاسراف في السجع المهمل الفقرات فيما بعد ذلك .

٩ - التوربة بالمصطلحات العلمية وكان ذلك نتيجة لدواسانهم الواسعة للعلوم المختلفة .

١٠ - الاكثار من الترادف والميل إلى الإطناب . وقد شاع ذلك في أواخر عصر المسلمين بالاندلس .

نماذج

١ - من الرسالة الهزلية التي بعث بها ابن زيدون على لسان محبوبته ولادة بنت المستكفي إلى ابن عبدوس الوزير ، وهي حافلة بالسخرية والتهكم والذم وضرب الأمثال للاستهزاء والتضمين والاشارات إلى وقائع تاريخية . قال : - أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ^(١) ، البين سقطه ^(٢) ، الفاحش غلظه ، العائر في ذيل اغتراره ، الأعشى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب ^(٣) ، فإن العجب ^(٤) أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتني مستهديا

(١) أي الواقع في ورطة وهي الهلاك بسبب جهله

(٢) السقط : الخطأ

(٣) التهافت : التزأى مع خفة وطيران ، والشهاب : الشعلة من النار

(٤) العجب : الكبرياء

من صلتى ما صغرت (١) منه أيدى أمثالك ، متصديا من خلتي (٢) لما قرعت (٣) دونه أنوف أشكالك ، مر سلاخيلتك (٤) مر تادة ، مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك أنك ستزول عنها إلى ، وتخلف بعدها على .

ولست بأول ذى همة دعت له ليس بالنائل (٥)

ولا شك أنها قلتك (٦) إذا لم تضن (٧) بك ، وملتك إذا لم تغر عليك ، فإنها أعذرت في السفارة لك ، وما تصرت في النياحة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه (٨) حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك ففضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأئك فلك عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كثرز ، وكسرى حمل غاشيتك (٩) وقصر رعى ماشيتك ، وهبها لم تلاحظ بعين كلية (١٠) (عن عيوبك) ما لها حبيبها ، حسن فيها من تود ، ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالعبدى تسمع به خير من أن تراه .

٢ - من التورية بمصطلحات العلوم من رسالة كتب بها ابن خفاجة إلى بعض إخوانه وكانت بينهما مقاطعة فولى ذلك الأخ حسنا فكتب إليه ابن خفاجة يقول :-

أحال الله بقاء سيدى ، النبيلة أوصافه ، الزهية عن الاستثناء ، المرفوعة

(١) صغرت : خلت

(٢) خلتي : مودتى (٣) قرعت . ردت

(٤) يقصد بها المرأة التى كان يتخذها ابن عبدون رسولا بينه وبين ولادة

(٥) هذا البيت للسنى والنائل : العظام

(٦) قلتك : جفتك (٧) تضن : تبخل

(٨) هيولى الشيء : حقيقته وأصله

(٩) الناشئة : جلد يلبس جفن السيف

(١٠) عين كلية : نايبة ومنطقة عن النظر

إمارته الكبيرة بالابتداء ، ما اتخذت ياه يرمى للجزم ، واعتلت واو بنزو
لموضع الضم ، كتبت عن ود قديم هو الحال ، لم يلحقها انتقال. وعهد كريم
هو الفعل لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ،
وبعض هذا بعد من الحروف الجازمة .

٣ - من رسائل البكاء والاستنجد حين وقعت بلنسية في قبضة العدو
كتبها أبو المطرف بن عميرة المخزومي إلى ابن الأبار .

وهي رسالة طويلة جاء فيها :

فيا لله لأترب درجوا^(١) ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت
الأجنحة وقيل طيروا ، وإنما هي القتل أو الأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدي
سبا ، وانتشروا ملء الوهاد والربا^(٢) ، ففي كل جانب عويل^(٣) وزفرة ،
ويكل صدر غليل^(٤) وحسرة ، ولكل عين عبرة ، لا ترقأ من أجلها عبرة^(٥) ،
داه خامر^(٦) بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتى سجي^(٧) على موتاهها^(٨) ،
وشجا ليومها الأطول كلها وقتها .

(١) درج : مثنى .

(٢) الوهاد : جمع وهدة وهي المكان المظلم والربا جمع ربوة وهي
ما ارتفع من الأرض .

(٣) العويل : رفع الصوت بالبكاء .

(٤) الغليل حرارة العطش .

(٥) لا ترقأ : لا تنجف والعبرة : الدفعة .

(٦) خامر ، خالط .

(٧) سجي . غطى .

(٨) شجا ، حزن .

الشعر في الأندلس

(مبلغ عناية الأندلسيين به ، العوامل المؤثرة في رقيه ، موضوعاته وماجد منها ، خصائصه في أسلوبه ومعانيه ، وما استحدث في أوزانه وقوافيه ، أبرز ما امتاز به من الشعر في الشرق ، نماذج منه) .

الشعر فن جميل ، والطبيعة الجميلة توجبه وتضفي على صورته ألوانا من الجمال الساحر ، وبلاد الأندلس بلاد السحر والجمال ، نزع إليها العربي الذي عاش حياته لا يرى الأعشاب والأزهار إلا حيث تنساقط الأمطار .

فلما استقر به المقام بين طبيعة الأندلس الفتانة ، راح يشدو بمحاسنها ، وفتقى بمفاتنها ، فهام بين الخنائل ونحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، حتى ملا روحه من ذلك الجمال ، ثم راح يصوره ويترجم عنه ، ويتلقى عنه الوحي والإلهام ، وكل ما يوجهه الجمال فهو جميل .

وحينا سمع الأندلسي ما يشدو به العربي النازح من شعره أو من ماثور آبائه أرفسته موسيقى الشعر فترنح مع القوافي والأوزان .

ثم هام بذلك اللون من الفنون فتجاوب مع هيامه ، وأقبل على لغة العرب يتعلمها ويحفظ كل ما يهوى لإجادتها ، ولقى موسيقى الشعر عونا على الحفظ فحفظ الكثير منه . ونمى فيه الشعر الملكة الموسيقية ، وحفزته الرغبة الملحة إلى تعلم لغة العرب كما دفعه الزهم العقلي الذي تولد فيه إلى الإقبال على حفظ القرآن كمصدر أول لتلك اللغة ، وإلى الحديث كمصدر ثان ، وإلى الماثور من كلام العرب ، وإلى الوقوف على أخبار العرب وتاريخهم وأيامهم ونهضتهم في الشرق ، ولم يمض قرن من الزمان على العرب النازحين والأندلسيين المتعربين حتى تجلى مبلغ عناية الجميع بالشعر كفن من الفنون الجميلة أضاف

فيه العرفى إلى صورته للماضية من حياته البدوية وذكرى بلاده صورة جديدة حافلة بذكر الرياض والبساتين والأنهار والمياه الجارية وظلال الأشجار ، وصور المجتمع الجديد من قصوره ، وبجالس شرايه وغنائه ، ومسارح اللهو والاستجمام وتجارب معه الأندلسى المتعرب ، فتفنن في إبراز صور بلاده والتغنى بمحاسنها ، وما أضفته عليها الحضارة الجديدة .

وبعد قرن من عمر الدولة الأموية في الأندلس وبعد تدفق علماء الشرق وأدبائه عليها ، وعودة طلاب العلم والأدب من الشرق ، وقد نهلوا من ثقافة الشرق ما نهلوا — حفلت مدن الأندلس وقراها بالناطقين بالشعر من الرجال والنساء وامتلأت قصور ملوكها وأمرائها وعظماؤها بمجالس الأدب ، يتنافس فيها المتنافسون ، ويتسابق المجيدون .

وقد تهافت الشعراء على المناظرة الزاخرة بالجمال في بلاد الأندلس فعاشوا فيها ، وحدثوا الأجيال عنها ، ومن هؤلاء أبو الحسن بن زرار يحدث عن وادى الأشات بقرب غرناطة فيقول :

وادى الأشات يهيج وجدى كلما أذكرت ما أفضت بك التهام
لله ظلك والهجير مسلط قد بردت لفحاته الأنداء
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة منه فتطرف طرفا الأفياء
والنهر ييسم بالحباب كأنه سلخ نضته حية رقشاء (١)

وتسابق شعراء المدن والقرى في تصوير مدنها وقراهم وفي الخنين إليها إذا نزعوا منها .

استمع إلى حنين أبى بكر الخزومى إلى قرطبة يقول :

(١) الهجير . الحر ، والأنداء . جمع ندى وهو الطل والأفياء . الظلال —
والحباب ، الفقائيع ، والسلخ . الجلد — نضته خلعت

أقرب طبة الغراء هل لي أوبة إليك وهل يدنونا ذلك العهد (١)
سقى الجانب الغربي منك غمامة وقع في ساحات دوحاتك الرعد
لبالك أسحر وأرضك روضة وتربك في استنشاق عنبر ورد
وبعضهم يبرز صورة مدينة بلنسية فيقول :

كان بلنسية كاعب (٢) وملبسها سندس أخضر
إذا جثتها سترت نفسها بأكامها فهي لا تظهر
ومكذا تجلت عناية الأندلسيين بالشعر في وصف بلادهم وتصويرها
والإكم صورة عامة لبلاد الأندلس يقدمها ابن سفر المريني :

في أرض أندلس تلتد نهار ولا يفارق فيها القلب سزاء
وأي ن يعدل عن أرض (٣) يحض بها على المسداة أمواه وأفيا (٤)
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء (٥)
أنهارها فضة والمك تربتها والخز روضتها والدر حصاء (٦)
ليس النسيم الذين يهغو بها سحرا ولا انتثار لآلى الظل أنداء
ولعنا أرج الند استثار بها في ماء ورد فطابت منه أرجاء (٧)
وابن خفاجة يراها جنة الخلد في قوله :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا محسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

(١) (قرطبة حاضرة ملك بنى أمية وأكبر مدن الأندلس . والابوة الرجعة
والدوحات جميع دوحة وعلى الشجرة العظيمة)

(٢) والكاعب : الجارية التي تكب تديها وارفع .

(٣) تحض : تحت وتذفع . المسداة : الخمر . أمواه : جمع ماء أفيا . جمع في . وهو الظل

(٤) صنعاء عاصمة اليمن وقد اشتهرت قديما بالوشى

(٥) الخز : الحرير (٦) الند : الطيب والأرجاء : النواحي

وأصبح الشعر شغل الأندلسين الشاغل . وأبرز ما كان ذلك في عهد ملوك الطوائف وبخاصة في ملك بني عباد في أشيلية حيث كان ملكها شاعرا وكل وزائه شعراء . فجالسه وندواته ورحلاته يكاد يكون التخاطب فيها بالشعر ، حدثوا أنه خرج في رحلة وزراؤه وندماؤه وأصفياءه ، فرح جواده وسط مزرعة تين فضرب بهصاء شجرة فعلفت بها تينة كبيرة فالتفت إلى من حوله وقال : أجزوا (أى أكلوا) البيت :

كانها فوق العصا

فأجازه ابن الصباغ بقوله : ^{هينة} هاته زنجى عصى .

كما حدثوا أنه خرج في سفينة في نهر أشيلية فراقته صفحة الماء المتجمعة والنسيم يداعبها فقال لمن حوله : أجزوا .

نسج الريح من الماء زرد

فأجابته اعتماد زوجته : أى درع لقتال لوجعد :

ولم يقع بصر الأندلسين على منظر إلا صوروه ولاجال بخواطرم شئ . إلا أبرزوه في لوحات شعرية ناطقة مظهرة المد والجذر في نهر أشيلية رأها ابن سفر المربى فعلاها كما أرادت له شاعريته فقال :

شق النسيم عليه جيب قيصره فانساب من شطيه بطلب ثاره
فتنا حك ورق الحمام بدوحا هزما فظم من الحياء إزاره

ورأى آخر منظر الشهاب المتهاوى من الجوليل فنبه تلك الصورة بصورة أوحثا إليه الحياة فقال :

وكوكب أبصر العفريت مسترقا للسمع فانقض يذكي لإثره لجه
كفارس حل إحضار عماته نجرها كلها من خلفه عذبه

العوامل المؤثرة في رقي الشعر

أما العوامل التي كان لها أثرها في رقي الشعر في الأندلس فهي :

١ - طبيعة البلاد : إن طبيعة الأندلس الغنية بالأنهار والمروج والرياض ، وهيام العرب والمتعربين بها وامتلاء الخواطر والمشاعر بجمالها كان لها الأثر في أن تصدر الخواطر عنها شعرا جديدا كان وحي الطبيعة الجديدة .

٢ - كثرة الخيرات :

بلاد الأندلس غنية بخيراتها لكثرة الأنهار المتدفقة بينها فلما ملكها المسلمون نموا بخيراتها وأفاضوا العطايا على المبرزين من العلماء والأدياء ، فألهمت عطاياهم قرائح الشعراء فتفتنوا في ضروب القول رغبة في استدرا العطايا .

٣ - عناية الملوك والأمراء بالشعراء :

لقد وضع ملوك بني أمية نصب أعينهم منافسة العباسيين الذين أستلبوا منهم ملك الشرق فتفتنوا أبواب البلاد للوافدين من علماء الشرق وأدبائه ومغنياته ، وألهبوا قرائحهم وعقولهم بما أفاضوا عليهم من المال ، وقد أقام بعض الملوك ندبا خاصا يجتمع فيه بالشعراء يوما في الأسبوع . ومثل هذا الندى يبعث على التنافس في الإجادة لاستدرا رضاء الملوك وأموالهم ، وقد نافس بعض الملوك الشعراء في هذا الميدان وزاحمهم في هذه الصناعة وجارهم الأمراء والنساء وكل ذلك كان من أسباب رقي الشعر .

٤ - مجالس الغناء :

إن مجالس الغناء كانت تحت الشعراء على قرض الشعر الرقيق للتغنى به وقد حفلت قصور الملوك والأمراء والأغنياء بتلك المجالس مجارة منهم

للعباسيين . ومثل تلك المجالس خلقة يالهاب مشاعر الشمرء العمل على
تخير الشمرء الرقيق والأوزان التي تضيف إلى الانعام الموسيقية أنعاماً جديدة
تنسق بها وكان ذلك سبباً في اختراع الموشحات كما يأتي :

٥ - مجالس الشرب :

انعكست صورة المجتمع الشرقي على المجتمع الأندلسي فكثرت مجالس
الخمر . ولم تكن مجالس عربية بل مجالس أدب جلس فيها الشمرء يشربون
ويرون منظر الخمر وسقاتها وكؤوسها ثم يرسلون شعرهم صوراً دقيقة لتلك
المجالس وما يدور فيها :

وهاك صورة جمة يقدمها الوزير بن شهيد وهو أشل حين شرب وقام
يرقص بين يدي الملك . ويقول :

هاك شيخاً قاده السكر لكاء قام في رقصة مستهلكا
عاقه عن دزءا منفرءا تقرص أخى عليه فأنسكا (١) ،
أنا لو كنت كما تعرفنى قت إجلالا على رأسى لكاء
قبه الأبريق منى ضا حكا ورأى رعة رجلى فسكى

٦ - النشاط الأدبى :

لقد غمر النشاط الأدبى مدن الأندلس وقرأها بعد أن حفلت بالمشاهد
والمدارس ، والمكتبات ، والعلماء ، والوافدين . فغز كل ذلك الأندلسيين
إلى القراءة والإطلاع والحفظ حتى اكتسبوا من كل ذلك ثروات أدبية
أعانتهم على الشعر ، وعن ثم تربت فيهم ملكات شعرية لا تنقل عن ملكات النازحين
إليهم من أدباء الشرق .

(١) عاقه - منه وضده - التقرص - الشلل

موضوعات الشعر

لقد طرق الأندلسيون جميع الموضوعات التي قال فيها المشارقة من المدح والغزل والرثاء والتهاني ، والتعازي ، والغزل بقسميه (الغزل في المذكر والغزل في المؤنث) والحكم ، والمواعظ ، والفلسفة ، والهجاء ، والفكاهة ، والمجون ، والوصف ، والفخر ، ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، والزهد ، والتصوف .

ولكن شاعريتهم لم تسير المشاركة في القوة التي جادوا بها في كل هذه الموضوعات بل فاق الأندلسيون المشاركة في بعضها . وتخلفوا عنهم في بعضها الآخر وساروم في بعض ثالث وأضافوا على الموضوعات الجديدة . . .
أما أم ما فاتوا فيه المشاركة فهو . . .

الوصف :

لقد وصف المشارقة الليل والجبال والبحار والحيوان وغير ذلك في الجاهلية والإسلام ، وتناول بعضهم وصف الطبيعة وماشاهدوه مما استحدثته الحضارة الفارسية في العصر العباسي ، ولكن الأندلسيين فاقوم في هذا اللون وكسروا ما تناوله المشارقة أنوياً جديدة من التشبيهات الرائعة التي تناسب بيئتهم فقد وصفوا التنزه في الليل تحت أضواء القمر والأشجار والغصون في تديها على الشواطئ . وظلها الظليل ، وأشعة الشمس التي تداعب صفحة الماء كقول ابن خفاجة : -

لله نهر صال في بطحاء أشهى وروداً من لى الحناء (١)
متعطف مثل السوار كأنه - والزهر يكنفه - بحر سماء (٢)

(١) البطحاء : مسيل الماء الواسع ، اللى : سرة في الشفتين محردة

(٢) بحر السماء : منطقة في السماء ذات نجوم كثرة لا يميزها البصر فتراها

قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها حذب تحف بمقلة زرقاء (١)
ولظالماً عاطيت فيه مدامة صفراء تخضب أيدى الندماء
والريح تبعث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء (٢)
والماء أسرع جريه متحدراً متلوياً كالخية الرقطاء (٣)
ووصفوا التماثيل ، وبرك المياه ودوائر الزهر كقول بعضهم في دائرتين
من ورد وياسمين .

يا حنينا دائرة من ياسمين كالخيل
فالورد قد قابلها في حلة من خجل
كما شق وجهه تغامرا بالقل
فاحمر ذا من خجل واعشرا ذا من وجل
وأثوا بالغريب الرائع من الماني في وصف النساء كقول الشاعر
البطيوسي (٤)

غصوا الصباح فقتلوه خدودا وتناهبوا قصب الأراك قدودا (٥)
ورأوا حصى الباقوت دون محروم فقلدوا شهب البهاء عقودا (٦)

(١) الهدب : شعر الاجفان
(٢) ذهب الأصيل : الأصيل يشبه الذهب ، لجين الماء : الماء يشبه اللجين
وهو النضة

(٣) الخية الرقطاء : التي فيها نقط بيض
(٤) عبادة بن محمد البطيوسي ، ولد في بطيوس ، ولشأ في بلنسية ، وكان
أديباً وعالماً بالعربية ، وأشهر كتبه (الانتصاب في شرح أدب الكتاب) شرح
فيه كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) . وتوفي البطيوسي سنة ٥٣١ هـ
(٥) قصب الأراك : أغصانه والأراك نوع من الشجر مستقيم العود
(٦) الباقوت : نوع من الجواهر التي تتحلل به النساء

واستودعوا حديق الما أجفانهم فسبوا بين ضراغماً وأسوداً^(١)
 لم يكفهم حل الأسنة والظبا حتى استماروا أعينا وخدوداً^(٢)
 وتضافروا بصفائر أبدت لنا ضوء النهار بلبيلها معقوداً
 صاغوا الثغور من الأفاحي بينها ماء الحياة لو اغتدى موروداً^(٣)

ووصفوا القصور وأبوابها وصور الأساد التي على الأبواب ونافورات
 المياه وتماثيل الأساد فوقها كقول ابن حمديس في قصر بناء المنصور
 ابن أبي عامر :

وإذا الولائد فتحت أبوابه جعلت ترحب بالعفاة صريراً^(٤)
 عضت على حلقاتهن ضراغم فغرت بها أفواهها تكبيراً^(٥)
 فكأنما لبنت لتصر عندها من لم يكن بدخولها مأموراً^(٦)
 وضراغم سكنت عرين رياسة تركت خرب الماء فيه زئيراً^(٧)
 أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيراً
 وتذكرت فتكاتنا فكأنما أفتت على أدبارها لشوراً^(٨)

أما الموضوعات التي تختلفوا فيها عن المشاركة فهي :-

الحكم ، الفلسفة ، الهجاء ، الوعظ ، الفخر ، وصف ميادين الحرب
 وما يكون فيها من شجاعة أو جبن .

(١) الحديق : جمع حذقة وهي العين أو سوادها والمها جمع مهاة وهي الظبية
 والضراغم جمع ضراغم وهو الأسد .

(٢) الأسنة جمع سنان وهو فصل الرمح والظبا جمع ظبة وهو حد السيف

(٣) الأفاحي جمع أفحوان وهو نبت طيب الرائحة له نور أبيض

(٤) العفاة : السؤال بتشديد الهزة والصرير : صوت الباب

(٥) فغرت فيها فتحت (٦) لبنت : كمت تمصر : تلوى وتمصر

(٧) المرين : بيت الأسد ، الخربير صوت الماء

(٨) الإقماء : نوع من الجلوس

أما الحكم والفلسفة : فهما يحتاجان إلى عمق ، والأندلسيون لم يكفوا عقولهم ذلك التعمق ، والهجاء لم تكن وراءه عصيات عنيفة تحفز إليه وتثيره حتى ينضج ، والوعظ لم يتجه إليه الشعراء إلا في سن النكوة حيث تكون شاعر ياتهم قد ضعفت ، والفخر لم تثره الشهوية التي كانت طاغية في الشرق . وميادين الحرب كان الشعراء يمتأى عنها لأنهم شغلوا بحياة المجون فلم يشاركوا في المعارك حتى يبرعوا في وصفها ووصف ما يتصل بها . وأما ما ساروا فيه للمشاركة فهو المدح ، والثناء ، والغزل بالمذكر والمؤنث ، والتهاني ، والتعازي ، والحلاعة ، والمجون ، ومجالس الشراب ، ومجالس الغناء ولم يكن لهم في ذلك من جديد غير براءة التصوير ، وإضفاء التشبيهات وألوان الخيال الفني عليها .

وأما ما جددوا وأكثررافه من موضوعات الشعر فهو :

١ — نظم العلوم : لقد بدأ المشاركة هذا اللون من النظم ولم يوغلوا فيه وعنى الأندلسيون به إيسلوا على الطلاب حفظ القواعد وليس لهذه النظم ما يمكن أن يمد به شعرا إلا الوزن . وكان من سبقي الأندلسيين فيه ابن عبد ربه حيث نظم أرجوزة في تاريخ الناصر ومعاركه ، ونظم أخرى في العروض ، ونظم أبو صالب عبد الجبار تاريخ المرابطين ، وغنوا بتنظم قواعد النحو والقراءات ومن المبرزين في ذلك ابن مالك والشاطبي .

٢ — الاستشفاع برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأولياء وأكثر ما كان ذلك في أواخر عهد ملوك بني الأحمر حين كان ينشئ الشعراء القصائد وترسل تلقى عند قبر الرسول أو الولي أو تعلق على الأضرحة .

٣ — الاستنجاد بالملوك : وظهر ذلك في عهد ملوك الطوائف حين زحف عليهم النصارى من الشمال ثم في عهد بني الأحمر حين انقض النصارى على ملك المسلمين في الأندلس ، وراحت المدن تسقط واحدة بعد أخرى .

فتزع أرماء الأندلس إلى ملوك المغرب ، وترجم الشعراء تلك المشاعر
في قصائد بمثواها للاستنجاد .

وكان آخر قصيدة في الاستنجاد قصيدة العقيلي التي كتبها على لسان
أبي عبدالله آخر ملوك بني الأحمر إلى سلطان فاس ومطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والمعجم زعيما لما مثله يرعى من النعم
وهي تربو على مائة بيت .

٤ - رثاء الملك الزائل :

بدأ رثاء الملك الزائل في عهد ملوك الطوائف حين انتزع منهم ملكهم
يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين . وكان أحد الباكين على ذلك الملك
ابن اللعان حين رثى ملك بني عباد فقال : -

تبكى السماء بمزن رانح غادى على البهاليل من أبناء عباد
ورثى ابن عبدون ملك بني الأفاطس الذي انتزعه ابن تاشفين كذلك
بقصيدة مطلعها .

الدمر يجمع بعد العين بالآثر فالبكاء على الأشباح والصور

خصائص الشعر الأندلسي في الأسلوب والمخاطب

نزل الشعر العربي بلاد الأندلس في طبيعته البدوية الأولى ، ولكن
مالبت أن أخذ صورة جديدة نتيجة لانساع الصور ، وكثرة الرغبات ،
والاطلاع على العلوم ، وامتزاج النشاط العقلي الجديد بالحياة الاجتماعية
الجديدة .

قلد الأندلسيون المصارفة في الأساليب والمخاطب إلا أنهم كسوها جديداً
من وحي الطبيعة ، وألبسوها جديداً من الخيال حين مزجوا فنههم بكل
(١ - أدب الأندلس)

ما شاهدوا وسمعوا وتخيّلوا وقد كان للشعر الأندلسي خصائص في أسلوبه تجلّت في عذوبة ألفاظه وروقة تراكيه وسلاستها وإلباسها أثواباً من حسن الصياغة بمدّ نخب مرقعها في الكلام وكان لقوة السبك وحسن البيان ، والتفنن في العبارة أثره في جمال الديباجة التي تبدى فيها الشعر الأندلسي .

وليس جمال البيان محصوراً في التشبيه والمجاز والكنابة وحسن الاستعارة ، وإنما قد يرجع قبل كل ذلك أو مع ذلك إلى براعة التعبير عما في النفس وكشف ما بها حتى يؤثر في القلوب ويمتلكها .

وقد نأى الأندلسيون بأساليبهم عن التكلف والغرابة فلا تجد شاعراً من بينهم يتجه إلى الغرابة أو التكلف ، وإذا تبدى في بعض شعر ابن خفاجة شيء من الغرابة فقد يكون مرجعه إلى الإيقاع والبعد في الخيال لا إلى غرابة الألفاظ أو تعقيد الأساليب .

وأما خصائص الشعر الأندلسي في معانيه فترجع إلى امتلاكها وحسن التصرف فيها وذلك يكون في أخذ المعاني القديمة التي وقفوا عليها من المشاركة وإضفاء البراعة في الصنعة عليها .

وأكثر الباحثين يرون أن الشعر الأندلسي ليس فيه ابتكار في المعاني ولا تجديد وإنما الجديد هو طريقة التصوير ، حتى تبدو المعاني وكأنها جديدة فللمهارة التي كانت لهم إنما تتجلى غالباً في استخدام ألوان الجمال الفني من تشبيهات واستعارات وأخيلة هدهد إليها طيبتهم الجميلة فنظر الغلام المتعلق بالزورق يسبح ورامه وهو مرتبط به رآه الشاعر الأندلسي صورة جميلة ربط بينها وبين صورة البدر الساج في السماء ليلاً وهو لا ينفك عن فلكه فقال :

أنظر إلى البدر الذي لاح لك في وسط اللجة تحت الحلك

قد جعل الماء سماء له وصير الفلك مكان الفلك^(١)
فالبراعة التي تشدها إنما تبدو في الربط بين الصورتين .

ما استحدثه الأندلسيون من الأوزان والقوافي

عرف الأندلسيون عن المشاركة البحور المعروفة ، ومازادوه من الألوان
الفارسية مثل السلسلة والدوييت وما اخترعوه من القوما وكان وكان والمواليا
ولكن كل ذلك لم يف بجاجة الغناء الذي شاع في الأندلس وتطلب أوزاننا
جديدة تساعد على تنوع اللحن ، ومن ثم اخترع الأندلسيون الموشحات
والأزجال .

الموشحات

اخترع هذا اللون مقدم بن معافر الأندلسي وتلميذ عليه أحد بن عبدربه
ثم مضت فترة ركد فيها القول في الموشحات ، ثم انتشر بعد ذلك على يد
عبادة القزاز سنة ٤٢٢ هـ

وقد عز على المشاركة أن يعزى اختراع الموشحات للأندلسيين فادعوا
أنهم سبقوا بالموشحات وأن ابن المعتز الشاعر أول من اخترعها وقالوا إن له
موشحة مظلما :

أيها الساق إليك انشكى قد دعوتك وإن لم تسمع
ونديم^(٢) همت في غرته^(٣) وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من غفوته^(٤) جذب إليه واتركا^(٥)

(١) الحلك الظلمة - الفلك الأول بكون اللام : السفينة . والفلك الثانية
بتحريك اللام واحد أفلاك النجوم

(٢) التديم : الجالس مع الإنسان في الشراب (٣) الغرة الوجه

(٤) الغفوة : النوم (٥) الزق : وعاء . اختر

وسقاني أربعا في أوبع^(١)

وإذا كان ابن المعتز قال هذه الموشحة فلم تتر المشاركة فلم يأتوا بالموشحات إلا بعد ظهور عبادة القزاز وعم المقلدون لكل جديد يظهر خصوصا من أمثال ابن المعتز ؟

والموشحات منها ماهو خاضع لأوزان الشعر المعروفة ، ومنها ماهو خارج على تلك الأوزان ، ومنها ماجاء على قواعد اللغة ، ومنها ماهو متحلل من تلك القواعد ولكنه تحلل يسير .

وقبل إن أول من نظم الموشح المغاربة ، ثم هذبه ابن سناء الملك ، ثم قال الناس فيه بعده ، وقد ألف ابن سناء الملك كتاباً سماه : الطراز في صناعة الموشحات وأنواعها ، وقد طرقت الموشحات جميع موضوعات الشعر .

الإنجال

اخترع هذا اللون من الكلام الموزون (ابن قزمان) وكان تلميذا في المكتب فضربه الفقيه فكتب في لوحه :-

الملاح أولاد أماره والوحاش أولاد نصاره

وابن قزمان جه يغفر ماقبل له الشيخ غفاره

فقال له الفقيه بعد أن رأى ما كتب :-

هجوتنا بكلام مزجول فسمى هذا النوع من الكلام بالزجل وهو كثير الأوزان حتى إنهم قالوا : صاحب ألف وزن ليس بإنجال وقد تطابته حاجة الغناء والإكثار منه ولكنهم اتجهوا به بعد ذلك إلى موضوعات الشعر جميعها فمدحوا به وهجوا وتنزلوا ورتلوا .

وقد راج في عهد المرابطين والموحدين لأنه لا يخضع للغة العربية ،

(١) ينسب ياقوت الحموي هذه الموشحة إلى ابن زهر الشاعر الاندلسي

بل قيل بالعامية التي يفهمها ملوك وأمراء المرابطين والموحدين لأنهم من
البربر (وستأتي في نماذج الشعر نماذج للموشحات والأزجال) .

أبرز ما امتاز به الشعر الأندلسي عن شعر المشاركة

إن الشعر الأندلسي يمتاز بميزات امتاز بها عن شعر المشاركة أبرزها يتصل
بالموضوعات ، والأوزان والقوافي ، والأساليب .

أما الموضوعات : فقد جددوا منها نظم العلوم . وقد أوضحنا فيما سلف
ما كان لهم من باع فيها حيث نظموا في التاريخ والعروض والنحو والقراءات
كما أنهم استحدثوا في الشعر غرضا جديدا هو الاستشفاع برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، والتوسل بالأولياء أُملا في أن يرفع الله عنهم ما نزل بهم
من نوائب العدوان .

واستحدثوا غرضا آخر هو الاستنجاد بملوك المسلمين ليعصروا عنهم
غارات النصارى المتلاحقة التي تحتاج ملكتهم . وتضمن في القضاء على كياناتهم
في الأندلس .

ولما تساقط أمام العدوان المدن والقرى بكوا ذلك الملك الضائع فكان
لهم في ذلك ميدان جديد هو رثاء الملك الزائل .

وكان الجانب الثاني : من مميزات شعراء الأندلسيين هو ما استحدثوه
في الأوزان والقوافي من الموشحات والأزجال استجابة لحاجة الغناء أولا
ثم الانطلاق بهما من الغناء إلى كل الميادين التي جال فيها الشعر من المدح
والغزل والرثاء والاعتذار والاستعطاف والمجاء ووصف كل ما يقع تحت
حواسهم أو يحول بخواطرهم من مجالس الشراب والغناء ، ومناظر الطبيعة .
ومستحدثات الحضارة .

ومنذ عصر ملوك الطوائف إلى آخر عهد بني الأحمر كانت الموشحات

والأزجال تسير الشعر في كل الميادين بل كان لها طغيان على الشعر في عهد
المرابطين والمرحدين حتى كاد يفقد الشعر مكانه لعدم عناية ملوكهما
وأمرائهما به .

وأما الأساليب فقد تجلت فيها الطلاوة وبخاصة في الوصف حيث رقت
الالفاظ وعذبت وبرزت الصور التي قدمها الشعراء تنطق بالجمال وتم عن
سمعة التصورات التي سبحت فيها الأخيلة ، وقد مزجوا الطبيعة بفنهم وبجتمهم
حتى خيلوا للقارى حين يصفون الخمر وسقائها أن الفرححة تغمر الالفاظ
وتتدفق في الكلام في مثل قول ابن خفاجة : -

وأغيد في صدر الكلام لحسنه	حلى وفي صدر القصيد نسيب ^(١)
من الخفيف أما ردفه فتنعم	خصيب وأما خصمه فجديب ^(٢)
يرف بروض الحسن من نور وجهه	وقامته نواره وقضيب ^(٣)
جلاها وقد غنى الحمام عشية	عجوزا عليها للحجاب مشيب ^(٤)
وجاء بها حرام أما حبايها	قنور وأما موجهها فكثيب ^(٥)

وكان لتجلى صور الطبيعة في جميع موضوعات شعرهم ميزة ميزته عن
شعر المشائفة وقد برز ذلك في كل شعر ابن خفاجة فاستمع إليه وهو
يمدح فيقول : -

أبا حسن كم مئة لك حرة كما سح صوب المعارض المتراكم^(٦)

(١) الأغيد : المتشئ اللين (٢) الخفيف : رفاق الخواصر - الردف : المعجز

(٣) النواره : الزهرة البيضاء الناعمة - القضيب : الريح .

(٤) العجوز هنا وحف للخمر وكنى بذلك عن أنها قديمة معتقة

(٥) الحجاب : التفافيع - الكثيب : تل الرمل

(٦) سح : نزل - الصوب : الانصباب - المعارض : السحاب

هزئت لها عطف القضيبي وربما بجمت لبث الشجر بجمع الختام (١)
فأروسة غناء في رأس ربوة نعل بمثل من المزن ساجم (٢)
باحسن مرأى من حلاك لناظر وأعطر نشرنا من ثناك لناظم (٣)

وحتى نرثاء من جوه بالطبيعة وإليك صورة تخيل فيها ابن خضاجة حين
رأى ابته ان الطبيعة تتجاوب معه في أحزانه وبكائه وقلقه وأرقه ودموعه
حيث يقول : —

وكم للحيا من أدمع فيه ثرة وللبرق من جيب عليه مشفق (٤)
وللرعد من قلب به متلبل وللنجم من طرف عليه مؤرق (٥)
فما ابن شمال بات يهفو كأنما به خلف أستار الدجى مس أولق (٦)
بأندى ذبولا من جفوني مرهنا وأمنى جناح من ضلوعي وأخفق (٧)

نماذج للشعر الأندلسى فى أغراضه المختلفة

٢٠ — الفزل لابن زيدون : —

أضحى التأتى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تحافينا (٨)
يكاد حين تناجيك ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأميننا (٩)

-
- (١) العطف : بكسر الميم : الجناح والشجر : الحزن
(٢) نعل : تسقى مرة ثانية - المزن : السحاب : الساجم : النازل
(٣) النشر : الرائحة - الثناء : الحمد وقد قصر هنا الضرورة الشعرية
(٤) الحيا : النظر - ثرة : غزيرة
(٥) المتلبل : المضطرب (٦) الأولق : الجنون
(٧) المومن : نصف الليل - أمنى : أكثر تحركا - الخفق : التحرك والاضطراب
(٨) التأتى : البعد - التدانى : القرب والتجانى المقاطعة
(٩) الأسى : الحزن - التأسى : التصبر

حالت لنفقدكم أيامنا فعدت سوداً وكانت بكم بيضا ليالينا
 إن الزمان الذي مازال يضحكنا أنساً بقربكم قد عاد يكيئنا
 يا سارى البرق غاد القصر فاسقبة من كان صرف الهوى والوديعينا^(١)
 وبانسيم الصبا بلع نحيبتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا
 إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
 لا أكؤس الراح تبدى من شمانلنا سيما ارتياح ولا الأوتار نلينا^(٢)
 دوى على العهد مادمتنا محافظة فالحر من دان إنصافا كما دينا^(٣)

٣ - فى الزهد والوعظ لابن محمد بن

يتك فيه مصرعك وفى الضريح مضجعك
 غربتك دنياك التى لها سراب يخدعك
 يضررك الحرص بها والزهد فيها ينفعك
 لا تأمن منية إن عصاها تفرعك
 إن فرقك نربة فآله سوف يجمعك
 وللحساب موقف أهواله ترزعك
 يراك ذو العرش إذا نادى به ويسمعك
 فتق به ولا يكن لغيره تضرعك

٤ - وصف خمر وغناء لابن شهيد :-

وعلا بنا مكر أبى إلا الإنابة للحارم

(١) سارى البرق : المراد منه السحاب يسرى ليلا . وغاد القصر أى انته
 فى أول النهار وصرف الهوى : خالسه

(٢) الشمانل : المكارم والصفات الحميدة سيما ارتياح : علامته ودلائله

(٣) دان : اعتاد أو جازى

نرى قلائسنا له ونجر من عذب العمائم^(١)
وترنحت فيه القيان لنا ورجعت البواخم^(٢)
قنا نصفق بالأكف لها ونرقص بالجماجم
وأعدن من سدن الملوك سليل أقال خضارم^(٣)
لانتحيه الراشفا ت ولا تباليه اللوامم

٥ - وصف ساعة وداع لابن عبدربه :-

ودعنى بزورة واعتناق ثم نادى متى يكون التلاق
وبدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق^(٤)
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم التفراق أظع يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق

٦ - فى رثاء الملك الزائل لابن عبدون : برئى دوة بنى الأقطس
يطلبوس وكم فيها من حكمة بارعة :-

الدهر يفجع بعد العين بالأنر فالبكاء على الأشباح والصور
أتهاك أتهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر^(٥)
فلا يفرنك من دنياك نومتها فاصحبة عينها سوى السهر^(٦)
مال ليل أقال الله عثرتنا من الليالى وخاتنها يد المير
فى كل حين لها فى كل جارحة منا جراح وإن زأغت عن البصر

(١) القلائس : جمع قلنسوة وهى غطاء الرأس

(٢) القيان : جمع قينة وهى المغنية والبنام : صوت الطيعة الرخيم حين تنادى

ولدها قال البواخم صفة لموصوف يحذوف هو الظباء

(٣) سدن الملوك : حجابهم والأقال : ملوك حمير الخضارم : الأسياد

(٤) الجيوب : فتحات الثوب أمام الصدر

(٥) لا آلوك : لا أدخر (٦) السجبة : الطبيعة

كم دولة وليت بالنصر خدتها لم تبق منها وسل ذكراك عن خير
 عوت بدارا وفلت غرب قاتله وكان عضبا على الاملاك ذا اثر (١)
 واسمعت من بني ساسان مار هبت ولم تدع لبني يوان من اثر (٢)
 ومزمت سبا في كل قاصبة فما التقي رايح منهم بمشكر (٣)
 بني المنذر والايام لا برحت سراحلا والورى منها على سفر
 من البراعة او من اللباعة او من السياحة او للنفخ والضرر
 او رفع كارتة او دفع آزة او قمع حادثة نعا على القدر

٧ - نموذج من موشح ابن البائة الأندلسي في المدح وصدر الموشح
 على عادة الشعراء بالنسب :

أذابت الأشواق - روي على أجساد - أعارها الطاروس - من ريشه أبراد
 كواعب أتراب تحلبت قدا
 عنفت على الغناب بالبرد الأندى (٤)
 أوصت في الأوصاب وأغرت الوجداء
 وأكثر الأوصاب أعدى من الأعداء
 دغ قطعك الآفاق - يا أيها المرتاد وانصد إلى باديس خير بني حماد
 يامن رجا الطلا وأسل التعريس
 إن شئت أن تحلى بطائل التأنيس
 لا تعتمد إلا على علا باديس

(١) ثقت كسرت - الغرب بفتح اللين - حد السيف الغضب : السيف

(٢) بنو ساسان : الفرس

(٣) المتكر من البكور وهو الخروج في الصباح والرواح في العشي

(٤) غناب كرمات ثمر أحر ويقصد به هنا الأنامل والبرد قصد به الاسنان

الأوصاب : التاعب - البرجيس بكسر الباء : نجم أو هو نجم المشتري

من فرفة أعلى شراً من البرجيس

٨ - نموذج للزجل :

يا لله أى نصيب من ليس لي فيه نصيب
 محبوب يخالف ومعه رقيب
 حين قصد مكانه يقيم في المقام
 ويخل علينا برد السلام
 أدخلت يا قلبي روحك في زحام
 علامتك عندي هي شيء عجيب
 وكيف باللا يسلم من هون لبيب

صور الرياض والأزهار في شعر الأندلس

ليس أقدر على إبراز صور الرياض وأزهارها من شاعر يهيم بالطبيعة
 ويهب حياته لأحضانها يستبويه ريعها ويهره خريفها يكي مع شتائها ويتأفف
 مع صيفها ، يشاركها الحياة ويميش معها كالرسام الذي يأمره المنظر فيعيش
 مع لوحته ورشته ، وينسى دنياه ، ويفرغ كل مشاعره في التنفن والإبداع
 حتى يستكمل الصورة التي شاهدها وربما ترك لحياهه التنفن في الألوان
 والأصباغ التي ينفبها على الصورة لتكون جديرة بالإعجاب والتقدير .

وعلى رأس المهتمين بالطبيعة من الأندلسيين ابن خفاجة وهذه
 بعض صوره .

وكامة حذر الصباح قناتها عن صفحة تندى من الأزهار
 في أبطح رخت ثغور أفاقه أخلاق كل غمامة مدرار
 ثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا ورد الندى ودرام التوار
 وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت حلج الحجاب سوائف الالهتار

فثلت حيث الماء صفحة ضاحك جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لم الربا والطل يتضح أوجه الأشجار
وأراكة سجع الهديل بفرعها والصبح يفر عين جين نهار
هزت له أعطانها ولربما خلعت عليه ملاة الأنوار

هذه صورة روضة حافلة بالأزهار تفتت بالظلام حتى حذر الصباح
عنها ذلك القناع فبدت صفحة أزهارها الندية ، وكانت أرضية الصورة ذلك
الأبطح الزاهية أفاحيه لأن تغورها رضعت أنداء السحب الحاطلة وفي الصورة
يد الصبا السخية تتحرك فتثتر درر الندى ودراهم النوار وصور الأبطح وقد
ليس غصن النقا وهي أنضر الأغصان كما أبرز سواكف الأنهار وقد تقلدت
حلى الحجاب وصور صفحة الماء الضاحك الجدلان وعذار الشط ، حيث
طاب له هنالك المقام .

وصور الريح وهي تنفض لم الربا والطل وهو يرش أوجه الأشجار
وأضاف الشاعر إلى المنظر صورة صوتية هي صورة الهديل الساجع على فرع
الأراكة حين راح الصبح يسفر عن جين النهار وأودع المنظر صورة
رائقة هي صورة أعطاف الأراكة وجوانبها وهي تهتز على نغمات الهديل
وتخيل الأنوار وهي تتخلع ملامتها عليه .

والصورة العامة غنية بالأخيلة ، والصور المتحركة والساكنة تلسها في
الصباح وهو يحذر القناع عن الأزهار الندية والآقاحى وهي ترتفع أخلاف
الغمامة وفي تخيل الأخلاف (الندى) للغمامة وفي يد الصبا وهي تثتر درر
الندى وتخيّل حبات الندى دررا والنوار دراعها والأبطح وهو يرندى
الأغصان كما تخيل السواكف للأنهار وتقليدها حلى الحجاب وتصور العذار للشط
وصفحة الماء الضاحك للماء ، والريح وهي تنفض لم الربا كما تخيل للربا لما
وتصور الطل وهو يتضح أوجه الأشجار وتخيّل الأوجه لها والصبح وهو يسفر
عن أوجه النهار والأراكة الرائقة وملاة الأنوار المخلوعة .

كل هذه الاخيلة قدمها الشاعر وهي تحمل معها ما يدل على سعة خيال الشاعر وإيغاله في البعد ومن أوسع خيالاً بين شعراء الأندلس من ابن خفاجة . .

• • •

وهذه صورة أخرى من روائع ابن خفاجة وما أكثرها يقول فيها :

سقى ليوم قد أنحت بشرحة ريا تلاعبها الشمال فتلب
سكرى يفتنها الحمام فتنتى طرباً ويسقى الغمام فتشرب
واهتز عطف النصف من طرب بنا وافتر عن ثغر الهلال المغرب
فكانه والحسن مقترن به طوق على برد الغمامة مذهب

لأنه يصور السرحة التي أناخ بها ودعا ليومه فيها بالسقى ، لأنه يوم
المرح واللعب : لعبت فيه ريح الشمال بالسرحة الريا فلعبت السرحة
ورقصت طرباً حين غناها الحمام وسكرت حيث سقاها الغمام واهتزت
أعطاف النصفون طرباً وتجاوبا مع طرب الشاعر وافتر المغرب عن ثغر
الهلال باسم إعجاباً وبدا الهلال وكأنه طوق مذهب على برد الغمامة .

وهكذا تخيل الشاعر السرحة الآهية السكرى والحمام المغنى والغمام الشارب
والنصف الراقص والمغرب المفتر والغمامة اللاعبة برداً وطوق الهلال الذهبي .

• • •

وهذه صورة أخرى من فن ابن خفاجة يصور فيها الليل والجوزاء
وبعض الأزاهير وغيرها قال :

والليل مشط الذوائب كبيرة خرق يدب على عصا الجوزاء
ثم انتنى والصبح يشحب فرعه ويحمر من طرب فضول رداءه
تندى بفيه أفعوانة أخرج قد غاظتها الشمس غب سماء
وتيس في أنوابه ريحانة كرعّت على ظمأ بجدول ماء

نفخة الأنفاس الأنفاس إلا أنها حذر النوى خفاقة الأفياء
والفجر ينظر من وراء غمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة أغرى بها بينفسج الظلام

في صور ابن خفاجة أخيلة بعيدة لا يدرك أبعادها سوى أولئك الذين
يدركون بعد الآفاق التي عاشت فيها أخيلته فهو فيما يقدم هنا يتخيل الليل كها
ذابت ناصيته ولم يكتف بوصفه بالشيب بل خلج عليه وصفاً آخر كثيراً
ما يعترى الشيخوخة وهو (خرف) وأضاف وصفاً آخر كذلك يلزم الكبير
وهو الدبيب والتوكؤ على العصا ، وتخيّل الجوزاء عصاء التي اعتمد عليها كما
تخيّل الصبح وهو يسحب سراد الليل ويحرق الفاضل من ردهائه ، وتصور الليل
فما فيه أقحوانة ندية كما تصور الشمس لها مشاعر عا وإعجابها وقد تجلّى ذلك
في منازلها للأقحوانة النضرة التي شربت أمواه المطر فازدهرت ، وتخيّل
هنالك ريحانة تيمس وتبختر في أثواب الليل وقد شربت وهي ظمأى من
جدول ماء ، وهي تنفج أنفاسها فيما حولها فتطر الأرجاء وتخيّلها تحذر
البعد فترتش ظلالها خوف النوى وارتعاش الظلال كناية عن ارتعاشها
هي ثم قدم صورة للفجر وهو ينظر من وراء الغمامة بمقلة زرقاء كحلت
بسواد الغمامة وهكذا أظهر الفجر في لونين (زرقاء وسواد) ومنهما يتألف
لون الفجر الحقيقي حيث إن اختلاط البياض والسواد يعطى لونا ثالثاً وهو
الزرقاء وأبدى في جانب الصورة نورة اكتست بنفسج الظلام أغرى الشاعر
بها الفجر فرغب عن نوره لإعجابه بلون تلك النورة وبهذه الصورة المليئة
بالألوان والظلال والأخيلة قدم ابن خفاجة ذلك المنظر الطبيعي الساحر .

ولابن خفاجة أكثر من صورة لليل والبرق والنجوم والسرى وفي هذه
الصورة يقول :

وليل كما مد الغراب جناحه وسال على وجه السجل مداد

به من وميض البرق والليل فحة شرار ترائى والقمام زناد
سريت به أحياه لاجبة السرى نموت ولا ميت الصباح يعاد
يقلب منى المزم إنسان مقلة لها الأفق جفن والظلام سواد
بحرق لقلب البرق خفقة روعة به ولحقن النجم فيه سهاد

صور ابن خفاجة انتشار ظلام الليل في صورتين : الأولى كهراب من
جناحه والثانية كمداد سال على وجه السجل ، ثم جمع ثلاث صور في بيت
فالليل والبرق والقمام كالصفحة والشرار المتراعى والزناد فالليل فحة والقمام
زناد يقدح وميض البرق شرر .

وبين صورته يسرى في ظلام الليل ليحييه بحركته ومسيره ولكن
لم تمت فكرة السرى ولا عاد إلى الوجود ميت الصباح وتقابل المعاني واضح .
ثم صور عزمه وهو يقبله في الليل الداجي فيقلب إنسان مقلة كان الأفق
الواسع جفنا لها وكان الظلام سواد تلك المقلة : فهو يتقلب في الأفق السوداء
كما يتحرك إنسان المقلة في سواد الجفن وتقابه ذلك في أرض واسعة مقفرة
يحقق فيها قلب البرق فزعاً وخوفاً ، وبهذا علل خفق البرق واضطرابه بالفزع
وهي علة جديدة كما أن جفن النجم يسهر في الليل فلا ينام وقد تخيل
للبرق قلباً وأن خفقاته تتم عن روعته من القفر الواسع كما تخيل النجم
جفنًا لا يغمض واعتماض جفن النجم إيذان بنومه وهو ينام نهاراً
ويصحو ليلاً .

• • •

وهذه معركة بين الرماض والأمطار والبروق يصورها محمد بن عبدربه في قوله:

بين الرماض وبين الجو مترك يبيض من البرق أو سمر من السمر
إن أوترت قوسها كف السماء رمت تلامن الماء في زغف من الغدر
لأجل ذاك إذا هبت طلائعها تدرع النهر واعتزت قسا الشجر

هي معركة دارت بين الرياض والجو استعمل فيها كل منهما ما لديه من سلاح فالتخذ الجو سيوفاً من البرق انتضاها وشهرت فيها الرياض الرماح السمر من أشجارها السمر ، وتخليل الشاغر كف السماء توتر قوسها وترى بنبل من الماء في طعن يشبه قطع الماء في الاندفاع قطعة بعد قطعة . وهكذا تصور المعركة .

الترجمة

ابن زيدون

اقرنت الوزارة في الأندلس بالأدب ، فما كان يتولى الوزارة غالباً إلا الأديب البارع في الكتابة والشعر ، فالملوك عندما يخلعون لقب الوزير على رجل ينظرون إلى سياسته وحسن تديره ، بعد الاطمئنان إلى أدبه وعلمه .

وتكون مهمة الوزير استشارية ، ولا يتعدى ذلك إلى التنفيذ (كوزراء الدولة الآن) أما ذوو الوزارتين أو الرياستين ، فللقب يحمله من يستشار وينفذ ، فهو يتولى إلى جانب الاستشارة : تنظيم الجيش أو الرسائل أو الإشراف على ديوان أو أكثر من الدواوين . وابن زيدون كان أحد أولئك الذين حملوا لقب ذي الوزارتين .

نسبه : هو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي ، فهو عربي الأصل أندلسي المولد والنشأة والتربية وكان لغربته المورثة ، وتربيته المكتسبة أثرهما فيه .

ولد ابن زيدون سنة ٣٩٤ ومات ٤٦٣ ، وكان موت والده سنة ٤٠٥ فكان موت أبيه خدمة مبكرة في حياته .

بيته العائلية : كان أبوه قاضياً من كبار قضاة قرطبة وعلمائها وأدباؤها ، وكانت دور القضاء في تلك الفترة حافلة بمجالس العلم والأدب فتفتحت الأبواب

لطلاب العلم ينهلون من مجالس أصحابها ومكتباتهم وإملاهم بمض الشذرات العلمية ما شاءوا .

ومن ثم نرى ابن زيدون أحاطت به منذ نشأته بيئة عليية أدبية أثرت فيه ، وطبعته بطابعها ، لحفظ القرآن مبكراً ، ووجهه أبوه إلى دراسة الفقه والحديث ، واللغة ، والأدب ، وتاريخ العرب وأيامهم ، وأخذ من الطب بقسط شأن المتعلمين في هذه البلاد .

بيئته الطبيعية : نشأ ابن زيدون في قرطبة عاصمة البلاد التي أفرغ الأمويون خزائنها وجهودهم في إرازها في صورة شائخة بقصورها ومتنزهاتها وأحاطوها بالرياض والبساتين ، وأقاموا فيها نافورات المياه ، وبنوا حولها ضاحيتين جميلتين هما الزاهرة والزهرام ، وغرسوا الأشجار إلى جانب الجبال ليحجبوا منظر صخورها عن جمال المدينة . فبدت وكأنها العروس تزهر بجبالها . وتليه على بغداد بسحرها وفتنتها .

وقد تغنى الشعراء بحماسنها ، وتمنوا لأنفسهم بينها عمرا كعمر نوح وذلك ما يرجوه ابن سغر حيث يقول :

وَأين يعدل عن أرجام قرطبة عن يشاء يظفر بالدنيا وبالدنيا
قطر فسيح ونهر مابه كدر حفت بشطيه أنفاس البساتين
ياليت لي عمر نوح في إقامته وأن مالى فيه كنز قارون
وفي ضاحية الزهراء التي أقامها الناصر حولها يقول ابن زيدون مخاطباً
ولادة عيشته :-

إني ذكرك بالزهراء شناقا والأفق طلقى ووجه الأرض قد راقا
وللتسيم اعتلال في أصائله كأنما رقى لي قاعتل إشفاقا
نلك هي قرطبة الجميلة التي ساعدت طبيعتها على إنضاج شاعرية ابن زيدون
(٥ - الأدب في الأندلس)

بيته العلمية والاجتماعية :- زخرت قرطبة في عهد بني أمية وملوك الطوائف بالعلم والأدب لأنها الحاضرة التي تدفق إليها علماء الشرق وأدباؤه أملا في حياة الرخاء التي يعيش بينها أهلها ، كما امتلأت بالعائدين من أبناء الأندلس من الشرق بعد أن نهلوا من معينه ما نهلوا ، وقد كثرت فيها المكتبات ، وحسبها مكتبة الحكم المستنصر التي كانت تضم مائتي ألف مجلد . كما كثرت فيها المتاجد والمدارس ، وغصت إلى جانب ذلك بمجالس المحاضرات والمناظرات واللهو والغناء واخر التي كانت منتشرة بين قصورها ودورها وقد تجاوزت تلك المجالس قصور الملوك والأمراء إلى بيوت الأغنياء ، ومن ثم كانت البيئة التي نشأ فيها ابن زيدون بيئة عليية أدبية فلم يكن بد لابن زيدون وقد تزود من العلم والأدب بالزاد العظيم إلا أن يركض مع الراكضين في ميادين اللهو ليرضى هواه ويؤله ووجدانه .

حياة ابن زيدون :- ولد ابن زيدون ودولة بني أمية قد دب إليها الضعف وتسربت الوهن فاشب حتى رأى شمس دولتهم تميل إلى المغرب ، ورأى كل أمير يستقل بمنطقته وينصب نفسه ملكا عليها ، وراحت دسائس الانقلاب والفتن تموج ظلماتها في الأندلس قاطبة ، ولم يك من المعقول أن تقتض عين الشاعر وحوله هذه الأحداث الصاخبة ، بل انغمس في تيارها وهب يدعو لابن جهور في قرطبة وما حولها ، ولقد صقلته الأحداث ، وتعلم منها دروس السياسة والدهاء ، وفي مدرسة هذا المجتمع تخرج ابن زيدون داهية من دهاء الأندلس ، فلما استقرت الكلمة لابن جهور ألقى إلى جانبه ابن زيدون الوفي الأديب الداهية ، فأسند إليه الوزارة ، ثم خلع عليه لقب ذي الوزارتين ، وكثيرا ما قام بالسفارة بينه وبين ملوك المسلمين في الأندلس ، وقد لى فيه هؤلاء الملوك الذكاء والنبوغ فأغراه بعضهم بالناصب السامية والجاه والمال ولكن نفسه الآية الوفة أبت القدر بابن جهور .

ولم يكن ابن زيدون وحده المقرب من الأدباء عند ابن جمهور بل، كان هنالك إلى جانبه أدباء وزراء تفصوا على ابن زيدون مكانه في الدولة، وأكل الحسد قلوبهم، وأوغلت البغضاء صدورهم، فتآمروا عليه وكادوا له وصادفت دسائسهم مكانا في قلب ابن جمهور حين شعر أن ابن زيدون أخذ يدل عليه بعقريته ودهائه وسياسة التي ساعدت في إقامة الملك لابن جمهور، ومن ثم ألقى به في السجن، وظل ابن زيدون مسجينا خمس سنوات ترجمت فيها شاعريته وأدبه عما يعاني بين تلك الظلمات الرهية من الألم والأسى، وهو الوزير الوفى الذي لم يغير، وفي ظلمات السجن كتب الكثير من القصائد والرسائل يستعطف بها ابن جمهور، كما كتب الشعر والرسائل إلى أبي الوليد وإلى عهد ابن جمهور. وإلى صديقه الوزير أبي بكر، ولما ضاق ذرعا بسجنه بعد السنوات الخمس فر من سجنه واختفى في قرطبة، لأن فيها قلبه وأمله — أما قلبه فعلى ولادة بنت المستكفي أحد خلطاء بني أمية، وأما أمله فعلى بصفح ابن جمهور، وأخيرا عفا عنه ابن جمهور وبقي في قرطبة، ومات ابن جمهور فتولى الملك ابنه الوليد. فأعاد ابن زيدون إلى منصب الوزارة غير أن ابن زيدون خشى أن تليقظ الدسائس للإيقاع بينه وبين الوليد. وقد رأى يواردها تعيش حوله فقر من قرطبة إلى أشبيلية حيث ملك بني عباد قفريه المعتضد، وبعد موته استوزره المعتضد وظل في وزارته حتى مات سنة ٤٦٣ هـ

أدب ابن زيدون وأهم المؤثرات فيه :-

كان ابن زيدون أدبيا نايبا يعد في طليعة أدباء الأندلس في الشعر والكتابة وكانت عقريته نادرة تحسن التصرف في القول، وتجيد التعبير عن الخواطر والمشاعر، وتصور فتحسن التصوير.

ويعيش القارىء بين تلك الصور فيلس من خلالها الأحاسيس
التي كانت تلهب تلك الشاعرية ، وإذا اشتكى أو بان وهو في ظلمات
السجن أحس القارىء بذلك القلب يدمى ويتقطع حسرة واستعطافاً
وإذا وصف ترك بين يدي القارىء صوراً لذلك الجمال الذي سحرته
طبيعته وكأنه يترك رياضاً تزدهى أفنانها مع طلاقة الربيع وتراقص
مع أنسامه .

وكان من أم المؤثرات التي أثرت في أدبه تخلقته خلقاً جديداً
الحب والنجن

أما الحب فكان لولادة التي أحبت فيه أدبه ونبوغه ومكانه وروحه
وكانت ولادة أديبة شاعرة اتخذت قصرها منتدى للشعراء . وكانت حمية
تغشو الأبصار أمام ضوء غرتها ، وتسكن القلوب بعذب حديثها . وحسن
شاعريتها . وقد حامت بابن زيدون وفام هوبها ، وساهرت من أجله
النجوم وساهرها ، أحبا من قلبه ، والحب يفتق القرائح ، ويذكر الشاعر ،
إذا تقلبت حياة المحبين بين الوصل والهجر والترب والبعد ، ومثل هذا الحياة
المضطربة تهيج الشعر وتلهب الشاعرية .

ومكذا كانت حياة ابن زيدون مع ولادة .

وأخذت عليه ميله إلى جاريته قنار وجدها وكنبت إليه عاتبة :-

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم نهو جاريقي ولم تحجير
وتركت غصنا مورقا بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علت بأقنى بدر السما لكن ولعت لشقوقي بالمشترى

وطالما تقلبت حياته معها ، وحياتها معه ، بين الوصل والهجران ،

وطالما تظاهرت بالليل إلى ابن عبدوس الشاعر لتشعل نار الغيرة في قلب ابن زيدون ، وطالما كتبت إليه وكتب إليها .

لقد كتبت يوماً تضرب له موعداً فقالت :-

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكنم للسر
وبني منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالنجم لم يطلع وبالبدر لم يسر

• • •

ولما وقت بوعدها وعمت بالانصراف وقف يقرع السن ويهتف :-

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن .. زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى حفظ الله زماناً أظلمك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وصدت ولادة عن ابن عبدوس ، فأرسل إليها عجزاً تستميل إليه قلبها وعلم ابن زيدون . فكتب رسالته الهزلية الساخرة على لسان ولادة وتهكم فيها بابن عبدوس كما شاء . وهي فيض من السخرية اللاذعة وكم بعث ابن زيدون إلى ولادة وهو مسجين شعراً يذوب أسفاً وحنيناً ووجداً ، وخارج السجن كان يشكو إليها بعدها ونأيها ويترجم بذلك عن عواطف المحب الوامق .

وبذلك كان لولادة الأثر العظيم في شاعرية ابن زيدون .

وأما الأثر الثاني فهو السجن الذي ضم رجلاً كانت تتنافس فيه ملوك الأندلس جميعاً ، وكان دعامة قوية قام عليها ملك بني جهور واقد هاله أن يرى نفسه وهو في قبة مجده قد ألقي به في السجن لا لجرم اقترفه ، وإنما هم الوشاة الناعون وعلى رأسهم ابن عبدوس منافسه في حب ولادة ، وعملت

الآلام عملها في نفسه فأرسل نقائمه رسائل وأقاصد لابن جهور يستعطفه ولائته الوايد. ليستشفع له عند أبيه ، وظل خمس سنوات يتقلب خلالها على نار الأسى . ويتحرق بسعير الغيظ والكمد ويقول :

سنون من الأيام خمس قضيتها أسيرا وإن لم يبد شد ولا ربط
ومن السجن بعث الرسالة الجديدة يستعطفه بها ابن جهور ، وهي فيض
من الدمع والالام والاستعطاف والتحرر . ومكم تسأل فيها عن جريته .
التي اقترفها . وهذه الرسالة كرز من كنوز الأدب غمرها بالتضمين بالأمثال
والحكم وأيات الشعر وأنصاف الآيات .

موضوعات شعره وأسلوبه فيه :

لقد قال ابن زيدون في كثير من أغراض الشعر ، وأهم ما برع فيه الغزل
والوصف والمدح والاستعطاف والعتاب والشكوى والثناء وأسلوب شعره
كاه رقيق لأنه صادر عن طبع سالت رفته مع الحب والشكوى ، والتهيب
معهما أحاسيسه ووجدانه .

ومكم تراحت عليه الصور والمعاني فأرسلها في صياغة قوية تعبر عن
الشوق والعتب والالام والحنين إلى مجالس الفناء والخر وذلك كله يطالعك
في قصيدته التي بعث بها من السجن إلى صديقه أبي بكر حين يرجوه فيقول :-

وأدر ذكرى كاسا ما امتطت كفك كاس

فمضى أن يسمح الدهر فقد طال الشماس

أما أسلوب ابن زيدون في النثر : فهو يعتمد على التلاعب بالالفاظ
دليل الثروة اللغوية التي كان يمتاز بها كما يعتمد على التضمين فيجمع الكثير
من شوارد الحكم والأمثال ، ويشير إلى الوقائع التاريخية والأحداث التي
تشابه أو تشير إلى موقفه كوقوفه وليكثرة مغالاته في ذلك .

يرى بعض النقاد أن كتابة ابن زيدون ليست إلا جمعا للحكم والأمثال وليس له من جهد فيها غير الاختيار ، ووضع الحكم والأمثال والآيات التي يضمن بها في مواضعها من الكلام ولا شك أن مثل ذلك التصرف ووضع الأمثال والحكم في الموضع المناسب ، يدل على ذوق أديب . وقد يكون ذلك أشد صعوبة من التأليف .

ابن زيدون يحترى المغرب :-

لقد لقبوا ابن زيدون ببحتري المغرب لما يأتي :-

- ١ - كلاهما اتجه إلى تصدير أكثر قصائده بالنزل .
- ٢ - كلاهما لا يميل إلى العمق في توليد المعاني .
- ٣ - كلاهما عذب الألفاظ ، رقيق الأساليب .
- ٤ - كلاهما لم يتغلف في شرح حقيقة الحب فهو يحب ولا يتغلف في حبه ، ويتغزل ولا يتغلف في غزله .
- ٥ - كلاهما يستمد معانيه من الطبيعة ووحى الخيال .
- ٦ - كلاهما يرفعى متطلبات النظم ويميل إلى الصنعة البديعة الخفيفة المقبولة .

نماذج من أدبه

١ - من استعطافه لابن جهور :

أعدك للجلى وآمل أن أرى	بنمائك موسوما وما أنا بالغفل
أن زعم الراشون ما ليس مرعا	تعذر في نصرى وتعذر في خنلى
ولو أنى واقعت عمداً خطيئة	لما كان بدعا من سجايك أن تملى
فلم أستر حرب الفجار ولم أطع	مسيلة إذ قال إنى من الرسل

من نشره

من الرسالة الجديدة التي يستعطف بها ابن جهور

وقد زاتني رسم خدمتك ، وزهاني رسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل
في سماءك ^(١) وقت المقام المحمود في بساطك .

ألت الموالى فيك غر قصائد هي الأنجم اقتادت من الليل أنجها
ثناء . يظن الروض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه منمنما

وهل لبس الصباح إلا بردا طرزته بفضائك ، وتقلدت الجوزاء إلا عقدا
فصلته بما ترك ، واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك ، وبث المسك إلا
حديثاً أذعته في محامدك ، ما يوم حليلة بسر ^(٢) ، وإن كنت لم أكك سلياً ،
ولا حلتك عطلاً ، ولا وسحتك غفلاً ، حاشا لله أن أكون من العامة الناصبة
وأكون كالذبالة المنصوبة تمنى للناس وهي تخرق .

أعيزك ونفى من أن أشيم خطيباً ^(٣) ، وأستطر جهاماً ^(٤) ، وأشكو
شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ^(٥) ، فإأبست ^(٦) لك إلا لندر ،
وحركت لك الحوار ^(٧) إلا لتحن ، ونبهتك إلا لأنام ، وسريت لك إلا
لأحمد السرى لديك .

(١) السباط : الصف .

(٢) مثل يضرب في كل أمر مشهور .

(٣) البرق الحلب : الذي يطمع ويخلف .

(٤) الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه .

(٥) العقاب والرخم : نوعان من الطيور .

(٦) أبست : قلت : يس يس وهي كلمات تقال عند الحلب .

(٧) الحوار : ولد الناقة ساعة يولد .

نماذج مشروحة النصوص المقررة للدراسة

(١) الشعر :

١ - شكوى وأنين

من ظلمات السجن للشاعر ابن زيدون بعث بها إلى
صديقه أبي حفص بن برد ،

- ١ - ما على ظني بأس يجرح الدهر ويأسو^(١)
- ٢ - ربما أشرف بالمرء على الآمال يأس^(٢)
- ٣ - ولقد ينجيك إغنا ل وبرديك احتراس^(٣)

١ - عاش الشاعر بين عواصف الحيرة ، يتنازعه اليأس والرجاء ،
ورأى أنه لا بأس عليه في ترده في ظنونه فدأب الدهر أنه يرمى فيجرح ،
ثم يعود فيداوى ، وإنه ليرتقب بعد تلك الجراح الدواء .

٢ - وإن عواصف اليأس التي تلعب بالإنسان قد تشرف به أخيرا على
الآمال التي طالما ارتقبها ، وكأنما يعمل نفسه بأن يأسه الذي طال قد يصل به
إلى الآمال .

٣ - وحياة الإنسان ليست منوطة بيقظته ، فقد ينجي الإغفال من
الهلاك ، والهلاك ليس نتيجة لغفلته فقد تجره شدة الاحتراس إلى الهلاك
والبيت كله حكمة وفيه مقابلة بين النجاة والغفلة وبين الهلاك والاحتراس .

اللمة: (١) بأس : مخفف بأس وقصد به اللوم ، ويأسو : مخفف يأسو بمعنى يداوى .
(٢) أشرف عليه : طلع عليه من فوق يأس : مخفف يأس وهو ما قابل الرجاء
(٣) بردى : يهلك

- ٤ - والمحاذير سهام والمقادير قياس^(٤)
 ٥ - ولكم أجدى قعود ولكم أكدى التماس^(١)
 ٦ - وكذا الحكم إذا ما عز ناس ذل ناس
 ٧ - وبئر الأيام أخيا ف سراة وخساس^(٢)
 ٨ - نلبس الدنيا ولكن متعة ذاك اللباس

٤ - ثم يصور أن كثرة الخذر تقتل في طول الخوف والخذر القضاء على حياته، وهو بهذا يستدر إشتاق صديقه وإذته ليرى أن الأقدار قسى واجهته ولا طاقته له بها :

٥ - وراح يسوق الحكم ، فأوضح أن قعود الإنسان وتشبثه بالخول كثيرا ما يكون فيه النفع ، وأن طلب الجاه والمنال كثيرا ما يجر إلى قلة الخير ، وفي البيت مقابلة بين (أجدى قعود ، وأكدى التماس) على أن الالتماس فيه طلب وحركة ، وكأنه بذلك يجب القعود عن السعى ، فهل دفعه إلى ذلك ما رآه في مجتمعه من أن المجد والغنى في يد المتقاعدين ، وأن طلاب العلا عوقبهم الأيام عن بلوغ آمالهم ؟

٦ - ومكنا شأن الحكم : تكون عزة قوم في ظلاله على حساب ذل آخرين (بين العز والذل طباق) .

٧ - والناس مختلفون في الجاه والأخلاق فمنهم السادة ، ومنهم الحقراء الذين عاشوا حياتهم للدس والتفاق

٨ - ونحن نركض في مسارح الدنيا ، ولكن حياتنا فيها إلى أجل ، وقد شبه دنيا الناس باللباس يلبس حيناً ، ولا بد أن يخلع يوماً .

اللمعة (٤) قياس . جمع قوس : آلة من آلات الحرب .

(١) أجدى : نفع وأفاد ، أكدى : يخل أو قل خيره .

(٢) أخياف : مختلفون ، السراة ، السادة - الخناس : الحقراء .

- ٩ - يا أبا حفص وماذا - واك في فهم إياس^(١)
 ١٠ - من سفا رأيك لي في غسق الخطب اقتباس^(٢)
 ١١ - وودادى لك نص لم يخالفه القياس^(٣)
 ١٢ - أنا حيران وللآه ر وضوح والتباس
 ١٣ - لا يكن عهدك وردا إن عهدى لك آس^(٤)

٩ - ثم نادى أبا حفص صديقه الألمى الذى فاق إياسا فى ذكائه على الرغم من أن إياسا هذا ضرب العرب به المثل فى حدة الذكاء .

١٠ - وقد تمنى له من رأى إياس الساطع فى هذه الملة التى نزلت به شعلة من النور تهديه فى ظلمات حيرته وسجنه .

١١ - واستشفع لديه بالحب الذى لا يجمد ، فهو كالنص القرآنى الذى لم يختلف معه قياس الفقهاء ، وفى هذا التعبير تضمين بالمصطلحات العلمية .

١٢ - ثم أرسل نقشة الحائر المتحسر فى قوله أنا حيران ، وأمره تائه بين حالى الظهور والغموض فحينا يتخيل أسباب سجنه واضحة ، وحيناً يعمى الأمر فتلتبس الأسباب .

١٣ - ثم نهى صديقه عن أن يجعل عهده معه غير دائم ، وكنى بالورد عن عدم الطول والدوام لأن عمر الورد قصير ، وبين له أن عهده هو =

اللفظ: (١) إياس : هو إياس بن معاوية ، وقد ضرب به المثل فى الذكاء من القضاة المعروفين فى عهد عمر بن عبد العزيز .

(٢) السنى الضوء ، والسقى : الظلة ، اقتبس الشعلة اقتباساً أخذها والم استفادة والرائى استناره .

(٣) النص : قصد به الدليل من القرآن أو الحديث ، والقياس : قياس قضية على أخرى والنص أقوى من القياس .

(٤) آس : شجر له رائحة جميلة .

- ١٤ — وأدر ذكرى كاسا ما امتطت كفك كأس (١)
 ١٥ — فعسى أن يسمح الدهر فقد طال الشمس (٢)
 ١٦ — واغتتم أصفو الليالي إنما العيش اختلاس
 ١٧ — ماترى فى معشر حا لوا عن العهد وناسوا (٣)

— لأبى حفص طويل دائم ، وكفى بالأس من الطول والدوام لأن عمر الأس طويل ، وفى البيت تشييهان : لا يكن عمدا كالورد لأن عهده كالأس وبين الكنايتين طباق ، والنهى فى قوله : لا يكن ، ليس على حقيقته وإنما أريد به الالتباس ،

١٤ — كما التمس منه أن يدير ذكره فى المجلس كلما شرب كما تدار الكؤوس ، وكأنه يرى أن ذكره ينمى كما تنمى الخمر ؟ لأنه كان له فى تلك المجالس طرف أدبية تهز القلوب وإثارة ذكره فى مجلس شراب الملك قد يثير شغفته عليه حين يطرب فيذكر الشاعر المحروم حينما تضمه لذة الاعتاش ، والأمر فى قوله : وأدر خرج عن الحقيقة إلى المجاز للالتباس .

١٥ — وترجى أن تثير ذكراهم فى هذه المواطن عطف القلوب عليه فيسمح الدهر بعودته إلى ما كان عليه بعد أن طال جراح الدهر وتمرده .

١٦ — ثم وجهه وأرشده إلى اغتنام ساعات الصفو ، لأن العيش الصافي يختلس من الزمن اختلاسا ، وكأن دأب الحياة البخل بالصفاء والأمر فى قوله : واغتتم للإرشاد ،

١٧ — ثم بدأ يتساءل عن أمر هؤلاء الذين تنكروا له ومالوا عن العهد وغدروا به وهم حاشية ابن جهور .

المقنة : (١) امتطى الشيء : علاه .

(٢) شمس القوس : منع ظهره من الركوب

(٣) خاس بمده : غدر به

- ١٨ - أذوب هامت بلحمي فانتهاج وانتهاج^(١)
 ١٩ - كاهم يسأل عن حا لي وللذنب اعتباس^(٢)
 ٢٠ - إن قسا الدهر فللما . من الصخر انبجاس^(٣)
 ٢١ - ولئن أمسيت محبو سا فللفيت احتباس
 ٢٢ - ويفت المسك في التراب فيوطا ويداس

١٨ - وراهم وقد جن جنونهم بانتهاج لحمة وانتهاسه وتغفه فشيهم
 بالنؤبان .

١٩ - وتصورهم حال تساؤلهم عن حاله وهو في السجن ذئابا تهس
 ليلاً عاصفاً تظفر بفرائسها فتشبع نهها ، ومع ذلك التساؤل يريدون أن
 يقفوا على ما يعانيه الشاعر من ألم قسرة قلوبهم ، وفي البيت تشبيه ضمني .

٢٠ - وعاد الشاعر يمتحن نفسه بالأمال ، وينظر إلى الدهر في قسوته به
 وإلى الصخر في صلابته فرأى أن الصخر قد تتمخض صلابته عن ماء يتفجر
 منه وقياساً على هذا ليس بعيد أن يلين الدهر فتتمخض قسوته عن سلامة
 تبعث الأمل والسعادة وجواب الشرط محذوف دل عليه ، فللماء ،

٢١ - والشاعر لا ينسى عزة نفسه التي طالما أثارته للفخر بنفسه فهو
 يرى أنه غيث يرسل الخير وإذا كان الغيث يحتبس فلا بد له أن يتهمز ،
 وكذلك الشاعر لا بد له أن ينطلق بعد احتباسه .

٢٢ - والسجن لا يضعف من شأنه لأن المسك وهو الطيب الذي يدهن
 به يفنت في الأرض ويوطأ ويداس ليتم عجنه ولا يقلل هذا من شأنه ،
 وفي البيت تشبيه ضمني ،

اللمعة : (١) الانتهاج : أخذ الشيء . والانتهاج : أخذ الجسم بمقدم أستانه وتغفه
 (٢) عى واعتس : طاف بالليل
 (٣) الانبجاس : التفجر

التعليق

١ - من الناحية الفكرية : نجد أن الشاعر افتتح قصيدته هذه بعدة معانٍ قدرية جبرية ، فأسلم زمامه للدهر يجرحه وبأس وجراحه ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويمنحه ويحرمه ، فلا داعي إذن للتشكير في مجرى الأحداث ، وترقب نتائجها ، فربما دفع اليأس بالمرء إلى مأموله من حيث لا يتوقع ، ولقد ينجو الغافل ، ويملك المحترس المستيقظ ، وتأتي المقادير بالمخاذير ، وتأتي المقادير بالمخاذير ، وكثيراً ما أجدى القعود عن السعي ظفراً وغنماً ، وأخفق السعي والجد والتحصيل . وسنة الحياة الدنيا هكذا : فاس أعزاء وآخرون أذلاء ، سراً أشراف وخساسة حقراء ، وإذا عشنا في دنيا فإلى أجل ، نخلعها فيه مثلنا نخلع أردقتنا من بعد زينة .

وتوجه بعد هذا إلى صديقه ذي الحجا والألمعية ، يستشيريه وهو يصدقه الود ، ويعرض قضية حيرته ، ويسأله الرأي في الخوثة ، الذين غدروا به ، ولم يفواله وتحاموه ، واجتنبوه ، وناقضوه ، مظهرين وده ، وهم يظنون الحقد عليه والسعي فيه .

وجعل يلى نفسه ، ويقوى أمله في الخلاص من سجنه ، وبحسب قسوة الدهر مروتة ، وأحسن قيمته ، فازدهى ، وهو يتصور نفسه غنياً نافعاً قد يحبس لوقت الحاجة ، وأعداً جريئاً يلزم الغاب ويسكن حتى يشب ، ومقلة يجدد ينشأها النعاس إلى حين ، ومسكاً طيباً يزيد الفت والوطء والدوس من قيمته .

وتأشد صديقه استدامة وده ، واستبقاء ذكره ، وكأنما تذكر لبالى أنه وصغوه ، فدعا صديقه إلى اغتنام مثلها ، فالعيش خلس ، ورجا أن يسمح الدهر من بعد عصيان ويلين من بعد صلابة ، ويسهل من بعد امتناع ، ويقبل من بعد إدبار .

٢ - من الناحية البيانية : نلاحظ أن الصورة التي تطيف بالقصيدة هي صورة المحرور ، الذي يتطلع تناقضات الحياة ، ويستوى لديه السعى والقعود ، والنجم والحية ، والعز والذل ، ولا يفرح بدنياء : إلا فرحة موقوتة ، كأنها الرداء يلبس إلى أمد .

ويقف الشاعر على أعراف الحياة ، يلتمس لدى صديقه - ذى الألمية التي تفوق ألمية إلياس بن معاوية - ، قبس الرأى ، ليخرجه من حيرته ويهله على طريق الخلاص ، ويحكم بينه وبين ذئاب البشرية ، الذين نهشوا لحمه ، وتوددوا له ، وهم يضرعون الكيد والمضرة ، كالأذئب يعتمس ، ليتعرف مداخل فريسته ويخارجها ومأناها .

ويلج في ظلام محنته خيطاً رفيعاً من الأمل ، فيتعلق به تعلق التريق بطوق النجاة ، ويورى ومضة أمل ، من بعد ما أقعده اليأس ، ويتصور قسوة الدهر إلى لين ، وضيقه إلى سعة ، كما ينجس الصخر ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء^(١) .

ويداعب هذا الأمل شاميته ، ويشغل محنته للدولة على جدواه ، ويحطم آلامه ، على قدمي كبريائه ، وهو يتصور نفسه غيثاً يجمع خلف السدود لوقت الحاجة ، وأمدأ جريئاً يكن لحين الثوب ، ويتصور محنته الواقعة ناعساً يغشى العين إلى حين تسليق ، ومثل فت المسك في ظاهره يهين المسك ويدوسه ، وفي حقيقته يستخرج طيبه فيغليه .

ويبحث عن صديق يباطيه مودة خالصة ، ويرغب إلى ابن برد ، في أن يكون ذاك الصديق ، ويحشى أن يتذكر له كما يتذكر له أعداءه الأوس ، فيعرض عليه صداقة دائمة ويطمع في مثلها منه ، ويدعوه إلى عهد يبق طويلاً

بقاء الآس ، ولا يذبل سريعاً ذبول الورد ، ويدعوه إلى أن يذكره
كلما انتشى .

وكانما أحس الملاحين طاف بالكأس مخاطره ، فتذكر ماضى مسراته ،
وسالف صبراته فنصح صديقه أن يغمض صفو الليالي ، ولا يقلت فرص
العيش ، وسبح سباحاً طويلاً وهو يرجو أن يسمح الدهر بحريته ، وينعم
عليه بطيب الحياة ، فقد طالما شمس الدهر ومضى .

٣ — وفي مجال التقدير تلاحظ عدة أمور :

(١) استطاع ابن زيدون ، أن يطينا في هذه القصيدة تجربة عاطفية
عانية عارمة ، لم ترتبط بالعقل إلا من منطق السخرية من الحياة فهذه القدرة
الجبرية التي استسلم لها في أول القصيدة إنما استسلم لها عن إقلاص لا عن
اقتناع . وهذه الدعوة في آخر القصيدة إلى اغتنام الفرص ليست دعوة
أملها العقل وإنما هي دعوة المحروم النادم على ترك الماضى فارغاً دون أن
يملاها بالثورة والرح . وفيما بين ذلك حشرات ، ولوعات ، وغض زمان
لم يدع صديقاً صدوقاً ، وأمل أشرق في ذهنه وخبا لحظة لإشراقه .

(ب) وهذه الفلسفة العاطفية جاءت تشاؤمية ، فلا جدوى عنده من السعى
والمجتمع كما رآه مجتمع ذئاب ، والصدقات في هذا المجتمع قائمة على التناهي
والغية . ورهن بالمنافع الذاتية ، حتى صديقه يشفق هو من أن يشكر له .
والدنيا خلس ، وانتهاز فرصتها إنما جاء — كما ذكرنا — انعكاساً
عن الحرمان :

ونلح وسط هذه الفلسفة العاطفية التشاؤمية بصيحاً حائلاً من التفاؤل
مصوراً في انبجاس الصخرة ، وانطلاق الغيث ، وإزاحة النعاس عن عيني
المجد ، رقت المسك في التراب لإغلائه ، ودو تفاؤل الحالمين وأمل
العاجزين .

(ج) أسهمت المقابلات البيانية وسائر الصور البيانية في تدبى صور التمزق العاطفى ، الذى بدا لنا أول الامر سخرية حادة لم تلبث أن تحولت إلى استجداء المشورة ، وشكوى الأصدقاء . ثم ارتفعت إلى سطح الأمل ، فدت للشاعر فى زهوه وصفه ، ثم انكفأت إشفاقا من صديقه أن ينقلب عليه ، وانهت إلى قيمة سلبية بالدعوة إلى اعتنام صفو الليالى ، يظنها بر النجاة .

(د) قالب القصيدة ناعم راقص ، ولكن قصر الوزن أعطانا دفعات انفعالية أتعرتنا بتقطع أسباب العواصف ، وساعدت فى ترجيع الأنين : هذه السين - د - الروى - وما قبلها من مد ، وتقييد الروى بهذه الضمة ، التى تفرض طولاً يتكافأ مع ضول المد .

أصف إلى هذا كله اختيار الألفاظ الموحية بحال الشاعر العاضية ، وهى فى كل بيت توحى بالحزن وسوء المنقلب . وتضرب على أوتار الألم والياس والحيرة والقلق .

(هـ) تشير القصيدة إلى ألوان من ثقافة وابن زيدون . وفى البيت الثامن تضمين الآية التكريمة : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »^(١) . وفى البيت التاسع ، تليح ، إلى قصة ، لياس بن معاوية ، القاضى فى زمان ، عمر ابن عبد العزيز ، والمضروب به المثل فى الألمعية . وكذلك فى البيت الرابع عشر ، تليح ، إلى قصة موسى السامرى ، اليهودى المنافق ، عابد العجل ، ومفرق صفوف اليهود أيام دعوة موسى الحكيم ، عليه السلام .

وفى البيت الحادى عشر إشارة إلى أن الشاعر عرف أصول الفقه ، فهو يذكر ، النص ، و ، القياس ، حين يحمل وداده لصديقه نصا ، أى أمرا متفقاً فيه ومسلما به ، وليس معه مجال لأعمال الرأى أو النظر بالقياس .

(١) سورة آل عمران : آية ١٨٥

(و) ما يزال ابن زيدون ، ينظر إلى معاني من سبقوه ، فهو يقول
يلبد الورد السبقى وله — بصد — افتراس
وهو مأخوذ من قول النابغة ، :

وقلت : يا قوم ؛ إن الليث متقبض على برائه للوثة الضارى
اللى أخذته ابن الرومى ، فقال :

سكنت معكم كنا كان رهنا بوثة عماس^(١) كذاك الليث للوثب يلبد
وقد زاد ابن زيدون ، المعنى قوة ، حين وصف الأسد بالجرأة .
ويقول ابن زيدون . .

لا يكن عهدك وردا إن عهدى لك آس
وهو من قول العباس بن الأحنف ، :

— لا تجلى وصلنا كالورد حين مضى ذا طلعة ، وأديمى الود كالآس
— ولكتنى شبت بالورد عهدا وليس يدوم الورد ، والآس دائم
وقد فاته ابن زيدون ، بإيجاز القصر ، وبإدعاء أن المشبه هو عين
المشبه به ، وليس غيره كما فى صنيع العباس بن الأحنف ، وذلك ناشئ
من فناء شاعرنا ابن زيدون ، فى الطبيعة ، وامتزاجها ، حتى يكون كل
شيء فيها مظهراً لمشاعره وبجالاً لوجدانه .

(١) وثبة عماس (وزان سحاب) أى لا يهتدى لوجهها .

٣ - وصف لابن خفاجة(*)

١ - ومفازة لا نجم في ظلماتها يسرى ولا فلك بها دوار^(١)

١ - في هذه الأبيات يصف الشاعر ليلة طالت عليه في مفازة فاجأه فيها ذئب ، وقبله وصف الليل كثير من الشعراء ووصف مفاجأة الذئب بعضهم فهذا الشاعر مقلد واسكنه قدم الصورة في صياغة جديدة فامرو القيس تحدث عن طول الليل في قوله :

فبالك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يذبل
وقد تصور أن النجوم شدت بحال متينة إلى حيل يذبل فهي لا تستطيع
حراكا ، وشاعرنا هذا يجيز أنه في مفازة واسعة توقف النجم فيها عن السرى
وتوقف القللك عن الدوران وكفى بذلك عن طول الليل حيث إن توقف
الأفلاك يؤذن ببقاء قيام الليل وقد اختلف الشعراء في تصوير انطول
فامرو القيس تصور أن النجوم مشدودة إلى جبل يذبل وشاعرنا تصوره
في توقف القللك عن الدوران ،

(هـ) هو أبو اسحاق إبراهيم بن خفاجة ، ولد بمدينة شقر الأندلسية سنة ٤٥٠ هـ
حيث بلغت النهضة الأدبية ذروتها ، وجرت الملامح المجتمع ، وقد هام باللهو
والطبيعة ووهب روحه وعقله لجمال الطبيعة والفن ، وترجم عن الطبيعة أروع
ما عرفت العربية من أدب ، وقد انصرف عن اللهو آخر حياته إلى الوعظ ،
والتزهد ، وشعره يتسم بالقوة وسعة الخيال وشيء من الصنعة وإن لم يعرف
إسراف أبي تمام وكان لحب الطبيعة أثر في شعره ونثره ، وأكثر نثره بمد شعرا
مشورا وقد تفنن في تصوير مشاهد الطبيعة حتى بدا شعره ونثره لوحات فنية ناطقة
بأجبال ومات سنة ٥٢٣ هـ .

اللغة : (١) المفازة : الصحراء

- ٢ - تطلب الشعرى بها وكأنها في كف زنجى الدجى دینار^(١)
 ٣ - قد لفنى فيا الظلام وطافى ذئب يلم مع الدجى زوار^(٢)
 ٤ - طراق سادات الديار مساور تحتال أبناء السرى غدار^(٣)
 ٥ - يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا في فروة قد مسها اقشعرار^(٤)

٢ - ثم أبصر الشعرى في تطلبها بين ظلمة الليل فشبها بالدينار اللامع في كف زنجى الليل، فصاغ من ذلك تشبيهاً مركباً أو مفرداً مقيداً صورته، الشعرى في تطلبها كالدينار في كف الزنجى، وقوله: زنجى الدجى من إضافة المشبه به للشبه أى دجى كالزنجى وبذلك جعل في القيد أو في جزء المركب تشبيهاً آخر.

٣ - ثم قدم صورتين رهيبتين الأولى إحاطة الظلمة به، وكأنه ملفت يبردها، والثانية طواف الذئب الذى اعتاد الزول مع الليل ليزور فرائسه وفى لفنى الظلام استعارة، وزوار صيغته مبالغة.

٤ - ثم قدم صفات ذلك الذئب مستعينة بصيغ المبالغة على إبراز تلك الصفات فقال: إنه كثير الطروق لديار السادات، وقد جعل المضاف إليه مضافاً، وديار السادات غنية بما فيها من غنم ونعم والصفة الثانية أنه متوثب هنا وهناك، والصفة الثالثة أنه كثير الخداع لأبناء السرى، وكفى بأبناء السرى عن ملازمتهم لسير الليل، والصفة الرابعة أنه كثير الغدر وهذه الصفات قدم صورة الذئب المخيف.

٥ - ثم أعطى صورة للجو وللذئب المتأثر به: أما الجو فنسرى فيه =

- (١) الشعرى: نجم
 (٢) ألم بالمكان بتشديد الميم: نزل به.
 (٣) طراق: صيغة مبالغة من طرق، المساور: المتوثب. الختال وهو الخداع.
 السرى السير ليلاً.
 (٤) يسرى: يسير ليلاً، نضح: رش - الندى: الطل، الصبا: الريح اللينة.

- ٦ - فمشوت في ظلماء لم تقدح بها إلا لمقلته وبأسمى نار^(١)
٧ - ورقدت في خلع على من الدجى عقدت لها من أنجم أزار^(٢)
٨ - والليل يقصر خطوه وربما طالت ليالى الركب وهى قصار
٩ - قدشاب من طرف المجرة مفروق فيها ومن وخط الهلال عذار^(٣)

== ربح ليلة رش الطل عليها فطرات مائه ، وأما الذئب فقد انشعرت فروته بما
تساقط عليها من الطل ، وتخييل جميل جملة للأصبا وجبا .

- ٦ - وقد ساء بصر الشاعر في هذه الظلمة فلم يشتعل فيها غير نارين : نار
بأسه التى ثارت لمقاومة الذئب وهى خفية لا يحسها غيره ، ونار حدة الذئب
الموجهة التى تلمع فى الظلام وهى ظاهرة ، وفى قدح نار المقلة والبأس تجوز .
٧ - لقد ذكر من قبل إحاطة الظلام به ولقه له كما يلف الثوب الجسد ،
ثم عاد فكرر أن الدجى خلع عليه أثوابا رغل فيها ، وجر ذيلها ليؤكد
شدة إحاطة الظلام به ، ثم أوغل خياله فى البعد فتخييل أن أزار تلك الثياب
قد عقدت من النجوم ، وكأن أضواء النجوم الضاربة فى البعد قد تراءت
على تلك الخلع كأنها أزار ، وفى خلع الدجى استمارة ، وفى جعل النجوم
أزارا تخييل

- ٨ - ثم بين أن خطى الليل قصيرة ، وربما طالت ليالى المسافرين على
الرغم من قصرها حيث يتخييل المسافر الذى يحب الصحارى ليلا أن تلك
الليالى طويلة لأنه يرتقب الصباح حيث الأنس بالنور ، وفى قوله : الليل
يقصر خطوه استمارة .

- ٩ - وقد رأى الشاعر نهر المجرة فى السماء وهو السحاب الأبيض ==

- (١) العشا بالقمر : سوء البصر بالليل والنهار - المقلة : الحدة - البأس : القوة
(٢) رفل : جر ذيله وتبخر - الخلع : الأثواب .
(٣) المجرة : سحابة بيضاء تنوسط السماء فى ليالى الصيف ، وخط الشيب :
انتشاره أو استواء بياضه وسواده والعذار : جانب اللحية

٤ - ونسب ، صدر به ابن هاني قصيدة في مدح يحيى بن علي .

١ - فتكات طرفك أم سيف أيك وكؤوس نجر أم مراشف نيك (١)

== الذي يتوسط صفحة السماء في الصيف وقد ظهر في الظلة القائمة كأنه شيب في مفرق طرف المجرة كما ظهر له ضوء الهلال في الظلة كأنه عذار دب فيه الشيب ، وفي تخيل الشيب في المجرة والهلال تخيل جميل .

التعليق

هذه صورة ظهرت فيها براعة ابن خفاجة في قدرة التصوير تلمسها في تشبيه الشعرى وفي كف الزنجى وفي لف الظلام له ، وفي صورة الذنب بفروته المفشعة ، وفي قدح نار المقلة والبأس وجره الأذيال ، خلع الدجى وأزدار النجوم كما ترى استعارات في قصر خطو الليل وشيب مفرق المجرة وعذار الليل

وفي الآيات إطناب تراه في لف الظلام له وتبخرته في خلع الدجى ، وقد أكثر من صيغة المبالغة ليضفي على التعبير قوة

أما المعاني فهي قديمة ، وليس له ابتكار إلا في الصياغة وخاق آفاق الخيالاته الواسعة ولعلك أدركت من الآيات اتساع خياله وإبراز الغريب من الاستعارات في قوله : وجه الصيا ، وقد استعان بالألفاظ المناسبة التي أضفت على الصور الألوان المعبرة .

١ - بدأ المدح بالنسب كمادة الجاهلين ، وطال نفسه فيه ولكنه =

(هـ) ابن هاني : هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي ، ولد في أشبيلية وورث الذوق الأدبي عن أبيه حيث كان شاعراً وعاصر ابن هاني العصر الذهبي للأمويين ، وكان الترف قد دب في الدولة فانهمك في الملهيات والشراب والفسق ثم رحل إلى المغرب فاتصل بمجمر الصقلي ويحيى بن علي ملك طنجة ثم بالمعز الفاطمي وعاش حياته متكسباً بشعره وجره ذلك إلى الإسراف في المدح - وكان مقلداً للقداي في أساليبه ومعانيه وقد لقبوه بمتنبي المغرب . اللغة : (١) المراشف : الكشاف

- ٢ - أجلاذ مرهفة وقتك محاجر ما أنت راحمة ولا أهلوك (١)
 ٣ - يابنت ذي السيف الطويل نجاد أكذا يحور الحكم في ناديك (٢)
 ٤ - عينك أم مختاك وعدنا وفي وادي الكرى ألقاك أم واديك

== الطول الذى لا يمل ، وقد أدرك أثر النظرات فى الفتك ورأى نفسه فى صراع معها تقاسل : أمى فتكات الطرف يتلقاها من العيون أم هى سيوف أيها الشجاع القيور ؟ ، ثم نقلنا من معركة النظرات انعتاكة إلى مواقف خلب عقله فهو لا يدري أمن اخر ذلك أم من مرشف فما ؟؟ وهذا من باب تجاهل العارف

- ٢ - ثم استفهم عما يلقاه على سبيل الإنكار : أهو يلقي جلاداً من السيوف الحادة أم فتكا من العيون ، وبين هذا الشطر والشطر الأول فى البيت السابق لف ونشر غير مرتب حيث أرجع الجلاد المرهفة إلى سيوف أيها وقتك المحاجر إلى فتكات طرفها ، ثم أعلن أن محبوبته لم ترحمه فى ذلك الصراع وأن أهلها كذلك ، وكأنه يتلقى غارتين : غارة منها وغارة من أهلها
 ٣ - ثم بين فى تدانته لها أنها بنت سيد عظيم طويل النجاد ، واستفهم منكراً ظلم الحكم الذى وقع عليه فى نادياها ، ونادى قومها ، وفسر الحكم بعد ذلك وطول النجاد كناية عن طول القامة وطول القامة كناية عن الشرف

- ٤ - وسأل المحبوبة عن موضع تلاقيهما : أهو فى العينين أم فى مغافى يتيها وأوضح كيفية اللقاء فى العينين بوادى النوم حيث تلتقى الأطياف وأوضح مغناها بقوله فى واديك وفى البيت لف ونشر مرتب فوادي الكرى للعينين وواديا يعود إلى المفتى ، وعلى كل فهو يطمع فى عطفها ويقنع بقليل من هذا العطف إذ يرضى أن يزوره طيفها فى المنام إن لم تزوره هى فى اليقظة

- ٥ - منعوك من سنة الكرى وسروا فلو عثروا بطيف طارق ظنوك
٦ - ودعوك نشوى ماسقوك مدامة لما تمايل عطفك انهموك
٧ - حسبوا التكحل في جفونك حلية بالله ما بأكفهم كحلوك
٨ - ولوى مقلبك اللثام وما دروا أن قد لثت به وقيل - فوك
٩ - فدعي اللثام فقبل خدك ضرجت رايات يحوي بالدم المسفوك

٥ - وقد منعوا محبوبة من النوم حتى لا تراه في نومها ، وسروا لئلا
يبحثون عن طيفها حتى لانهم لو ألفوا طيفاً يطرق ظنوه طيفها وفي ذلك
تخييل تصور منها وانهم للأطيان (وهذا هو الحكم الجائر .

٦ - وقد سموها نشوى على حين أنهم لم يسموها خمرها ، وكان تمايل
جانها في المشى سبباً في اتهامها بالسكر .

٧ - كما انهموها باستعمال الزينة استعداد اللقاء المحبوب وكان ذلك حين
بدأ لهم اكتحال عينيها - وقد جهلوا أن الكحل طبيعة فيهما - وتعبيره
بالأكف في الاكتحال عيب ويمكن أن يقال : هو تعبير مجازي علاقته
المجاورة .

٨ - ثم تحدث عن اللثام وقد شد على فها فظفر وكأنه ملتو ، وأخبر أن
قومها لم يعلموا أنها لثت وقبل فها فالتوى اللثام من فوق الفم .

٩ - ثم حسب أنها وضعت اللثام لتستر وراءه حمرة خديها فطلب منها
أن تضع اللثام عن وجهها وتكشفه للناظرين لأن رايات يحوي بن على قد
ضرجت من قبل بحمرة الدم المسفوك من الأعداء ، ولم يستر يحوي راياته
عن الناس فكيف تستر هي حمرة خديها .

وهكذا انتقل بعد طول التسيب إلى المدح وإن لم يكن انتقالاً جيداً
كانتقال ابن عمار في مدح المعتضد .

هـ - في الحكمة لابن حزم الظاهري (*)

- ١ - جعلت اليأس لحصناً ودرعاً فلم ألبس ثياب المستظام
- ٢ - وأكثر من جميع الناس عندى يسير صائى دون الأنام

التعليق

هذا لون من ألوان غزل ابن هاني، يشير إلى ذوق فتي ودقة في الوصف والتصوير حتى يخيل للقارىء أنه يحب وامق يتحدث عما يلقاه من محبوبته ومن أهلها وهو لا يمدو أن يكون مقلداً وكداً به في المغالاة غالى في الحديث عن طيفها وتتبع أهلها لذلك الطيف - والمعاني كلها قديمة إلا أنه أجاد التعبير عنها وكان لسعة خياله أثر في الصور التي قدمها في قوله : عينك أم مغناك موعداً ، ومنعوك من سنة الكرى البيت وظهرت الصناعة في اللف والنشر في البيتين الأولين وفي البيت : عينك أم مغناك ، أما الألفاظ فهي مناسبة للمعركة التي حددها بينه وبين نظراتها وأهلها وفيها قوة تناسب جو المعركة .

١ - في هذا البيت يعترف الشاعر بأنه يتحصن باليأس ويرى فيه أماناً من المذلة والهرمان ، فهو يهرب من الحياة ، ويطلب السلامة ، ويزعم أن ذلك بقية الضيم .

٢ - ثم يتشكك ويرتاب في صلاح أكثر الناس للحفاظ على المودات والإبقاء على الصداقات ، ويرى أن القليل من الناس هم الذين يصونون المودة =

(هـ) له ابن حزم في قرطبة ، ونشأ فيها ، ورحل إلى المشرق ، فدرس مذهب الظاهرية ، وعاد إلى الأندلس ينشر هذا المذهب ، فثاروا ، فقتلوا ، وعصره ، وسقطوا مذهب لدى العامة والحكام .

اشتغل ابن حزم بالوزارة فترة ، ثم تركها إلى العلم والفقه والحديث والآداب والفلسفة ، وتوفي سنة ٤٥٦ هـ .

٢ - إذا ما صح لي ديني وعرضي فليست لما تولى ذا اهتمام

٤ - تولى الأمر والغدست أدرى أأدركه . . فني ماذا اهتمامي؟

== ويقون على الصداقة ، فهؤلاء القليل هم في نظره أكثر قيمة من سائر الناس الذين لا يرعون الصلات الإنسانية .

٣ - ثم يعلن أنه يكتفي من الحياة بأن يسلم دينه ويسلم عرضه ، لأنه إذا سلم له دينه وسلم له عرضه استطاع أن يرفع رأسه ولا يبالي بعد ذلك ماذا سيكون ، أما إذا أصيب فيهما فهو الذل الأبدي .

٤ - وأخيراً يشغل نفسه بوقته الزاهن ، فلا داعي عنده للتفكير والاعتماد . وشغل القلب لا بما مضى ولا بما هو آت ، فإن ماضى تولى وانقضى ولا يغيره الهم منه والفكر فيه ، وإن ما يأتى في ضمير النيب فلا يدري على أى وجه يقع وهل يدركه أو لا يدركه ؟ فمن البلاءه ارتقا به والتربص به .

التعليق

هذه الأفكار لا تحمّل فلسفة عميقة بقدر ما تعرض وجهة نظر نشأت هي وأمثالها عن تجارب مرت بالشاعر ، وهذه التجارب وأمثالها تفيدنا في معالجة أمورنا أو تفسيرها ، لأنها تصدر عن الوجدان الاجتماعي .

سوى أننا نرى الشاعر يسير منطق نفسه في الجتوح إلى السلبية والقنوط ويركن إلى اليأس من صلاح الحال ، ويكره الحياة كما هي ، ويتمهم أكثر الناس - إن لم يكونوا أكاهم بقلة الوفاء .

وقد نحمد له أنه يشغل نفسه بصحة دينه وصحة عرضه ، فدينه وعرضه كلاهما يعنيه وفي صيانتها صيانة للكرامة ، وليس بعد أن تطيب صلة الإنسان بالله شيء إلا أن يكون العرض نقياً لا يبلغ فيه كلاب البشرية ، وبعدهما لا يبالي .

وفي الأخير يتمذهب بمذهب أهل المعطلة الراضية ، فيرفض التفكير فيما مضى ويرفض التفكير فيما يستقبل ، مع أن العقلاء يقولون : إن التفكير في الماضي يتيح الفرصة للعبرة ويساعد على معالجة ما يعرض ويستجد ، وإن التفكير في المستقبل يتفق مع ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأمل .

وقد رأيت أن الشاعر استسلم للسلية فأعلن يأسه وكره الحياة والأحياء وليس له من عذر إلا الخوف من نفاق الناس ، لأنه إذا خاض غمار الحياة اضطر إلى نفاقهم ، وهذا معناه أنه لا يقدر على أن يعطي نفسه الحرية التي يشدها فيكبل نفسه بالقيود الاجتماعية بسوءاتها ، ولهذا فضل الهروب من هذه القيود ، وسمى ذاك يأساً ، وتجسم له اليأس حصنا ودرعا ، فهو مأواه الذي يتحصن به ويتدبر به ليقه بما يكره ،

٦ - رثاء الأندلسي لأبي البقاء صالح الرندي

لكل شيء إذا ماتم نقصان	فلا يفر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها : دول ،	من سره زمن ساءت أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد	ولا يدوم على حال لها شأن
يمزق الدهر حتما كل سائفة	إذا نبت مشرفيات وخرصان (١)
وينتضي كل سيف للفتاء . ولو	كان ابن ذي بزن والغمد غمدان (٢)
أين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ماشاده د شداد ، في دارم ،	وأين ما ساسه في الفرس د ساسان ،

-
- (١) المشرفيات : السيوف نسبة إلى مشارف الشام . والخرصان (بالضم) : الرماح واحدها خرص مثلثا ، أو الخرصان (بالكسر) الرماح باسم قرية بالبحرين مشهورة ببيع الرماح . ونبرها : كلالها وتقصيرها .
- (٢) غمدان : قصر مشهور باليمن أيام سيف بن ذي يزن .

وَأَيْنَ مَا حَازَهُ دَقَارُونَ ، مِنْ ذَهَبٍ وَأَيْنَ عَادَ ، وَشَدَادَ ، وَدَقِطَانٍ
أَنَّى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَ لَهُ حَتَّى قَضَوْا فِدْكَانَ الْقَوْمِ مَا كَانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مَلِكٍ وَمِنْ مَلِكٍ كَمَا حَكَمَ عَنْ خِيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانٍ
دَارَ الزَّمَانِ عَلَى دَارِهِ ، وَقَاتِلَهُ وَأُمُّ دَكْرِي ، فَمَا آوَاهُ دَلِيْوَانُ ،
بِفَنَاحِ الدَّهْرِ أَنْوَاعَ مَنُوعَةٍ وَالزَّمَانُ مَسْرَاتٍ وَأَحْزَانُ
دَهَى الْحَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عِوَاءَ لَهُ دَهَى لَهُ ، أَحَدٌ ، وَانْهَدَ دَهْلَانُ ، (١)
فَاسْأَلْ دَبْلَسِيَّةً ، مَا شَأْنُ دَمْرِيَّةٍ ، وَأَيْنَ دَشَاطِبَةٍ ، أَمْ أَيْنَ دَجِيَانُ ،
قَوَاعِدُ كُنْ أَرْكَانُ الْبِلَادِ . فَمَا عَنِ الْبَقَاءِ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
تَبْكِي الْحَنِيْفِيَّةِ الْبَيْضَاءَ مِنْ أَسَفٍ كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلَافِ هِيَانُ

التعليق

هذه القصيدة معدودة من عيون الشعر الأندلسي .

أنشأها أبو البقاء صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ونقش فيها أساء وحسرتة وألمه عندما وقع معظم الأندلس في أيدي النصارى وجعلوا يفتنون أهلها المسلمين عن دينهم ويذيقونهم ذل العبودية ويضطرونهم إلى هجرتها والرحيل عنها .

وتضمنت القصيدة — على طولها — عدة أفكار أهمها :

١ — التسليم بأن كل شيء في الوجود لا يدوم ولا يبقى ، فإن الدهر كفيل بفتناء كل شيء . وهلاكه ، فهو لا ينفلت منه ولو كان في نظر الناس قويا لا يغلب ، ولو تحصن من الدهر واستند إلى أقوى القوى الدنيوية .

٢ — ضرب الشاعر عدة أمثلة من التاريخ ومن مختلف الأمم والشعوب والأحداث للمظة والاعتبار ، وأذكر نفسه أو أذكر غيره بفتناء سيف بن

(١) أحد دهلان : جبلان يشبه الجزيرة العربية .

ذى يزن الملك البني المشهور لم يمنعه قصره «عمدان» ، وهلاك شداد ملك
لأرم ذات العباد ، وسانان لإمبراطور الفرس ، وقارون لم يفده ماله وما
كنز .. وغير أولئك دار عليهم الزمان وخلق بينهم وبين ما كانوا يتمتعون
به من الثروة والجاه والعز والسلطان .

٣ - تحدث عن ضياع الإسلام من هذه الديار وتبدل الحال فيها
وتحولها إلى النصرانية التي أسرع إلى تغيير المعالم وتشويه الحضارة التي
أرسى المسلمون أساسها .

٤ - توجه بالخطاب إلى المسلمين خارج هذه الديار وهو يشير إلى
غفلتهم عن الخطر الماحق والشر المستطير الذي ألم بالإسلام والمسلمين
في الأندلس ، وألح إلى ما تقتضيه الآخرة من واجب الإغاثة والإعانة
والنجدة .

٥ - وعف الذل الذي أصاب المسلمين وتحدث عن العبودية التي دفعوا
إليها ، وتناول ما أصابهم من هوان الأسر ، ومن التفرقة بين الطفل وأمه ،
فتزقت الأسر ، وتشقت الأشمل ، وضاع الأمل في الاجتماع واستعادة المجد .
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد طغت على الشاعر عاطفة الألم والحزن يغلفها بالبكاء لضياع
الإسلام وضياع البلاد نفسها ، ولكن نغمة الأسى لضياع الإسلام كانت
أعلى في القصيدة من حديثه عن ضياع البلاد . وليس من شك في أن العاطفة
نحو الأفكار والمبادئ والمعتقدات أقوى من العاطفة نحو الماديات
والأمور المحدثه . واقرأ الآيات (تبكى الحليفة البيضاء ...) لتدرك
مقدار تلك العاطفة .

وفي بيته :

يامن لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم جور وطفان

إشارة صريحة إلى أن ما أصاب الأندلس وأهلها من التعاسة والهوان سببه الجور والطغيان ، ويمكن أن يقال : إنه جور النصارى وضغائنهم على مقدرات هذه البلاد ، كما يقال : إنه جور المسلمين وضغائنهم هم على مقدراتهم لأنهم استنابوا إلى التفكك ، وانخذلوا وشغلوا بالملذات والملاهي وغفلوا عن مجاهدة عدوهم ، فقد جاروا إذن وطفخوا على أنفسهم بأن بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، وبقوا على عقيدتهم التي في أقدتهم إذ لم يصونوها فمكثوا لعدوهم من أنفسهم ورقابهم .

والشاعر في حديثه إلى المسلمين خارج البلاد ينحو نحو الأمل في أن يهبوا للواجب المقدس لإنقاذ الإسلام المنهار في هذه الديار ، وفي هذا الحديث أيضا كثير من اللوم والتقريع لتفاهتهم وغفلتهم عن الخطر الكبير الذي قد يصيب الإسلام كله . وفي إشارته إلى أن هؤلاء يركبون عتاق الخيل ويحملون السيوف الخندية المرفهة مغرر فكأنه يقول : الأولى أن توجهوا هذه الخيل وهذه السيوف إلى حرب العدو بدلا من اتخاذها للسياق والوجاهة .

وفي بيته :

كم يستغيث صناديد الرجال وهم قتل وأسرى فما يهز لإنسان

إخبار عن كثرة الاستغاثة وأنها صادرة عن الأبطال الذين هم بطيئتهم أبدا ما يكونون عن طلب العون . ولقد تمثل القتل والأسر لا عنهم أمرا واقعاهم من خوف الوقوع فيه يستغيثون . وإذا كان الأمر كذلك فما بالنا بالضمايف الذين لا حول لهم ولا طول ، ولا يملكون عن أنفسهم دفعا .

وبلغت المرارة غايتها بنهاية القصيدة ، حين جعل الشاعر الفجيمة تذيب للقلوب كذا والنفوس أسمى وحسرة ، ولكن القلوب - ثوب

المسلمين الذين لم يتحركوا للنجدة - تخطو - والهاياذ بالله - من
الاسلام والإيمان .

والشاعر موزع العاطفة يعيش قلقا فهو لا يستقر على أمر ، فهو
في أول القصيدة يتسلى عن مصيبة الأندلس بأحداث التاريخ ، ثم
يقول : (وما لما حل بالاسلام سلوان) (دهي الجزيرة أمر لا عزاء
له) (تلك المصيبة أنست ما تقدمها) . وربما كان الشاعر ينشد التسلية
أول الأمر فلما أدرك أن المحنة محنة في الدين لم يستطع أن يستسيغ
السوى والعزاء . وربما جاز لنا أن نقول : إنه أنشأ القصيدة على
عدة مراحل .

وأسلوب القصيدة في جملة سهل واضح لا تكلف فيه ولا
تقصير ، ويكاد يكون فطريا . وما فيها من الخيال والتصوير اعتمد
على التشبيه والاستعارة في قالب تقريرى . ولم تخل أياتها من البديع
بالرغم من أن الحزن يصرف المرء عن التفكير في التحسين والتزويق
كما يدل على أن تعاطى البديع قد صار جزءا من صناعة الأدب
عندهم .

(ب) الذثر

١ - استعطاف من رسالة ابن زيدون الجديدة (د)

يستعطف بها ابن جهور ملك قرطبة

يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ،
وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت
عهد النعمة ، إن سلبتنى (أعزك الله) لباس نعمائك ، وعطلتنى ^(١) من حلى ^(٢)
إيناسك ، وأظلمتنى إلى برود ^(٣) إسماعلك ، ونقضت بى كف حياضك .

المعاني والصور والمحسنات :

تبدت براعة ابن زيدون الأدبية في قوة استخدامه للحروف وتلاعبه
بها في قوله : ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ،
فوضع له وعليه وبه ومنه في مواقعها بعد وصلها بالمصادر التي تربط بها
ثم دعا له أن يقيه الله حال كونه ماضى العزيمة ، وفي قوله حد العزم
(استعارة مكنية) كما دعا له بأن يعيش قادحا لزناد الأمل ليشمل للناس
طريق حياتهم وفي (زند الأمل) استعارة مكنية كما دعا له بثبات عهد نعمته
على الناس وكفى بذلك عن بقاء ملكه

(هـ) هذا جانب من الرسالة الجديدة التي بعث بها ابن زيدون من السجن
يستعطف بها ابن جهور بعد أن طوح به وهو الوزير في رحمة السجن ، وأرسل
من سجته قصائد ورسائل مستشفعا - وسميت هذه الرسالة بالجديدة لمقابلتها بالرسالة
الجزلية الساخرة التي بعث بها على لسان ولادة إلى الوزير ابن عبدوس ، والرسالتان
من خير ما كتب الأندلسيون من أدب

الشفقة : (١) الماثل : الخالي من الزينة وعطلتني أي أخليتني مما أنجلي به
(٢) الحلى بكون اللام : ما يتحلى به (٣) البرود بفتح الباء : الماء البارد

وغضضت عنى طرف حمايتك بعد أن نظر الإلهي إلى تأميلي لك ، وسمع
الاصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستمحادى إليك ، فلاغرو قد يغص بالماء
شاربه : ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤذى الحذر من مأمته ، وتكون مية
التمنى فى أميته ، والحين قد يسبق جنيده الحريص

كل المصائب قد تمر على الفتي ونهون غير شماتة الحساد
وإني لأتجلد وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أنضمضع^(١) فاقول :
مل أنا إلا يد آدماء سوارها ؟ وجين عض به إكليه^(٢) ومشرقى الصقه
بالأرض صاقله^(٣) ، وسهرى عرضه على النار مثقه ، وعبد ذهب به سيده
مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وقد غاير فى التعبير فاستعمل (الذى) فى صدر الفقرات الأولى (وعن)
الموصولة فى صدر الفقرات الثانية

ثم قال له : (إن سلبتى) واعترض بجملة اعتراضية للدعاء وهى أعزك
اقت ، ووردعاء مناسب لموقف ابن زيدون وفى لباس الثعناء استعارة ثم جعل
لبناس ابن جبور له كان زينة ثم عطله من هذه الزينة ، وفى ذلك تخيل حسن
وجعل بعده عنه ظمأ لروحه ، وما أخرج الظمآن إلى ماء بارد يسمعه .

وكان الشاعر من قبل يعيش فى كنف رعاية الملك وحياضته فنفض به
كف الحياضة والرعاية وفى كف الحياضة استعارة ، وكان هادىء البال تحت
طرف حمايته ، فنفض طرفه عن تلك الحماية : وفى ظرف الحماية استعارة مكثية

الآفة : (١) أنضمضع (أذل وأخضع) (٢) الإكليل : التاج

(٣) المشرقى : السيف نسبة إلى مشارف الشام وهى قرى شهيرة بصناعة السيف

(٤) السهرى : الريح نسبة إلى سهر وهو رجل مشهور بتثقيف الرماح وشحنها

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة^(١) غمرة ثم تنجلي ، وهذه التكبئة
سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يربيني من سيدي أن أبطأ سبيه^(٢) ،
أو تأخر (غير ضنين^(٣)) غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها وأنقل السحاب
مشيا أحفلها ، وأنفع الحيا ما صادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ،
ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله^(٤) ، ولا عتب
عليه في اغتفاله^(٥) .

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا فأعماله اللأى سرور ألوف

وقد حدث ذلك بعد أن خلق الله في الأعمى قوة الإبصار فنظر تأميل الشاعر
لابن جهور ، وخلق في الأصم القدرة على السمع فسمع ثناءه عليه وحمده ،
وخلق في الجاد قوة الشعور فأحس استجداه إليه ، وكل هذه مبالغات ولا عجب
بعد كل هذا ينقلب ما ينتفع به إلى ضرر فيغص بالماء شارب به والماء مزيل
للفصص ويقتل الدواء المستشفى به والدواء علاج ويعتدى على الخذر من
المكان الذي يراه آمنه ، ويكون موت الممتنى فيما تمناه ، والهلاك قد يسبق
كل ما أعد الحريص من جهود ويقظة ، ثم ساق البيت للتدليل على أنه
في موقف لا يحتمل وأن المصائب تتوالى وقد تهون غير شيء واحد هو شمانة
الأعداء والإتيان بذلك على سبيل التضمين ، وبعد أن بين عدم احتماله
للشمانة تريت أن ذؤيب الذي يقول فيه

وتجملدى للشامتين أريهم أنى لرب الدهر لا أتضعضع

وضمن كلامه بالبيت ليين أنه سيحاول التجلد حتى لا يشمت به أحد ،
ثم بين أن الشرف كله فيما صنع به ابن جهور وساق صورة تعتبر دليلا على

(١) النبوة : التصير (٢) السيب : العطاء (٣) الضنين : البخيل

(٤) الاهتبال : انتهاز الفرص (٥) الاغتفال : التناقل

حنائيك ، قد بلغ السيل الزبى^(١) ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما أراني
إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح : أركب
معنا فقلت سأوى إلى جبل يمصني من الماء ، وأمرت ببناء صرح^(٢) لعل
أطلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت^(٣)
ففترت^(٤) .. إلى أن يقول :

فكيف ولا ذنب لي إلا نسيمة أمداها كاشع^(٥) ونبا جاء به فاسق ، وهم
الهمزون^(٦) المشاءون بنسيم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا^(٧)
العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديما^(٨) صحيفا .

ما يقول ، غاسوار قد يدمى اليد ومع ذلك فهو زينة لمن يلبسه وفعل الملك
به زينة له والإكليل لباس الرأس الملوك فإذا أثر في الجبين فليس في ذلك
إهانة ، وكذلك سجن ابن جبرو شرف له وليس فيه إهانة ، وصاقل السيف
يضعه في الأرض ليتمكن من صقله ولا يضر السيف ذلك ، ووضع الملك
له في السجن كوضع الصاقل للسيف على الأرض وذلك العمل فيه خير ، السيف
وصلاحه وكذلك السجن — ومثقف الرمح يعرضه على النار بغية الإصلاح
والسجن فيه إصلاح لنفس الشاعر وحاشا للملك أن يقصد غير ذلك ، وكل

(١) الزبى بتشديد الزاى المضمومة جمع زبية : وهي حفرة يتخذها الأسد
في قم الجبال .

(٢) الصرح : البناء العالي العظيم .

(٣) استأصطى : تناول مالا يمين .

(٤) أصل العقر : الضرب على قوائم الجبال حتى لا تقاوم حين نعرها ثم أطلق
على النحر .

(٥) الكاشع : من يضمر المدادة .

(٦) الهماز : كثير الهمز والنمز . (٧) صدع العصا : شققها .

(٨) الأديم : الجلد .

الذى فعله لا يقصد به غير حمل الناس على الطريق وكذلك الحازم يظهر
قسوته حيناً على من يحب ليكون في ذلك عبرة وقد ضمن كلامه بالبيت
ققسا ليزدجروا ليعال للشامتين سبب سجنه ثم قال : إن العبي محمودا لواقب
وهو مرتقب ما يحمده عليه ، وموقف الملك منه ليس سوى شدة ثم تذهب
وهذه النسبة ليست غير سحابة صيف ، وقد ضمن كلامه بالمثل العربي
(سحابة صيف . .)

ولأنه لا يرتاب حين يتأخر العطاء أو يتأخر نفعه وقد فصل بين الفعل
(تأخر) وبين فاعله وهو (نفعه) بقوله : غير ضنين للاحترام وهو
إطنا ب ليثبت أنه غير بخيل حين يتأخر نفعه وكل ذلك يساقه ليكتب
الشامتين ، ثم قدم الأدلة على أن الخير كل الخير في تأخير النعم عند نيل
نفسه على طول سجنه وليقلل من شماتة الحساد فقال : إن أبطأ الدلاء عند
سحبها من البحر أملؤها بالماء ، وأثقل السحاب في المشى أغورها ، ثم بين أثر
النعم ولذته بعد طول السجن ليظهر للشامتين أن اللذة التي ستحقب ما هو فيه
لا تعد لها لذة فقال : إن أنفع المطر ما صادف أرضاً ممتطشة له ، وألذ الشراب
ما صادف غلة العطشان وبعد اليوم غد يرتقب ولكل أجل كتاب (وهذا
اقتباس قرآني جميل) .

وبعد كل ذلك يحمده ابن جهور على انتهازه الفرص للعفو ، ولا يعتب
عليه إذا تغافل عنه ، ثم ضمن كلامه بالبيت ليبين أن آلاءه التي سرت الشاعر
كثيرة وفعله الذي أساء به واحداً ، ولأنه ليضع أثره إلى جانب الكثير السار .

ثم راح يستعطفه ويطلب حناته ؛ لأن الألم النفسى قد بلغ ما لا يحتمل
(وبلغ السيل الزبى) مثل عربى يضرب البلوغ الشئ حداً لا يحتمل .

ثم ذهب إلى تاريخ المسيئين الذين حمل القرآن قصصهم ليبين أن ذنبه
ليس ذنب واحد من هؤلاء الذين أجرموا فلم يفتقر لهم جرمهم ، وأولهم

إبليس حين أمر بالسجود لأدم فأبى واستكبر ، وثانيهم ابن نوح حين قال له أبوه : اركب معنا فامتنع وآوى إلى الجبل لعله يعصمه من الماء ولكن إرادة الله كانت فوق ذلك الاعتصام فأغرقه ، وثالثهم فرعون حين أمر هامان ببناء صرح لله يطلع إلى إله موسى ، ورابعهم اليهود الذين عصوا موسى حين أمرهم بعدم الصلح في يوم السبت فلم يستجيبوا ، وعصوا أمرهم وخامسهم أشقي ثمود الذى عثر الناقة وقد نهى هو وقومه عن الاقتراب منها وهو ليس من هؤلاء ولم يحرم جرمهم ، ولا ذنبه إلا تلك القيمة التى قام بها من بضر العداوة له وإلا ذلك الخبر الذى جاء به فاسق وأشار بهذا إلى قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... ثم بين أن هؤلاء السعاة هم كثيرو الغنى المشاهون بالنعمة ، وهم الوشاة الذين صدعوا العضاة وفرقوا بيننا ، وهم القواة الذين يعز عليهم أن يروا جلوداً صححاً

التعليق

هذه الرسالة مليئة بالوان الجمال من الاستعارات والتشبيهات والمبالغات ومن التضمنين بالأمثال العربية وبالشعر ومن الاقتباس والإشارات إلى المعاني القرآنية والسجع

فمن الاستعارات التى ساقها الكاتب : حد العزم - زند الأمل ، لباس النعماء - حلى الإنسان كفى الحياطة طرفى الحيازة الخ .

ومن التشبيهات : هل أنا إلا يد آدماء سوارها وجبين عضى به لإكليله ، ومشرقى ، وسهمى ، . . . وعبد . . .

ومن المبالغات : نظر الأعشى ، وسمع الأصم ، وأحسن الجهاد

ومن التضمنين بالأمثال : بلغ السيل الزبى - سحابة صيف - أضع الحيا . . . غمرة ثم تتجلى الخ .

ومن الإشارة إلى الأمثال : يؤق الحذر من مأمته يشير إلى المثل : من مأمته يؤق الحذر

ومن التضمين بيت منظوم قوله : فقسا ليزدجروا الخ ، فإن يكن الفعل الخ ، كل المصائب الخ

ومن التضمين بيت مشور قوله : وإني لأتجلد وأرى للشامتين ، فقد أخذه من قول أبي ذؤيب ، وتجلدى للشامتين ، أريهم أنى لرب الدهر لا أتضمضع ومن التضمين بمعنى بيت قوله : ينص بالماء شارب . . فقد أخذه من قول الشاعر :

فساغ لى الشراب وكنت قبلا أكاد أغص بالماء الفرات
ومن الاحتراس قوله أو تأخر (غير حنين) غناؤه ، ومن الاقتباس قوله : لكل أجل كتاب ويقال لى توح (اركب معنا ...) ولعلى أطلع إلى إله موسى ، ومن الإشارات إلى الآيات قوله : وتعاطيت فققرت إشارة إلى قوله تعالى : فتعاطى فققر ، ونبا جاء به فاسق يشير بذلك إلى الآية . يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق ، وهمازون مشاءون يشير بها إلى قوله تعالى : وهماز مشاء بنميم ،

ومن السجع قوله : حياتك وحمايتك ، واهتباله واغتفاله الخ (فالرسالة غنية بالجمال على اختلاف ألوانه وأسلوبها غاية في القوة وإحكام النسيج ، وقد أبدع في تخير الألفاظ والأمثال والآيات والشعر المناسب للموضوع وكل ما قدمه يكشف عن سعة اضلاعه وسمو ذوقه ، وقدرته على التعبير عن خواطره وبكل ذلك يعد في طليعة أصحاب الأدواق الغنية العالية من الأندلسيين .

٢ . د وصف ، لابن خفاجة

ولما أكب^(١) الغمام لكبابا ، لم أجد منه إغابا^(٢) ، وانصل المطر اتصالا ،
لم ألف منه انفصالا ، أذن الله للصحو أن يطلع صفحته ، وأن ينشر صحيفته
فقسمت الريح السحاب ، كما طوى السجل الكتاب ، ذهبت في لمة^(٣) من
الإخوان نستبق إلى الراحة ركضا^(٤) ، ونطوى للتفرج أرضا فلا ندفع
إلا إلى غدير نير^(٥) ، قد استدارت منه في كل قرارة سماء ، سحائبها غمام^(٦)
وانساب في كل تلمعة^(٧) حجاب^(٨) ، جلده حباب^(٩) ، فترددنا بتلك
الآباطح^(١٠) تهادي^(١١) تهادي أغصانها ، وتضاحك تضاحك أقحوانها^(١٢)

المعنى والصور والمحسنات :

هذه صور متكاملة الجوانب يضمها أماننا المصور الفنان ابن خفاجة
لرحلة غب مطر سقط على الأرض منهرا ، فلم يتقاط ساعة بعد ساعة ،
ولكنه تدفق متصلا غير منقطع ، ثم أذن الله للصحو أن يطل على الوجود
وينشر صفحاته فهبت الريح تطارد السحاب حتى طوته على السجل للكتاب
(وفي ذلك التعبير تشبيه واستمارة بالأسلوب القرآني)
وعندئذ ذهب الكاتب في رفقة من ضحاياه يستمعون بذلك الجو الساحر

اللفظ : (١) أكب : سقط (٢) الإغاب : النزول ساعة بعد ساعة

(٣) اللمة : بضم اللام المشددة : الأصحاب في السفر

(٤) الركض : الجري السريع (٥) النير : الصافي

(٦) السحابة الغمام : التي لا فرجة بينها

(٧) التلمعة : ما ارتفع من الأرض (٨) الحجاب كالغراب : الحية

(٩) الحجاب بفتح الحاء الطرائق أو التفانيق

(١٠) الآباطح : مساليل واسعة للماء فيها ذقاق الحصى

(١١) التهادي : الاختيال (١٢) الأقحوان . نوع من الزمر

وللنسيم ، أثناء ذلك المنظر الرسم ، ترأسل^(١) نسي ، على بساط وشي ،
فإذا مر بتدير نجه درعا ، وأحكمه صنعا ، وإن عثر بجدول شطب منه
نصلا ، وأخلصه صقلا فلا ترى إلا بطاحا ملوءة سلاخا ، كأنما انهرمت
هنالك كتائب ، فالقته بما لبسته من درع مصقول^(٢) ، وسيف مسلول ،
فاحتلنا قبة خضراء مدودة أشطان^(٣) الأغصان سندسية رواق^(٤) الأوراق
ومازلنا لتصف منها يبره ظل ظليل ، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل ،
ونجمل النظر في نهر صميل : صافي لجين^(٥) الماء ، كأنه بجرة سماء ، مؤتلق
جواهر الحباب^(٦) كأنه من ثور الأحياب .

فراحوا يستبقون في ركضهم ويمتلئون أرواحهم من ذلك الجمال وقد وضع
أمامنا مشاهد الجمال وعوره

فتحت صورة الغدير الصافي قد انعكست على مرآتها السحاب الكشيفة
التي لا فرجة فيها فتراوت السحاب مستديرة كأنها تعيش في قرار الغدير
وهناك فوق التلعة تراهى سيل الماء يقاب في التواء كأنه حية مرقشة
الجلد . وكأنما علت جلدها الفقايع أوبدت فيه طرائق ملتوية ، ثم قدم صورة
له مع رفقة وهم يمر حون بين الأباطح مختالين اختيال الأغصان متضاحكين
تضاحك الأقحوان وهو نوع من الزهر وفي هذا التركيب تشبيهان
الأول : تنهادى نهادى الأغصان ، والثاني تضاحك تضاحك الأقحوان .

ثم قدم صورة متحركة للنسيم في ذلك المنظر فصوره متحركا يرسل
بعضه بعضا فوق الأعشاب الخضراء التي نسجت يد الطبيعة فظهرت كأنها

اللفة : (١) ترأسل النسيم : إرسال بعضه بعضا

(٢) المصقول : المشحوذ (٣) الأشطان : الحبال

(٤) الرواق : مقدم البيت (٥) اللجين : الفضة

(٦) الحباب : الفقايع

بساط موشى ، وحينما يمر النسبم بالقدردان تصنع يده من صفحاتها دورنا
فضية بديعة الصنع ، وإذا التقي بجدول صغير يصنع من معدنه اللامع نصالا
ويتفنن فى صقلها حتى إذا مارأى الناظر صفحات القدردان والجداول المتسابة
بين البطاح لم يتخيلها غير دروع وسيوف ونصال ، وعند ذلك يتصور أن
هنالك كانت معارك انهمزت فيها كتائب فتخففت من أنقالها وأسلحتها
طلبا للفرار فأنفت ماكان عليها من دروع مصقولة وماكان معها من
سيف سلولة

ثم وضع صورة المجلس الذى اتخذوه بعد طول الركض والمرح ،
وكان المجلس الذى احتلوه قبة ضربتها يد الطبيعة من دوحة عظيمة امتدت
جبال أغصانها ، وكانت أوراق مقدمة القبة سندسية خضراء

وتجبل أنهم هنالك التحفوا برد ظلها واشتملوا برداء تسيمها ، وقد جمع
فى هذا التعبير بين المتناسبات فجوع بين البرد والرداء والاشتغال وهذا هو
مراعاة النظر

ومن خلال مجلسهم أرسلوا النظرات فى النهر الصافى الممتد ، وقد صفا
ماؤه الفضى وقوله : لجين انماء من إضافة المشبه به للشبه ، ثم أبرز تشبيها
آخر للنهر فتشبهه بمجرة السماء وهو السحاب الذى يظهر وسط السماء فى ليل
الصيف ، وقوله جوهر الحجاب من إضافة المشبه به للشبه أى أنه لامع
الفقائع كالجوهر وكأنما كان حجابها قطعا بيضاء من نفور الأحباب وفى
ذلك تشبيه .

التعليق

هذا نموذج من نثر ابر خفاجه أو من شعره المشهور جمع آيات من الفن
الرائع علمت فيها يد صانع حاذق تفنن فى التصوير فأبدع ، واجتمعت آيات
الإبداع فى موسيقى السجع القصير الفقرات الذى انطوت عليه القطعة كلها

فالقطة كلها مسجوعة ولكنه يجمع الحائم ، وفي القطة موسيقى أخرى
تحسب في جرس الألفاظ التي انتقاها للتعبير عن خواطره

وإلى جانب ذلك ترى جمال الصور التي عرضها وتمس روعة خيالها
حينما تقف على الغدير فتشهد يد النسيم وهي تنسج من مائه الفضي الدروع
أو حينما تقف على الجداول فتلتفه يشطب من أمواجه السيوف والنصال
ويصفق لها أو حينما تنظر البطاح المملوءة بذلك السلاح كل هذه سمات من
من الخيال العالي تتم عن سمو تخيلاته في عالم الأخيلة

وفي القطة إلى جانب كل ذلك تشبهات قدم صورها من وحي الطبيعة
التي فتن بها كقوله : نهادي نهادي أغصانها وتتضحك تضاحك أفحوانها
وقد راعى التناسب بين الألفاظ المعبرة وفي مراعاة ذلك (مراعاة النظير)
وهو بكل هذا وضع أمامنا لوحات نشأت على الذوق أجاد الترجمة
عن الطبيعة وعن مشاعره وخیالاته وخواطره

عصر الممالك

حالة الأدب منذ سقوط بغداد في أيدي التتار إلى العصر الحديث *

التتار

لمحة في تاريخهم :

التتار قبائل كانت متفرقة في الصين تجمعت تحت قيادة جنكيز خان وغزاهم منغوليا وتركستان وبخارى وسمرقند وخوارزم وخراسان وتقدم حتى ضم إلى ملكه معظم غربي آسيا .

وتولى بعده ابنه حؤلى ، ثم هولاكو الذى دخل بغداد فى عهد الخليفة المستنصر العباسى ، واستباح كل ما فيها أربعين يوماً ، ثم زحف حتى وصل غزة ، وعاد إلى الشرق تاركاً وراءه القائد كتبغا الذى التقى بقطز سلطان مصر فى معركة عين جالوت ، ودهزم التتار فى هذه المعركة هزيمة تاريخية ، ولكن توالى غزواتهم بعد ذلك على بلاد الشام ، وكان أعظم قوادهم تيمورلنك الذى زحف إلى سوريا وقتل الكثير فى حلب ودخل دمشق ومات عام ٨٠٧ . وبموته تمزق ملك التتار ، واسترد المماليك بعدئذ كل بلاد الشام .

غارات التتار وأثرها فى تفويض الحضارة العباسية

اجتاح التتار الملك الواسع من نهر جيحون إلى المحيط الهندى جنوباً ثم إلى البحر الأبيض غرباً ، وعم قنطرة لم يهذبهم دين ، عاشوا على الغارة والصيد وعرفوا بالوحشية التى افنت فى القضاء على الحضارة التى بناها المسلمون فى قرون وقضوا على آثار قرائع الآلاف من العلماء والأدباء فلم يبقوا على ذلك التراث

الضخم من المساجد والمكتبات والمدارس التي كانت منتشرة في أرجاء ذلك العالم الإسلامي الشرقي : قضوا على التراث الذي خلفه السامانيون مؤسسو الدولة السامانية التي نشأت في حضن الدولة العباسية والتي كان من ملوكها نصر بن نوح مؤسس المكتبة العظيمة ببخارى ، وقضوا على التراث الذي خلفه البرهيميون وورثاؤهم من المكتبات والمساجد في أرجان وشيراز وجرجان .

وقضوا على التراث الذي تركه الزياريون في طبرستان ، وعلى التراث المجيد الذي عملت فيه جهود الأئمة من العلماء والأدباء والمترجمين في أيام المنصور والرشيد والمناؤون في بغداد والبصرة والكوفة ، وعلى التراث الذي خلفته الدولة الغزنوية في أفغانستان ، والدولة الحمدانية في حلب ، وعلى ما تركه السلاجقة في أنحاء هذا العالم من مكتبات ومدارس . . . وهكذا قوض التار تلك الحضارة العلمية العظيمة ، والتراث الأدبي الكبير الذي تركه العباسيون والدول التي نشأت في أحضانهم .

لحن تاريخية في عصر المماليك - ٦٤٨ - ٩٢٣ :

راجت تجارة الرقيق من الترك والشراكنة في أواسط آسيا وفي غربها فابتاع الملك الصالح نجم الدين أيوب عدداً ورياحم تربية عسكرية ، وأسكنهم جزيرة الروضة ، ولذا سمو المماليك البحرية . وارتقى عدد منهم إلى المناصب الكبيرة . ومنهم فارس الدين أقطاي وعز الدين أيك وبيبرس وقلاوون وبعد موت الملك الصالح ارتقى العرش ابنه توران شاه ، وحدث خلاف بينه وبين مماليك أبيه انتهى بقتله وإقامة زوجة أبيه شجرة الدر ملكة على البلاد ثم تزوجت عن الدين أيك وتنازلت له عن الملك : وهذا انتقل الملك من الأيوبيين إلى المماليك .

ومن ملوكهم قنطر الذي انتصر على التتار في عين جالوت ، ويبررس الذي غزا الصليبيين بسواحل الشام ، وقاتل التتار بنواحي الفرات ، وقلاوون الذي انتصر على التتار في حمص ، وخليل قلاوون الذي طرد الصليبيين من الشام . أما الممالك لشراكة : فسموا بالممالك البرجية لأن قلاوون استكثر منهم ، وأسكنهم أبراج القلعة ، وأول ملوكهم الظاهر برقوق ، وآخرهم قانصوه الغوري ، وكان لهؤلاء وأولئك بعض الأثر في نشر العلم والأدب ، كما سنبين ذلك بعد إن شاء الله .

خمود الأدب في العراق وما وليها من بلاد الشام

خمد الأدب في هذا الجزء من الملك الإسلامي بعد أن زحرت بشق ألوانه قصور الملوك والوزراء والخطباء وأندية العلم ومجتمعاته والمساجد والمدارس ، وقد أجدبت تلك البلاد وكأن لم يكن بها للأدب دولة ، وكأن لم يكن بها شعراء كانوا سمار الخدماء والملوك ، وكأن لم يكن بها كتاب ارتقت بهم أقلامهم إلى أسمى المناصب ، وخمد الأدب في العراق وزاد خموده في بلاد فارس الأسباب الآتية :

١ - استيلاء التتار :

استولى التتار أعداء العلم على البلاد فشفغل الناس عن الأدب والثقافة عامة بتلك الفتن التي اجتاحت البلاد في قسوة واستبدت بكل شيء .

٢ - إتلاف الكتب :

أنلف التتار الكتب التي كانت في المكتبات ودور الوراقين والمساجد والمدارس فلم يبق لطالب الأدب مورد من الدواوين والمؤلفات يتزود منه .

٣ - قتل العلماء :

قتل التتار الكثير من العلماء إبان الغزو فقصوا على المؤيدين والمرين الذين كان من الممكن الاعتماد عليهم في تربية جيل يمد إلى هذه البلاد ما فقدته .

٤ - هجرة العلماء :

هاجر من هذه البلاد من تجم من العلماء فرأوا من ظلم التتار فخرج بعضهم إلى الشام وبعضهم إلى مصر .

استمرار نشاط الأدب في مصر والشام في عهد المماليك

استولى الصليبيون على جزء من بلاد الشام حيناً ، وكان الجزء الثاني مسرحاً لغارات التتار حيناً . وفي هذه الحقبة هاجر كثير من علماء الشام وأدبائها إلى مصر . ولما استقر الأمر بعد حرد الصليبيين والتتار واتحد الكام مع مصر تحت سلطان المماليك عاد إلى الأدب نشاطه هناك وهيأت اتوحد للآداب والعلماء انتقل بين ذلك الملك الواسع وقد تولى بعضهم مناصب هناك كآبن خل كان وغيره .

وقد أنشأ سلاطين المماليك نحواً من أربعين مدرسة أوقفوا عليها الأوقاف وجعلوا نظارة الأوقاف لأولادهم ، وقد دفعهم إلى ذلك العمل التقرب إلى الله وإلى الشعب والاحتفاظ بالأموال عن طريق نظارة أبنائهم عليها ، ومن أشهر هذه المدارس :

المدرسة الظاهرية ، والمنصورية ، ومدرسة شيخون ، ومدرسة السلطان حسن ، والمدرسة المؤيدية .

اتخاذ اللغة العربية لغة الدولة :

كانت لغة المماليك هي التركية وقد تولوا هم بأنفسهم الإشراف على الإدارة وشئون الجيش وتركوا غير ذلك للعلماء ، وقد استخدموا في الدواوين عدداً من المتخرجين في المساجد والمدارس وأعظم الدواوين ديوان الإنشاء وكان يختار للعمل فيه أربع الكتّاب والآداب ، ولم يجد المماليك بداً عندئذ من أن يتخذوا اللغة العربية لغة للدولة .

كثرة الأدباء :

كثر الأدباء هذا العصر وجمع أكثرهم بين صناعة الشعر والكتابة والتأليف ، ومن هؤلاء البوعيسى والشاب الطريف وابن عبد الظاهر وابن نباتة والقلقشندي والمقرئزي .

ولكل هذه الأسباب استمر الأدب في مصر .

ازدهار الأدب في الشام

ازدهر الأدب في الشام بعد استقرار الأمور ، وعادت المساجد والمدارس يؤديان هناك رسالتهما العلمية والأدبية في المدن والقرى ، وأدى العلماء واجبه في كثير من المدن ، كدمشق وحلب .

كما كانت دور العلماء تزخر بطلاب العلم والأدب ينهلون منهما ما شاءوا ، وكانت دواوين الإنشاء مثبتة في البلاد يتولى فيها الكتابة أدباء لهم ندوات أدبية في دورهم وفي غيرها ، وكل ذلك أدى إلى انتشار الأدب في الشام ، فظهرت طائفة من الأدباء هنالك ، منهم بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ، وابن فضل الله العمري المولود في دمشق ، وكان عالماً كاتباً مؤلفاً ، ومنهم صفى الدين إخطي المولود بمدينة الحلة من مدن الفرات ، ومنهم عمر بن الوردى بالمرعة ، وكان شاعراً نحويّاً فقيهاً مؤرخاً قاضياً ، ومنهم شهاب الدين الحلبي المولود بدمشق ، ومنهم زين الدين بن الوردى من كتاب المقامات ، وغير هؤلاء كثير عن زخرت بهم بلاد الشام .

الحركة العلمية في عصر المماليك

ازدهرت حركة التدوين في هذا العصر وكان نشاط التدوين فيه أقوى مما عرف للنشاط الأدبي ، بل إن كثرة المؤلفات فيه كانت مفخرة له حيث كانت الحلقة التي وصلت بين ماضى العلم وحاضره ، فانجبه العلماء إلى سد حاجة

الدين والاسقة والتاريخ والأدب والعلوم الأخرى ، واشتملت بينهم المنافسة في كثرة الإنتاج حتى رأينا لسيوطي يضع أكثر من خمسمائة مؤلف في مختلف العلوم وابن نبيمة يضع قرابة ثلثمائة مؤلف .

ونافست الشام مصر في الحركة العلمية ، ولا بدع فكثرة المدارس والمساجد في مصر والشام خلفت هذا النشاط العلمي وأوجدت هذا البعث الشامل في تأليف العلوم والفنون ، وبذلك تجدد للإسلام ولغة العرب ما أبلكه وحشية التتار .

وترجع أسباب ازدهار التدوين في هذا العصر إلى ما يأتي .

١ - إحساس العلماء بالأمانة التي في أعناقهم :

رأى العلماء بعد سقوط بغداد وإتلاف التراث العلمي فيها وفي غيرها من مدن العراق وفارس والشام أن في عنقهم أمانة للإسلام ولغة العرب وأن عليهم أن يمددوا الحياة العلمية كما كانت ، ولهذا بذلوا فوق ما يطيقون في التأليف والتدوين .

٢ - رعاية سلاطين المماليك بالحركة العلمية :

كان لعطف المماليك ووزرائهم على العلماء واتشجيعهم على التأليف أثر كبير في نهضة الحركة العلمية وقد شغف بعضهم باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الخافضة بالنفائس .

٣ - هجرة العلماء :

هاجر الكثير من علماء المسلمين إلى مصر فكانت الهجرة من أسباب ازدهار الحركة العلمية .

طريقة التأليف في هذا العصر :

عرف عن المؤلفات في هذا العصر أنها ثلاثة أنواع :

١ - نوع موجز يسهل على المبتدئين استظهار ما فيه من حقائق علمية .

٢ - نوع فيه شيء من البسط لمن يريد التوسط في المعرفة .

٣ - نوع مفصل لمن يريد التبحر أو التوسع .

وقد يكتفى من هذه الأنواع بنوعين .

وهذا ما جرى عليه ابن مالك حين وضع الكافية ثم اختصرها في الألفية

وابن هشام حين وضع المغنى ، ثم اختصره في كتاب الإعراب ، والقلقشندي

حين وضع صبح الأعشى واختصره في كتاب ضوء الصبح المسفر .

والكتب الأزهرية التي تدرس الآن جلها من وضع هذا العصر .

والتأليف في هذا العصر كان جمعاً لما كتبه الأقدمون .

وقد ابتكر بعض علماء العصر مؤلفات نحوها فيها منحنى جديداً كمقدمة

ابن خلدون وخطط المقرئى ووفيات الأعيان لابن خلكان .

وهذا بعض ما ألف في العصر مع ذكر أسماء بعض المؤلفين :

(أ) في اللغة : ظهر لسان العرب للعالم جمال الدين الأفريقى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ

ومصادره التهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهري ،

وجوهرة ابن دريد والنهاية لابن الأثير ، وظهر القاموس لصاحبه مجد الدين محمد

بن يعقوب الفيروزبادي المتوفى سنة ٨١٦ هـ .

(ب) في النحو : الكافية الشافية ، ولامية الأفعال وهي مشروحة

ومشروحة في مصر وأوروبا وصاحبهما ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ هـ .

والمغنى لصاحبه جمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام

المصري المتوفى سنة ٥٧١ هـ .

(ج) في البلاغة : ظهر قبل هذا العصر كتاب مفاتيح العلوم للسكاكي

المتوفى سنة ٥٦٦ هـ فلاحه من علماء هذا العصر الخطيب القزويني المتوفى

سنة ٥٧٣ هـ في كتابه الإيضاح في تلخيص المفتاح ووضع المظفر الخطيب

المتوفى سنة ٥٧٤ هـ مفتاح تلخيص المفتاح .

ووضع سعد الدين الفتازاني المتوفى سنة ٥٧٩٢ هـ شرح تلخيص المفتاح وسماه المطول ثم اختصره في المختصر . وألف الشيخ عبد الرحيم العباسي المتوفى سنة ٥٩٦٣ هـ ، كتابه (معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص) ، (د) في التاريخ : كتاب وفيات الأعيان لأحمد بن خلكان المتوفى سنة ٥٦٨١ هـ وعنى فيه بتحرير المواليذ والوفيات ، وخطط المقرئى والدرر لابن حجر العسقلاني ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة للسيوطي . (هـ) في الفقه : الروضة ، والمنهاج ، والمجموع ، وكلها للنواوى في فقه الشافعية ، ومن الكنز للزيلعي في فقه الحنفية ، وشرح مختصر ابن الحاجب للزاوى في فقه المالكية والفتاوى لابن تيمية في فقه الحنابلة .

(و) في علوم القرآن : الإتقان في علوم القرآن ولباب المنقول في أسباب النزول ، وكلاهما للسيوطي .

(ز) في الحديث : فتح الباري في شرح البخارى لابن حجر العسقلاني وإرشاد السارى إلى شرح البخارى للقسطلاني .

كما ظهرت مؤلفات في الطب والنبات لابن الشاطر ، وحياة الحيوان لكمال الدين الديمري ، وفي علوم الاجتماع مقدمة ابن خلدون وتقويم البلدان لأبي الفداء .

وعند بعض العلماء إلى إتمام ما بدأه غيره كابن شاكر في كتابه (فوات الوفيات) وقد تدارك ما فاتته ابن خلكان في وفيات الأعيان .

الموسوعات :

ظهر في هذا العصر موسوعات كثيرة في مختلف العلوم وكانت مهمة المؤلف فيها حشد المعلومات وجمعها ومنها :

١ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ، ويبحث في الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغيرها .

٢ - نهاية الأرب في فنون الأدب ويقع في (٢١) جزءاً وقد ألفه شهاب الدين النوري ، ونقله من مكاتب الآستانة بالتصوير الشمسى أحمد زكى (باشا) . ويضم مباحث في الأدب والتاريخ والسياسة والطب والفلك والجغرافية وغيرها .

٣ - صبح الأعشى للقلقشندي المتوفى سنة ٨٤١ هـ . وفيه كل ما يحتاج إليه المثقف من فنون الأدب والتاريخ والسياسة وغيرها .

الشعر في عصر المماليك

لم يكن للشعر النشاط الذي عرف للحركة العلمية في هذا العصر وإنما اعتنت أسباب الضعف التي طرأت عليه في أواخر العصر العباسي الثاني إلى عصر المماليك بل زادت ، لأن الشعراء صرفوا جل همهم إلى الصناعة اللفظية ، فشفغوا بها عن المعنى الدقيق والبساطة الملهمة ، واختلعت عليه وعلى الشعراء عوامل منهكة لم يستطع معها النهوض أو استعادة بعض نواحي القوة التي كانت له في ماضيه .

فجهل الشعب وعدم تقديره للشعراء ، وجهل البلاطين وزوجهم العسكرية التي تنفر من القول ، وأعمى ميتهم التي لا تهزها بلاغة الشعر العربي ، بل عيش الشعراء الجفاف وسعيهم وراءه ، بل الحياة المضطربة والفتن التي شملت الشام من غارات التتار والصليبيين وشملت مصر من الوتبات المستمرة بين أمراء المماليك طمعاً في السلطان بل انشغال الكثيرين من الشعراء بالعلم والتأليف كعباً للمال من هذا الطريق .

كل ذلك صرفهم عن التفرغ للشعر وعن الإجابة كما تفرغ وأجاد غيرهم من شعراء العصور السابقة .

وعلى الرغم من كل ذلك كانت للشعر دولة وإن لم تكن لها قوة كتلك القوى الماضية ، فجهل الشعب كان سبباً في إثارة ابن نباتة وفي هتائه .

لا عار في أدبي إن لم ينل رتبة وإنما العار في دهرى وفي بلدى
 هذا كلامى وذا حظى فبا عجباً منى لثروة لفظ واقتدار يد
 وحرمان الشعراء من تشجيع الملوك اختفى في عهد الناصر حسن بن الناصر
 محمد بن قلاوون حيث كان يقدر الشعراء أمثال ابن نباتة وابن حجة الحموى.
 وجهل الماليك لم يلزم السلاطين جميعاً ، بل عرف عن آل قلاوون
 فهمم الشعر ، ويكشف ذلك ما قيل من أن « نجم الدين العبرى » مدح
 الأشرف خليل قلاوون بقصيدة قال في مطلعها .

زر والديك وقف على قبريها فكأننى بك قد نقلت إليهما
 فتشامم الأشرف من هذا البدء وانصرف عن المجلس .

وعرف عن الملك المؤيد ، حبه الشعر بل تظمه ، وعرف عن الغورى ،
 كذلك فهمه للشعر وكثرة قراءته لدواوين الشعراء .

وتكاليف الحياة والسعى وراء العيش لم يحولا بين محبى الشعر وقرضه
 ومن ثم ظهر بين الشعراء ، الجزار والحمى والكحل والدهان ، بعد أن عمدوا
 التكسب بالشعر ولم يجدوا في عصرهم من يأخذ بأيديهم ويعينهم على الحياة .
 فاستمع إلى هذه النفثة التى تكشف عن المجتمع في هذا العصر في حكمة
 ونغز وسخرية حين يقول أبو الحسين الجزار :

كيف لا أشكر الجزارة ماعش ت حفاظاً وأرفض الآدابا
 وبها صارت الكلاب ترجى خنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا
 ويمكن إيجاز أسباب عدم نهوض الشعر فيما يلى :

١ - جهل الشعب وعدم تقديره للشعر والشعراء .

(وقد كان جهل السلاطين والشعب سبباً في ظهور الأزجال والموشحات
 وهما باللغة العامية غالباً وهى تلك اللغة التى يفهمها هؤلاء وأولئك) .

٢ -- الحياة المضطربة في الشام ومصر شغلت الأذهان كثيراً عن الشعر .
٣ -- انشغال الشعراء أو أكثرهم بالكتابة للعمل في ديوان الإنشاء وغيره أو بالتأليف الذي كان موضع رعاية الممالك أو التدريس أو القضاء أو غير ذلك من المتاعب كل ذلك شغلهم عن الشعر وإجادته وهؤلاء كثيرون منهم العيني وابن حجر ، والقلقشندي ، وابن دقيق العيد ، والعسقلاني .

على أنه كان للشعر نشاط في بعض الميادين لا يجمد : فهؤلاء الشعراء وقد فقدوا الشعب السامع المقدر والحاكم المنشجع رأوا في ميدان الإخويات مجالا لقرائحهم فهاؤا وتهادوا ، وجرى كل ذلك بينهم شعراً يعبرون به عن خلجات نفوسهم .

كما رأوا في ميدان التنافس الأدبي مجالا فاندفعوا يتسابقون في الظهور قطارحوا الشعر ونقدوا ومارضوا غيرهم .

وكان ميدان النقد الاجتماعي أعظم الميادين التي نشط فيها الشعراء كنقد من يلومون على التنكسب بالشعر ولذا يقول ناصر الدين بن التقيب :
أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة دعوني فإن آكل العيش بالجبن
ونقد ابن نباتة يجتمعه الذي لا يمينه على زمنه حين يقول :

قل عوني على الزمان فأصعبه ت صبوراً على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن الناس من فلا من يدي ولا من لسان

وحين يقول :

تركت المال والجاه لأمل القدر والقدره
فحسبي من حمى كسر وحسبي من غنى كسره

ونقد شهاب الدين الأعرج استنثار الأتراك والإقباط في مصر بالرزق وحرمان الشعب السكادح من نصيبه الذي يستحقه حيث يقول :

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعت القبط من كل وجهة لأنفسهم بالربع والثلث والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف والخلائق في السدس
هذه القسمة العنصرية بين المتجبر والضعيف أو المستضعف .

وكانت الصناعة اللفظية الشغل الشاغل لجميع الشعراء في هذا العصر فليس
يروق في نظر شعراء هذا العصر شعر خلا من الصناعة اللفظية .

ويرى شعراء هذا العصر أنهم أنفردوا بإحكام التورية . وأنهم زعماء
هذا اللون من المحسنات . ويرى نقاد عصرنا أن الصناعة جنت على الشعر
لأنها صرفته وصرفت الشعراء عن العناية بالمعنى .

ألفاظ الشعر وأساليبه

اندمت ألفاظ الشعر وأساليبه في هذا العصر بهجر غريب اللغة إلى حد
كبير وبالميل إلى السهولة التي انحرفت في الكثير إلى استعمال العامية أو التركية
التي فشت بين الناس ، كما أكثر الشعراء من استعمال الألفاظ المهمة أو
المعجمة أو المصغرة أو التأريخ بالشعر ، وكل ذلك يؤدي إلى تفاهة المعاني .
ونكلف شعراء العصر التزام المحسنات البدعية وبخاصة التورية
كما عتوا بالتضمن والاقتياس . وهذه نماذج لاستعمال العامية والألفاظ
المهمة وغيرها .

١ - لابن الوردى :

وناجر شاددت شاقه والحرب فيما بينهم سائر
قلت علام اقتلوا هكذا قال (على عينك ياناجر)
ضمن الشاعر شعره بالمثل العامي (على عينك ياناجر) وذكر الحرب
وهي مؤنثة .

٢ - للشاب الظريف :

لم أنس لما زارني مقبلا أولاني الوصل وما ألقى
وقفت بالرشف على ثغره وقع المساطيل على الخلو
أدغم الشاعر كلمة (مساطيل) في شعره ، وهي عامية وبين ألقى
وألقى جناس .

٢ - للبوصيري من قصيدة كتب بها إلى بهاء الدين بن علي ، قال :
إليك نشكو حالنا وإنما عائلة في غاية الكثرة
أحدث المولى حديثا جرى لي معهم بالخط والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم كانوا لمن أبصرهم عبده
لهم من الخيز مملوكة في كل يوم تشبه النشرة
وأقبل العبد ولا عندهم قمح ولا خبز ولا فطره
يقط أسلوب البوصيري في هذه القصيدة إلى مستوى العامية كقوله :
جرى لي معهم بالخط والإبرة وقوله : ولا فطره
ومن أمثلة المعجم والمهل والمصفر قول ابن حجة في المعجم من فوق :
وقد أمنت رزال الخوف بمنحرفا نحو العندو ولم أخفر ولم أضمر
ومن المهمل قول الحلبي :
كم ساهر حرم لس الوساد وما أراه مسؤله المراد
وما جاءت التناقله مصفرة قول الحلبي أيضا :

لحيطك والمقيلة مع نظمي سحير في سحير في سحير
ومن الاقتباس قول ابن نباتة :
الله سخر لي وعائلتي من حف بي الإكرام والكرام
حتى تلوت قبل رؤيتهم يا ليت قومي يعلمون بمكة

وحينما رأى بعض الأدياء انحراف بعضهم إلى العامة عمدوا إلى غريب
اللغة فلأوا به أديهم وإن كانوا قلة لم يحفل بهم العصر ، ومن هؤلاء يسخر
صفي الدين الخلي فيقول :

إنما الحيزيون والدرديس والطخا والنقماخ والعلطيس
لغة تنفر المسمع منها حين تروى وتشمز النفوس
وقيح أن يذكر النافر الوح شئ منها ويترك الأناوس
أين قولى : هذا كتيب قديم ومقالى عفتقل قدموس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

والطابع الغالب على العصر سهولة الألفاظ وميلها إلى العامة إلا أن
بعض الشعراء تأتقوا في بعض شعرهم فلم من الضعف وبدا قويا . في أسلوبه
والفاظه ، وسنقدم نماذج لذلك حين نعرض نماذج لشعر هذا العصر .

أغراض الشعر في عصر الماليك مع ذكر نماذج لها

لم يدع شعراء هذا العصر غرضاً لم يقولوا فيه وأهم ما قالوا فيه من أغراض :
١ - المدح : الشعراء في كل عصور الشعر يدحون الملوك أو العظماء
خدماً في مال أو منصب أو جاه يعتزون به ، ولم يغفل عصر الماليك من سلطان
يفهم الشعر ، أو وزير يعطى أو صاحب ديار إن شاء يحقق أمل الشعراء .
وهذا الشاب (*) الظريف يدح ابن عبد الظاهر صاحب ديار إن شاء فيقول :
ومعشر لم تزل للحرب بيضهم^(١) حر الحدود وما من شأنها الخجل
إذا انتخوها^(٢) بروقا صيرت سجا يسيل من جائبها عارض^(٣) هطل

(٥) محمد بن سليمان التلساني ، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ وتوفي سنة ٦٩٥ هـ
وله شعر رفيق .

(١) البيض : السيوف (٢) انتخوها : سلوها

(٣) العارض : السحاب : ويقصد به هنا الدماء

يثق حديث الوغى أعطافهم^(١) طربا كأن ذكر المنايا بينهم غزل
ضامت بحسبهم تلك الخيام كما ضامت بوجه ابن عبدالظاهر الدول
نوحى إلى كل قرطاس بلاغته سحر اليان ومن أفلامه الرسل
فللمعدة لديه كل ماحذروا وللغاة^(٢) لديه كل ماسألوا

التعليق : الألفاظ متقاة كانتضوها ، وعارض هطل ، الوغى ، أعطافهم
القرطاس .. الخ والمعاني قديمة قوية فالسيوف المحمرة من الدماء وتثنى
الأعطاف طربا عند ذكر الحرب ، والمدح بأنه محارب وكريم فيها قوة
من ناحية المعاني ، وقد أجاد الشاعر في الانتقال من وصف من تحدث عنهم
إلى مدح ابن الظاهر وفي حمة الحدود استعارة ، وكأن ذكر المنايا الخ تشبيه
وضامت بحسبهم البيت ، فيه تشبيه . وأسلوب (يسيل من جانبيها عارض
هطل) كناية عن كثرة الدم (وماحذروا) كناية عن السيف (وماسألوا)
كناية عن المال .

وفي البيت . ضامت بحسبهم .. الخ مبالغة .

٢ - الوصف :

وصف شعراء العصر ما شاهدوا من مناظر الحدائق والأزهار والجداول
والأخيار وقنيل والخلجان وآلات الحرب والشيب والمنازل والآثاث
والسواقى والنواعير ، بل وصفوا كل ما رأوا حتى توافه الأشياء .
وهذه أبيات لصفي الدين الحلي^(٣) يصف فيها الربيع عن قصيدة طويلة قال :

(١) الأعطاف : الجوانب (٢) الغاة : جمع عاف : وهو السائل

(٣) هو عبد العزيز بن علي ، ولد بالحلة من مدن القرات وتآدب بها وأجاد
الشعر ومدح ملوك الدولة الأيوبية وزار مصر ومدح الناصر محمد بن قلاوون
ومات ببغداد سنة ٧٥٠ هـ

خلع الربيع على غصون البان^(١) جلالا فواضلها على الكشبان^(٢)
ونبت فروع الدوح حتى صاغت كفل^(٣) الكتيب ذوائب^(٤) الأغصان
وتخرجت هام^(٥) الغصون وضرجت^(٦) خد الرياض شقائق النعمان^(٧)
وتنوعت بسط الرياض فزهرها متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق^(٨) وأصفر فاتح^(٩) أو أزرق صاف وأحمر قان^(١٠)
والظل يسرق في الخسائل خطوه والغصن يخطر خطرة النشوان^(١١)
وكأنما الأغصان سوق روائص قد غدت بسلال الريحان
والشمس تنظر من خلال فروعها نحو الحدائق نظرة الغيران
التعليق والتقد: ألفاظ الأبيات وأساؤها مناسبة لوصف الطبيعة الجميلة
والمعاني قوية، وليس فيها ابتكار، وفيها الكثير من الجمال الفني والاستعارات
والتشبيهات،

ففي قوله: خلع الربيع، كفل الكتيب، وهام الغصون، وخذ الرياض
والظل يسرق، والشمس تنظر (استعارات).
وفي قوله: يخطر خطرة النشوان، وكأنما الأغصان، والشمس تنظر
نظرة الغيران، صور تشبيهية جميلة.
غير أنه يؤخذ على الشاعر وصفه لسوق الرواقص بأنها مقيدة بسلال
الريحان وأنى يتأتى الرقص مع القيد ؟

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------|
| (١) البان : شجر | (٢) الكشبان : تلال الرمل |
| (٣) الكفل : المعبر | (٤) الذوائب : الفروع |
| (٥) الهام : الزموس | (٦) ضرجت : صيفت |
| (٧) شقائق النعمان : نوع من الزهر | (٨) اليقق : شديد البياض |
| (٩) الفافع : الشديد الصفرة | (١٠) القاني : الشديد الحمرة |
| (١١) النشوان : السكران | |

٣ - الفخر والحماة :

ظهر الفخر في التنافس الذي كان بين الشعراء كما ظهر في الانتصارات التي كسبها المماليك ضد التتار والصليبيين .

وهذا مثال من شعر محي الدين بن عبد الظاهر في حرب التتار^(١) :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأننا لانطبق لهم غلبا
وجاءوا إلى شط الفرات ومادروا بأن جياذ الخيل تقطعها ونبا
وجاءت جنود الله في العدد التي تميم لها الأبطال يوم الوغى عجا
فعمنا بسد من حديد سباحة إليهم فما استطاع العدو له نقبا
هذا غر هزيل ، فأى قوة تبدو في تجمع جيوش الشرك وفي ظنها أنها
لا تغلب ، وفي مجيئها إلى شط الفرات ، وفي عدم عليها بأن خيولنا تقطع
المسافات إليها متوبة ، وفي مجيء جنود الله في عددها التي تعجب لها الأبطال
يوم الحرب ، فإين هذا عما درست في العصور الماضية من ألوان الفخر ؟
ثم إن الشاعر يفخر بالعدد التي جاءت فيها جنود الله ، ولم يفخر بالقوى التي
يبقى أن تكون موضع الفخر ، كما أنه يفخر بأن الجيوش العربية سالت
كأنها سد من الحديد لم يستطع العدو نقبه ، فيكشف عن هجوم العدو ، ولم
يكشف عما فعلت جيوشنا ، اللهم إلا الثبات الذي لم يستطع العدو زعزعته
وكانهم قنعوا بهذا المرقف .

٤ - الغزل :

أفاض الشعراء في الغزل في المرأة والفلان مقلدين من سبقهم ويبدو
في غزلهم التكلف وكان شئون الحياة شغلهم عن النواحي العاطفية ، أو كان
طابع التكلف الذي انتم به العصر قد غلب كل شيء حتى عواطفهم فأخضعها
وهذا نموذج للشاب الظريف^(٢) .

(٢) تقدم التعريف به

(١) يأتي التعريف به في نماذج الشعر

لا تخف ما فعلت بك الأشواق وأشرح هواك فمكلنا عشاق
فمسي عينك من شكوت له الهوى في حملة فالعاشقون رفاق
لا تجزعن فلست أول مغرم فتسكت به الوجنت والاحداق^(١)
كم ليلة أسهرت أحداق بها وجدا وللأسكار بي إحداق

التعليق : يطلب الشاعر من المدهوق ألا يخفي شوقه وأن يشكو لمن
من يشكو إليه يساعده في حمل حبه ، فالعشاق رفاق القلوب ، ثم يطلب منه
ألا يجزع ، فليس هو أول محب قتل ، فكم ليلة سهر طرف الشاعر فيها
والأفكار محدقة به .

ليس في الآيات قوة للعاطفة التي لابد منها في هذا اللون ، وفي البيت
الأخير جناس بين أحداق وإحداق .

ويؤخذ على الشاعر قوله (الأفكار محدقة بي) حيث لم يقل أصنتني
أو قتلتنى فقد تحدى به فتزعزع ولا تضنى أو تقتل .

ومن غزلهم بالذكر قول ابن عبد الظاهر في غلام اسمه نسيم وفيه اقتباس
إن كانت العشاق في أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو عليهم (ليتنى كنت اتخذت مع الرسول سילה)
وليس من المعقول أن يتغزل ابن عبد الظاهر وله مكاتبة في غلام ثم يذاع
عنه هذا الشعر ، وإن كنهه حب الخوض في جميع أغراض الشعر حتى في الغزل
بالمذكر وإن لم يسم بمذكر ، وهذا تكلف غير سائغ .

هـ — السياسة — العصبية — الهجاء :

هذه الألوان تحملها قصيدة صفي الدين الحلي في رده على ابن المعتز
في القصيدة التي يفضل فيها بني العباس وفيها يقول ابن المعتز :

(١) الاحقاق جمع حدة وهي سواد العين .

ونحن ورثنا ثياب النبي فكم تجذبون بأهدابها
لكم رحم يا بني بنته ولكن بنو العم أولى بها

فقال عنى الدين يعارض ابن المعتز فى قصيدة منها :

ألا قل لشر عبيد الإله وطاغى قريش وكذاها
وباغى العباد وباغى العناد وهاجى الكرام ومقتابها
أأنت تفاخر آل النبي وتمجدهما فضل أحبابها ؟
أعنكم نقي الرجس أم عنهم بطهر النفوس وألبابها ؟
أم الرجس والخمر من دأبكم وفرط العبادة من دأبها ؟
وقلت ورثنا ثياب النبي فكم تجذبون بأهدابها
وعندك لا يورث الأنبياء فكيف حظيم بأثوابها
وقولك أتم بنو بنته ولكن بنو العم أولى بها
بنو البنت أيضاً بنو عمه وذلك أدنى لأنسابها

التعليق : أبرز الشاعر شيئاً من الصناعة فى القصيدة .

فبين باغى وباغى جناس الأول من البقى والثانى من اطلب وبين عباد
وعناد جناس كذلك ، وقوله « أعنكم نقي الرجس » يشير إلى قوله تعالى
(ويذهب عنكم الرجس أهل البيت) من سورة الأحزاب ثم ندد بالعباسيين
لاستباحة بعضهم شرب الخمر .

و « عندك لا يورث الأنبياء » يشير إلى الحديث « نحن معاشر الأنبياء
لا نورث » .

وقوله « بنو البنت أيضاً بنو عمه » يرد فيه بأن هؤلاء أبناء عمومة إلى
جانب أنهم بنو بنته وذلك أقرب للنسب . هذا فضلاً عن أن استعمال لفظ
« أيضاً » فى الشعر قلق وغير مستقيم ، لأنها - كما قالوا - لفظة غير شعرية .

٦ - الرثاء :

قلد الشعراء في هذا العصر من سبقوا من الشعراء فبكوا وعددوا مناقب الموتى ونادوا القبور واستمطروا الرحمت على ما كتبها .

كما رثوا الممالك الزائلة حينما سقطت بغداد شأن شعراء الأندلس حين أخذت تتساقط مدنها ووقف شعراؤها يذرفون الدمع ويذكرون الإجماع ويستعجبون ،

نموذج لابن نباتة يرثى ابنه :

الله جارك إن دمي جار يا موحد الأوطان والأوطار^(١)
لما سكنت من التراب حديقة فاضت عليك العين بالأنهار
شتان ما حالى وأنت في غرف الجنان ومهجتى في النار
خف النجا بك يا بنى إلى السرى^(٢) فسبقتى وثقلت بالأوزار^(٣)

التعليق : حق في الرثاء والنفوس المنعمية بالحزن ترى الشاعر يزخر شعره بالصناعة .

(جارك وجارى) وأوطان وأوطار بين ذلك جناس (أنت في غرف الجنان ومهجتى في النار) مقابلة (وخف وثقل) جناس ، وغريب قوله (سكنت من التراب حديقة) إنه يقصد أن قبره صار حديقة به ، ولكن العبارة لا تؤدى ذلك .

وأخيراً لا نكاد نحس في هذا الرثاء عواطف الألم والحزن التي تصف بالنفوس في مثل الموقف ، وإن كان ذكر الدمع الجارى والميت الذى تفيض بالأنهار . وأين هذا من قول ابن الرومي في رثاء ابنه :

(١) الأوطار . الآمال (٢) السرى . سیر الليل (٣) الأوزار . الذنوب

بكاؤكما يشق وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندي
وهذا نموذج في رثاء بغداد لشمس الدين عمود الكوفي يقول :

إن لم تفرح أدمعى أجفاني من بعد بُعدكم فاجفاني
يا ليتنى قدمت قبل فراقكم ولساعة التوديع لا أحياني
ما لي وللأيام شئت خطبها شملي وخلاني بلا خلان
ولقد تصدت الدار بعد رحيلكم ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم فتكلمت لكن بغير لسان

التعليق :

قال الشاعر شعراء الأندلس في مرثيتهم ، ولكنه لم ينس الصناعة في هذا
الموقف الدامي ، ففي البيت الأول جناسان (أجفاني ، أجفاني) و (بعد ،
وبعد) وفي البيت الثالث خلاني ، خلان (جناس) والأسلوب سهل يكاد
ينزل إلى العامة . والأفكار والمعاني لا قوة فيهما وليس في الآيات عاطفة
قوية ، وهذا موقف يثير عواطف كل ذي حس ، ملك يزول وعشرات
الآلاف يقتلون ، ودور ومساجد تدمر ، وحضارة تدمر ، ثم لا ترى
العاطفة الجياشة بالدمع والالام تصور هذه المآسى تصويراً باكياً مبكياً .

لأنه الضعف الذي لم يمكنه من الترجمة عن عاطفته في قوة أو لأنه تكلف
الصناعة الذي أنساه عاطفته .

٧ - الشعر الفكاهي :

كثر الشعر الفكاهي في هذا العصر لأن الشعراء أرادوا تسلية نفوسهم
عما تعانيه ، وهذا نصير الدين الحامي يصف داره المهتمة فيقول .

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق ما بين أني أكون بها أو أكون على القارعة

وأخشى بها أن أقم الصلاة قدسجد حيطانها راكمه
إذا ما قرأت ، إذا زلزلت ، خشيت بأن نقرأ ، الواقعة ،

وبعد كل هذا نقول : لم يدع شعراء هذا العصر لو تألم يقرؤوا فيه اللهم
إلا شعر الفلسفة . لأنه يحتاج إلى فكر عميق ، وشعراء هذا العصر كما قلنا
لا يميلون إلى التعمق .

المدائح النبوية

تجلت المدائح النبوية في شعر هذا العصر حتى لا نكاد نجد شاعراً بعد
عهد البوصيري لم يمدح النبي ﷺ على نهج البردة أو على غير نهجها .

وقد يكون سبب رواج هذا اللون هو الشعور الديني القوي الذي هيمن
على المجتمع شعوراً وصل حد التعصب ، وتجلي في حرب التار والصليبيين
الذين كانوا يهدفون إلى القضاء على الإسلام فدفعت الغيرة الدينية الشعراء
إلى هذه المدائح النبوية .

هذا إلى جانب غرام الشعراء بالبردة ، أو بمنافسة صاحبها فعارضوها
أو نهجوا نهجاً آخر أملاً في سبق البوصيري في هذا الميدان .

هذا إلى كثرة المظالم واستبداد الأمراء والحكام ، وفي مثل هذا الموقف
يفزع الضعفاء أو المستضعفون إلى التوسل بالرسول طمعاً في أن يخفف الله
عنهم ما هم فيه ، ولهذا كثرت المدائح النبوية في أواخر أيام المسلمين بالاندلس
ولهذه الأسباب مجتمعة كثرت المدائح في مصر والشام ، وكان إمام المادحين
البوصيري ، وقد تأثر في بردته بابن الفارض في قصيدته التي يقول في مطلعها :

هل نار ليلي بدت ليلاً بنى سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم
أرواح نعمان هلا نسمة سحراً وماء وجرة هلا نهلة بقم ؟ ؟

فقال البوصيري في مطلع برده :

أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من سقاة بدء
أم نبت الريح من تلقاء كاطمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
ومن مدائح البوصيري غير البردة الحمزية التي مطلعها ، .

كيف ترقى رقيق الأنبياء ياسمياء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علانك وقد حال ل سنا منك دونهم وسناء

وتبلغ الحمزية (٥٠ بيتاً) ولم يفقدوها الطول الإجابة وقد شطرها
ونحسها العشرات من الشعراء ، ومن مدائحه (ذكر المعاد) التي عارض بها
ديانته سعاد ، لكعب بن زهير قال في مطلعها البوصيري :

إلى متى أنت بالذات عصفول وأنت عن كل ما ندمت مشغول

معارضة البردة :

عارضت البردة عشرات من الشعراء وليس ثمة قصيدة في الشعر العربي
خطبت بما خطبت به البردة من المعارضات وعن عارضها في عصر المماليك
ابن حجة الخوري ، قال :

في فؤادها مدحكم يا عرب بندي سلم براعة تسيل تهمع في العلم
ومعارضها صفى الدين الخلي فقال :

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم وأقر السلام إلى عرب بندي سلم

النثر في عصر المماليك

ينقسم النثر إلى قسمين : الخطبة والكتابة .

الخطابة

لم يبق للخطابة شأن في الشرق بعد العصر العباسي الأول حيث ذهب ما يستدعيها من تأييد الملك أو الرد على الثأرين الخارجين .

وبقي لها مظهرها الديني لحسب في الجمع والأعياد .

وقد ضعفت الملكات الخطابية . فوضع الخطباء الخطب موزعة على المناسبات وتناقلها الخطباء وقد أدخلت معانيها . فأصبحت تدور حول الجنة والنار والصراط والخطاب وظير الوعظ القصصى ، وانتقلت هذه الصورة من العصر العباسي الثاني إلى عصر المماليك .

وليس للخطابة من الخطب الدينية مجال سوى خطب مبايعات الخلفاء والسلاطين ، وعند الاحتفال بقدوم وفد من إحدى البلاد ، والمناظرات والمجادلات التي كانت تحدث بين العلماء في مذهب أو رأى كما حدث بين ابن تيمية وخصومه من المناظرات بسبب فتاواه لدينية ، أما الخطابة السياسية فلم يكن لها مجال .

ولم يوجد في هذا العصر من يستطيع أن يجال الخطبة إلا خطيب المسجد الجامع بدمشق لأنه كان يختار للخطابة فيه كبير القضاة أو أحد كبار العلماء أما بقية البلاد ففي الخطب المدونة متسع في مصر وفي العراق الذي كانت له رياسة النحور حيناً . هذا في البلاد التي تكثر فيها العناصر العربية ، أما البلاد التي تكثر فيها العناصر الآرامية فتلقى الخطبة بالنعربية إتماماً لشروط الجمعة ، ثم تترجم معانيها بعد الصلاة إلى الفارسية أو التركية حسب لغة العنصر الغالب

وقد ظهرت دواوين الخطابة موزعة على الجمع والمناسبات كديوان
الشيخ إبراهيم النعاس خطيب الأزهر المتوفى سنة ٨١٤ هـ والشيخ زكريا
الأنصاري شيخ الإسلام المتوفى سنة ٩٢٦ هـ .

وتسير هذه الدواوين جميعها على نسق واحد ، وهي مطبوعة .

نموذج

من خطبة متبرية حينما بايع السلطان بيبرس الخليفة الحاكم بأمر الله
وفيها وصف الخطيب جرائم التتار ، وحض الناس على قتالهم :

والخذق الذي أقام لآل العباس ركناً وظهيراً ، وجعل لهم من لدنه
سلطاناً نصيراً ، أحده على السراء والضراء . . . اعلّموا أن الإمامة فرض
من فروض الإسلام ، والجهاد مخموم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد
إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سبت الحرم إلا باقتهاك المحارم ، ولا ستمتكت
الدماء إلا بارتكاب الآثام ، فلو شاهدتم أهل الإسلام حين دخل التتار
دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأطفال ،
وهتكوا سرهم الخلافة والحريم ، وأذافوا من استبقوا عذاب الآثام ،
فارتفعت الأصوات بالبكاء والعريل ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليرم
الطويل ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل لم يرحم ليكائه
فسمروا ساقى الاجتهاد في إحياء فروض الجهاد . . الخ .

التعليق : هذه خطبة جمّة إلا أنها تدعو إلى الجهاد المفروض في مثل
هذا المرقف ، وقد صرر الخطيب ما حدث في بغداد من استباحة الأموال
وقتل الناس ، وقصد الخطيب التحريض على قتال التتار ، وأسلوب الخطبة
سهل راعى الخطيب فيه السجع شأن النثر في هذا العصر .

الكتابة

تنقسم الكتابة إلى نوعين : الأدبية أو الإنشائية - كتابة التدوين .

١ - الكتابة الأدبية :

أدت الكتابة الأدبية في هذا العصر رسالتها من حيث إنها سدت حاجة الدواوين وسجلت حياة العصر بكل ما فيه

ولكن أسلوبها انحدر عن مستواه في أواسط العصر العباسي ، وحاكى أسلوب العصر العباسي الثاني ، الذي عنى فيه الكتاب وزعيمهم (القاضي الفاضل) بالصناعة اللفظية ، وقد سلبت للقاضي صناعته إلى حد ما : لملكته اللغوية وثروته الأدبية وثقافته الواسعة

أما طريقة ذاتها فليس فيها جمال : لأنها التزمت السجعات الطويلة المتكررة الفقرات ، ولأنها بنيت على التزام المحسنات من نورية واستخدام وجناس وطباق وتضمنين ، وقد جرى كتاب عصر المماليك اتقاضى الفاضل في طريقته وأسلوبه ، ولكن كتابهم ضعف شأنها للتكلف ، ولعدم وجود ملكات قوية ، واضعف ثروتهم الأدبية واللغوية والثقافية

ولهذا كله ستروا ضعفهم وراء زخرف المحسنات ، فكل كتابانهم مليئة بالسجع المهمل الفقرات ، والنورية المستعمية ، والجمع والتفريق المزدول ، واللف الذي يجه الذوق ، وبذلك جنى الكتاب على الكتابة حين طفت الالفاظ بزخارفها على المعاني ، وأصبح عم الكتاب منصرفاً إلى تركيب المحسن ، ومن ثم جاءت الكتابة مبهمة غامضة نتيجة للتقديم والتأخير والحذف الذي يفعله الكتاب ليتحقق له المحسن الذي يريده ، وقد يكون مرجع الانحطاط إلى أولئك النقاد الذي تحكروا في توجيه الأدب في هذا العصر ، وعولاه أغرموا بالصناعة وبتمديد أصحابها ، ولاسترضاء هؤلاء عمد الكتاب إلى ما يحبيهم في أديهم .

وَمُ يُخرج على هذا الطابع الذى كان لأسلوب الكتابة للكتابة سوى
ابن خلدون فى أكثر كتابته حيث سلك جانب السهولة والبعد عن الصناعة ،
وثار عليه الكتاب فلم يابه بثورتهم ، وغالى كتاب العصر فى بعض خواص
كانت للكتابة من قبل ومن أهمها :

١ - الألقاب :

غالى الكتاب فى الفروق بين الألقاب فجعلوا لذلك ألقاباً وللوزير
ألقاباً وللإلى ألقاباً وللقائد ألقاباً بحيث لا يتجاوز الكاتب ألقاب المنصب
إلى غيرها .

٢ - التورية بمصطلحات العلوم :

كثرت التورية بالمصطلحات العلمية فى هذا العصر لنشاط الحركة العلمية
وحركة التأليف .

٣ - التضمين :

ضمن الكتاب كلامهم بكلام من سبقهم من الشعر أو النثر أو الحكم
أو الأمثال .

٤ - الإطناب :

أطال الكتاب فى رسائلهم فى الألقاب والأدعية والموضوع والختم .

أغراض الكتابة

١ - الرسائل الديوانية : رعى الرسائل التى تصدر عن ديوان الإنشاء
فى أمر من الأمور : ومنها رسائل الملوك إلى الولاة أو القواد أو الشعب
كإعلان التعبئة أو الأمر بالزحف ، ومنها العهود بولاية العهد ، والأوامر
بإسناد قيادة أو منصب قضاء .

٢ - الرسائل الإخوانية : مكاتبات الشوق أو الاعتذار أو التهنية أو التعزية

٣ - المقالات : ما يكتب في وصف منظر أو في حادثة أو موضوع :
وبعضهم جمع ما كتب في كتاب كابن حجة في كتابه (ثمرات الأوراق) .

٤ - القصة : ما يقص فيها أخبار أو حكايات مثل (ألف ليلة وليلة)
ويقص هذا الكتاب حكايات تصف أحوال الأمم العربية والإسلامية
في عصور متعددة ومنها عصر المماليك . وفيها خيال وكثير من الأساطير .
ومن القصص التي وضعت أيضاً في هذا العصر قصة عنترة ، وسيف ابن
ذى يزن ، والظاهر يبرز في حروبه مع الصليبيين ، وأبي زيد الهلالي .
وغلبت على أساليب بعض هذه القصص (العامة) .

٥ - المقامات : هي قصص قصيرة تعتمد فيها الكتاب إظهار المحسنات
وتفننوا في التصوير وتأنقوا في التعبير ماشاء لهم بينهم .

ومن كتاب المقامات في هذا العصر زين الدين بن الوردى وله مقامات
أودعها كتابه (صفو الرحيق في وصف الحريق) تناول فيها حريق دمشق
سنة ٧٤٠ هـ ومنهم السيوطي ومن مقاماته الوردية (مناظرة بين الورد
 وأنواع الزهر) كل يدعي أنه المتوج عليها .

نماذج الكتابة

في عصر المماليك

الكتابة الأدبية :

١ - نموذج من التورية بمصطلحات العلوم من كتاب للقاغنى محي الدين
عبد الظاهر : د حرس الله نعمة مولاي ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله
وحرف قلبه يأنلف . ومنادى جوده لا يرخم : وأحد عيشه لا ينصرف . .
التعليق : ورى الكاتب بالإسم والفعل والحرف والنادى والممتنع
من الصرف والكلم .

٤ - من كتاب نسيم النصارى للإمام ابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ قال : هزة : رياح الأمل البسيط إلى استطاء (١) ثبح (٢) البحر المحيط ، فأثبت منينة يطيب للسفر مشواها (٣) وركبت فيها باسم الله بحراها ومرساها .

فبينما نحن في البحر في قاموسة (٤) كتب الجو حروف الغيم في طروسه (٥) وثارت ريح عاصف ، يتبعها رعد عاصف (٦) فالت بنا الفلك واضطربت ، ودنت شفتها من شفة الماء واقتربت ، واستمرت ترفع وتخفض ، وتقرب وترفض وتعلو كالأطواد ، وهم في كل واد ، وتحوم وتحول ، وتجور وتجول (٧) وتضرم في الكبود نار تاجر ، إلى أن بلغت القلوب الحناجر (٨) .

ألا فارجه واخشه إنه هو البحر فيه الغنى والغرق
ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرار ، وأمر الجارية (٩) بحمل العبيد إلى بعض الجزائر فلم يدر إلا ونحن تجاه جزيرة ، تسر النفوس بحاسنها الغزيرة (١٠) فانحدرت عاصيا إلى بنينا ، نائبا عن السفينة وساكنها فوجدتها مخضرة الأفنان (١١) الخ

(١) ثبح : أوسط الشيء ومعظمه (٢) السفر : المسافر والمثوى الإقامة

(٣) القاموس : معظم البحر وفيه تورية (٤) الطروس جمع طرس :

الورق ، وفي كتب البحر استعارة مكنية (٥) بين عاصف وقاصف جناس ناقص

(٦) بين (تحوم وتحول ، تجور وتجول) جناس ناقص

(٧) بين تاجر وحناجر جناس ، وتاجر كل شهر من شهور الصيف ، وبلغت

القلوب الحناجر كناية عن العشق وفيه اقتباس (٨) في الجارية تورية (السفينة

أو المرأة) (٩) بين جزيرة وجزيرة جناس (١٠) الأفنان : الأغصان

تعليق : لقد جرى هذا الكتاب كتاب الأندلس في وصف الطبيعة فهو يعصف رحلة بحرية على ظهر سفينة عرض فيها لمظم البحر ، وتلبث الجو بالقم وثورة الريح وقصف الرعد ، واضطراب بين ارتفاعها كالطود وبين إسفافها وحيرتها في تخدر وفي هذا الموقف تضطرب الأكباد وتضيق النفوس ، وبعد أن برع الكاتب في وصف هياج النفس وهياج البحر والجو ضمن كلامه بالبيت وفيه انه ونشر =

نماذج

من الشعر في عصر المماليك

من همزية البوصيرى :

- ١ - كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
- ٢ - لم يساورك في علاك وقد حال سنا منك دونهم وسناء
- ٣ - إنما مثلوا صفاتك للناس من كما مثل النجوم الماء

(١) بدأ البوصيرى في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الاستفهام الذى خرج عن حقيقته إلى الاستبعاد فبعد أن يسمو نبي من الأنبياء إلى منزلتك لأنك السماء لا تطاولك في علاك سماء ، فإذا لم توجد سماء تطاولك فكيف يطاولك نبي .

(٢) والأنبياء جميعاً في علو ، غير أن علوك ما ساواك فيه أحد منهم ، وأكد بهذا المعنى الذى ذكره في صدر البيت الأول ، وزاد عليه أن ضوءه حال بينهم وبين السموات ، كأنما أعشاشهم عن التقدم أوراغهم جلال ضوءه ، فوقوا كما صدم عن المعنى شرفه العالى الذى انقطعت دونه جهودهم .

(٣) إن هؤلاء الأنبياء بمثلوا الدنيا للصفات العظيمة التى انطوت عليها نفسك من البر والرحمة ونصرة المظلوم فكيف يتساوى بك من مثلك =

= بين الغنى والرجاء والفرق والخشية ثم صور انفراج الضيق وسكون الثورة ومضى السفينة إلى الجزيرة المحضرة الأكفاف

كل هذا فى أسلوب جميل وخيال طلق حتى تكاد من روعة التصوير تلس بين ثانياً العبارات الخوف والفرح واضطراب الأكباد وضيق النفس

الذمة : ما طاولتها ، ما سمت إلى مطاولتها ومناقبتها فى العلوسماء . التى بالقصر ، الضوء ، والبناء بالمدا الشرف والرقعة

- ٤ - أنت مصباح كل فضل فاته در إلا عن ضوئك الأضواء
- ٥ - لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لآدم الأسماء
- ٦ - لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء
- ٧ - مامضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء
- ٨ - تقاها بك العصور وتسمو بك عليها بعدها عليها

= ومعنى تمثيل الأنبياء لصفات النبي غريب، ولهذا قربه بذلك التشبيه المحسوس صورة النجوم في الماء ولا يستطيع أحد أن يقول عن صورتها إنها نجوم حقيقة تسبح في الماء وفي البيت تشبيه تمثيل .

٤ - وأنت نور كل كمال فكل أضواء الكمال تمدها أنت بضوئك كما تمد الشمس الكواكب (أنت مصباح تشبيه)

٥ - يشير إلى قوله : وعلم آدم الأسماء ، فأنه علم آدم أسماء العلوم فحسب أما أنت يا محمد فقد علمك عالم الغيب العلوم ذاتها .

٦ - سلسلة نسبك مصطفاة من آدم إليك ، وهذه السلسلة امتدت في خاطر الوجود من زمن إلى زمن ، ومن حلقة إلى حلقة ، وكلها قوية مختارة حتى انتهت إليك .

٧ - على فترات من الرسل بشر الأنبياء قومهم بك فمكنت البشارة التي حملها الرسل إلى أقوامهم

٨ - والعصور التي بشر بك فيها تفخر على غيرها ، والعصور القريبة من بعثك تفخر على ما سبقها لأنها قريبة من عهدك فتسمو بك عليها وبعدها عليها أخرى تسمو بك فكان التبشير بك والقرب من عهدك موضع مباهاة .

- ٩ - موج قوم جفوا نقياً بأرض الفتنة رضاءها والظباء .
 ١٠ - وسلوه وحن جزع إليه وقلوبه ووده الغرباء .
 ١١ - وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحامة الحصداء .
 ١٢ - واختفى منهم على قرب مرآة ومن شدة الظهور الخفاء .
 ١٣ - سيد ضحكة التبسم والمثلى الهوينى ونومه الإغفاء .

٩ - وانطلق الشاعر حقاً بلغ موقف قوم محمد عليه الصلاة والسلام منه حين كذبوه ، وعذبوه ، وجفوه يشير إلى مقاضعة قريش لبنى هاشم ، والباء في قوله بأرض على معنى في ، وقد جفته قريش على حين ألفته زواحف الصحارى وحيواناتها (يشير إلى معجزاته) بين الجفوة والألفة طباق ، وقد يكون في البيت مقابلة (جفاه من طبعه الإيتناس وألفه من طبعه التفار) وبين الضباب والظباء مراعاة نظير فهي زواحف من حيوانات الصحراء .

(١٠) وصدوا عنه وفي قلوبهم ضعف عليه ، ومال الجزع وفيه حنين إليه ، في هذا مقابلة وفيه إشارة إلى إحدى معجزاته (جفاه الأقرباء وأحبه الغرباء) مقابلة (١١) وتكلم عن الهجرة ، وما فعلت العنكبوت في دفاعها حين سترته بنسجها عن الأعداء ، ولم تستطع الحامة ذات الريش الطويل أن تواريه ، وهكذا سخر الله العنكبوت لصد الظالمين النافرين .

(١٢) وقد واره الله عن الأعداء على الرغم من قربهم منهم . والشديد الظهور قد لا يلتفت إليه فقريش لم تتصور أن هذا الغار المفتوح يمكن أن يختفى فيه وإنما يختفى في الكهوف الضاربة بين الصخور .

(١٣) تكلم عن صفاته عليه الصلاة والسلام عن ضحكه ومشييه ومرحاه =

اللفظة الضباب : (بكسر الضاد) جمع ضب من الزواحف - القلى (بكسر القاف) : الجفاء ، الحامة الحصداء ، الكثيرة الريش .

الهوينى : المشى فى تودة - الإغفاء : النوم الخفيف - الإغضاء : السكرت على الشيء .

- ١٤ - ماسوى خلقه النسيم ولا غير محياه روضة غناء
١٥ - رحمة كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وحياء
١٦ - كرمت نفسه فما يخطر له وه على قلبه ولا الفحشاء
١٧ - جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء

= فليس محمد بمن يملئون صدورهم بالقهقهة ، ولا من ضاربي الأرض
بأرجلهم كبراً ، ولا بمن يستغرقون في نومهم

١٤ - وليس النسيم الذى تحس رفته غير خلقه ، والروضة الغناء التى
تشع البهجة فى الأرواح هى محيا وجهه (فى البيت تشييان)
(١٥) ثم عدد من صفاته الرحمة : والعزم ، والحزم ، والوقار ،
والعصمة ، والحياء : بل هو كل ذلك .

(١٦) وقد عظمت نفسه عليه فلم يورطها فى سوء ولا فاحشة بل لم يخطر
على نفسه هذا ولا تالك

(١٧) وقد سكبت على حق قومه وجهلهم ، وملازم الحلم ديدنه الإغضاء
عن هفوات الناس .

إلنقد : رق أسلوب البوصيرى فى همزيته حتى لا تكاد ترى كلمة غريبة
وقد أضفت عليها موسيقى الوزن رقة أخرى - ولعل سمو موضوع القصيدة
وكلف البوصيرى بمقام التبرة لهما دخل فيما نحسه جبالها من اهتزازات
نفسية وفى البيت الثالث تصوير جميل .

وقد أكثر الشاعر من ذكر الحقائق وهذه لا مجال فيها للعاطفة - حيث
تضمنت الآيات التى سقناها الإشارة إلى معجزاته عليه الصلاة والسلام ،
ولم يد الخيال إلا فى البيت الثالث .

لابن نباتة

٢ - كتب ابن نباتة ردأ على عتاب صديقہ صفی الدین الحلبي من قصيدته التي مطلعها :

من لصب أدنى البعاد وفاته . منذ دعاه وحصل الحب وفاته
فقال ابن نباتة (١) :

- ١ - ما نظى الخي إليه التفاته بعد ما كدر المشيب حياته
- ٢ - طمع بالهوى وإن نضرت أيدي الليالي غزاله ومهاته
- ٣ - كلما قيل قد سلا عن فتاة عاده الحب قامتجد فتاته

المعنى وبيان الصور البيانية :

١ - بدأ القصيدة بالنديب فقال : لقد عكر الشيب على حياة الحب الصافية التي كنت أحيها . فلم أعد أنعم بما كنت أنعم به ، ولم يعد الحبيب يسعدني بنظرة أو التفاته

(٢) وقد أغريت بالحب أو يتحرك لساني ويتحدث عن الحب وإن نقر الزمان عنى الحيف الحسان لأنني شبت

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله . فليس له في ودهن نصيب
في أيدي الليالي استعارة ، غزاله ومهاته مراعاة نظير .

(٣) وكلما قال الناس إنه سلا الحب ، وبعد عن الفتيات عادنى الحب فتملقت بفتاة جديدة .

اللمة : طمع بالنسي . أغرى به أو تحريك اللسان ، الميأة البقرة : الوحشية .
الفرير ، الحسن . حال استطال وعلا ، رقى . نظر .

(١) جمال الدين بن نباتة بفتح النون . ولد بالقاهرة في عصر المماليك وينسب إلى ابن نباتة الخطيب ، وقد تأدب بالقاهرة ونبغ في الشعر وتردد بين القاهرة وانشام بمدح وكان كثير الشكوى من الزمن ويمتاز شعره بالرفة وعنى بالصناعة وبخاصة النورية

- ٤ - بأبي فائر اللحاظ غرير رام تشبيهه الغزال فقاته
- ٥ - صائل الحسن إن رنى وثنى سل أسيافه وهز قناته
- ٦ - هات كأمى وإن لحنت من المـ كـر فلا تلحنى إذا قلت هاته
- ٧ - أنا فرع عن النبات إذا ما هجرته السقاة عاف عاته
- ٨ - أنبتته نعمى الصنى وأحيت ذكر أسلافه فهزت نباته
- ٩ - ناظم يشتكى الوليد قصوراً حين تلو رواه أياته

(٤) وبأبي أفدى ذلك السقيم اللحن الجليل الذى إذا أراد أن يشابه الغزال سبقه حسنا .

- ٥ - وإن حسنه يستطيل ويعلو كل حسن فى نظراته القاتلة ، وقوامه المياض وفى البيت لف ولشر مرتب (رنى وثنى سل أسيافه وهز قناته) فلا سياف للنظرات والقناة ، للثنى والأسياف كناية عن النظرات ، والقناة كناية عن القوام
- ٦ - إنه يطلب الكأس ليشرب فيقول هاته وإن اشتد عليه الشكر ولحن فلا لوم عليه إذا أخطأ فقال هاته بالفتح والصواب هاته بالكسر
- ٧ - أنا ابن نباتة فأنا فرع من النبات ، والنبات حياته مرتبطة بالماء فأخاف الموت إذا هجرنى السقاة ، فأنا كالنبات أموت إذا حرمت الماء
- ٨ - وقد أنبتنى آلاء صفى الدين ، وأحيت ذكر آبائى الأقدمين فهزت النعمى نباته ، ونحرك وازدهر فى قوله (أنبتته نعمى الصنى) مجاز إسناد الشيء إلى غير ما هو له ، وأحيت النعمة مجاز كذلك ونباته تورية لنباته من النبات أو اسم أياه) .

- ٩ - فهو ناظم للشعر أى ناظم ، فإذا سمع البحرى على الرغم من شهرته شعره الرقيق أدرك أنه قصر ، وذلك حين يستمع من روى شعر صفى الدين تلك الأيات التى يذيعونها عنه .

اللمعة : الوليد ، البحرى ، الفرات ، العذب جدا ، القريض الشعر :

- ١٠ - من أناس كانوا إذا عزم الله ر وحامى حماه وكفاته
 ١١ - يامفيد الورى لآلىء بحر يعرف الذوق عذبه وفراته
 ١٢ - وصل العبد من قريضك بر سر أحبابه رساء عدراته
 ١٣ - رائق الكأس غير أن عتاباً ظالماً للحب كان قذاته
 ١٤ - أى ذنب لسانر نظمه عنك ومن ذا يهدى لطود حصانه

١٠ - وهو إلى جانب شعره من أسرة لها مجد ما فهم حماة الدهر وكفاته
 فى مواضع القوة والبأس

١١ - ثم مدحه بأنه يقدم للناس اللآلىء من بحره العظيم الذى عرف
 أصحاب الذوق الأدبى العظيم عذبه ، وكأنى به فى قوله (يعرف الذوق) يعرض
 ببعض الشعراء

١٢ - وقد وصلنى وأنا العبد بر من شعرك كأنما بعثت القصيدة التى
 بعث بها صنى الدين برا ، وفى قوله (العبد) إسفاف من ابن نبانة
 وفى قوله سر أحبابه رساء عدراته مقابلة معنيين بمعنىين سر يقابل ساء
 وأحباب يقابل عدراة

١٣ - رائق الكأس من إضافة الصفة للموصوف (وطالما زيادة ولكنها
 غير مضادة ، إن برك الذى وافق كان رائقاً حافياً كالكأس ، ولكن العتاب
 الذى كان كالقذى كدره

١٤ - وأى ذنب لى وقد سترت نظمى عنك ، وكيف أهدى لذلك
 الطود الشاخص حصاة ، فالطود ليس فى حاجة إلى حصاة تقوم دعائمه عليها ،
 ومعنى ذلك أن شعره يشبه حصاة إلى جانب الطود العظيم ، وكان أعظم
 لو عبر بالقطرة فى جانب البحر .

١٥ — خل هذا وانعم ياب ملك عم بالعدل والنوال عفاته

١٦ — زوجتنا حماة نعتى يديسه فقدا كنا يحب حماه

٢ — من النثر في عصر الماليك

١ — من كتاب نسيم الصبا للامام مالك بن حبيب الحلبي (٤) المتوفى سنة ٧٧٩ قال :

هو نسي رياح الأمل البسيط إلى امتطاء نيج^(١) البحر المحيط فأبنت سفينة يطيب للسفر^(٢) مشواها وركبت فيها بسم الله بجرأها ومرساها .

(١٥) ثم انتقل إلى الحديث عن الملك صفرة فقال : خل مانحن فيه من حديث ، وانعم بقربك من باب ذلك الملك العظيم الذي عم عدله وعطاؤه ، وفي هذا نقد حيث إنه لا يعطى إلا للعتاة السائلين ، وكان أجدر به أن يقول عم الفقراء نواله دون أن يخص العفاة .

(١٦) وقد أعطتنا حماة ، وأمدتنا بذهمة فأصبح كل منا يحب حماه وفي زوجتنا استخارة . وفي قوله حماه تورية بحماه المدينة التي يقيم فيها الملك أو حماه وهي أم الزوجه .

اللفظة : العفاة : السائلون . حماة : مدينة في سوريا ، والحماة الثانية أم الزوجه .

(٥) عاش ابن حبيب في عصر الماليك وعن أكثر إمامي في دراسته بالأدب والتاريخ وكان أديباً مؤرخاً وأشهر مؤلفاته في الأدب كتاب (نسيم الصبا) وتوفي سنة ٨٨٩ هـ

(١) نيج ، وسط البحر ومنظمه

(٢) السفر بكون الفاء المسافر ، المشى المنزل

فبينما نحن من البحر في قاموسه (١) كتب الجوز حروف النسيم في طروسه (٢) وثارت ريح عاصف ، يتبعها رعد قاصف (٣) فالت بنا القللك واضطربت ، ودات شفتها من رشف الماء واقتربت ، واستمرت ترفع وتخفض ، ونشوب وترفض ، وتعلر كالأطواد ، ونهيم في كل واد نحوم ونحول ونجور ونجول (٤) وتضرم في الكبود نار فاجر ، إلى أن بلغت القلوب الحناجر (٥) .

ألا فارجع واخشمه إنه هو البحر فيه الغنى والغرق
ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية (٦) بحمل الصبيد
إلى بعض الجزائر ، فلم ندر إلا ونحن نجاء جزيرة نمر النخوس بمحاسنها
الغريزة (٧) فأنحدرت ماضيا إلى بينها ثائبا عن التدفئة وسا كشيها ، فوجدتها
مخضرة الأفنان (٨) .

تعليق وتقد :

جاء في هذا الكتاب كتاب الأندلس في وصف الطبيعة فوصف رحلة
بحرية على ظهر سفينة عرض فيها البحر وتلبد النسيم ، وثورة الريح ، وقصف
الرعد ، واضطراب السفينة ، وفي تعبير دنت من رشف الماء مأخذ لأنها
إنما تدنو من الماء ، لا من رشفه ، وأبدع في وصف هياج البحر وهياج النفس
رائش ، بالبيت ألا فارجع وفيه ألف ونشر مرات ، ثم صور الفراج الضيق ،
وسكون الثورة ، وهذوء البحر ، ومضى السفينة إلى الجزيرة .

(١) القاموس معظم ماء البحر وفيه تورية

(٢) كتب الجوز استمارة والطرس : الورد (٣) بين عاصف وقاصف : جناس

(٤) نحوم ونحول جناس ، ونجور ونجول جناس

(٥) وبين فاجر ، حناجر ، جناس . وفاجر كل شهر من شهور الصيف ،

وفي التعبير بلغت أشخ كناية عن الضيق وفيه اقتباس

(٦) رفق الجارية تورية (٧) وبين جزيرة وجزيرة جناس

(٨) الأفنان : الأغصان

مخضلة الكلبان^(١) بها من الياقوت^(٢) ما يرجع خاشاً مناويه ، ومن الأشجار ما يحمل الفواكه والأفاويه^(٣) وبين رياضها نهر شديد الحمرة^(٤) أرضه ذهب ، وحصاؤه درر ، وأمواجه عكن^(٥) وداراته سرر .

عذب إذا ما عب منه ناعل فكأنه من ريق بنود^(٦) ينهل
لين الأديم ، مزاجه من تسنيم^(٧) ، يصقله الصبا ويعرّكه التسيم ، فكأنه
درع موضونة^(٨) ، أو مبارد مسنونة ، أو دمع يتسلل ، أو أفاع تتملل ،
أو ذوب فضة يسيل ، أو صفحة سيف صقيل^(٩) ، أو لوح بلور مرقوم ، أو رحيق
بالمك محتوم .

وكان الطيور إذ وردته من صفاء به تزق^(١٠) فراخا
إن مالت إليه العصور فالشخص ترقص في الخيال ، وإن كرت^(١١)
منه الظباء فالغيد يرشفن من ثغر أترابن الزلال ، وإن أشرقت عليه النجوم
خلته الفلك يدور في أرجائه ، وإن تجلى له البدر حبيبته قلباً خافقاً بين
أحشائه .

== كل هذا في أسلوب فيه بعض الغريب مثل ثبج ، ناجر وبقية الأسلوب
مليء بالمحسنات ، وقد التزم السجع القصير الفقرات مما جعل له وقعاً موسيقياً
أما المعاني فقوية ، والخيال طلق حتى تكاد تلمس بين العبارات الخوف
والفرغ واضطرام الأكباد جنباً تمر بالعبارات المصورة .

- (١) مخضلة : مبتلة ، والكلبان : تلال الرمل (٢) الياقوت : من الجواهر
(٣) الأفاويه : التوابل ونوافح الطيب (٤) الحصير : البرد (٥) العكن : جمع
عكنة ماتئى من لحم البطن وبين درر وسرر نجاس (٦) النود : الناعمة
(٧) التسنيم : ماء الجنة يجرى فوق الغرف (٨) موضونة : مفسوجة
(٩) الصقيل : المشحوذ (١٠) تزق : تطعم (١١) كرت : شرب

فلبث فيها مفكراً فيما رأيت من الفرج بعد الشدة ، مؤمناً بالقدر خيره
 وشره ، وحلوه ومره ، واقفاً على شكر من تجرى الفلك في البحر بأمره .
 ربما تجزع النفوس من الأمل سر له فرجة كحل العقال
 ولم أزل بها في أحسن حال ، وأرغد عيش ، وأنعم بال ، إلى أن حرك
 الله مني ما كان ما كنأ ، وأدخلني مصر بمشيتته آمناً .

التعليق والنقد :

وعف الكاتب الجزيرة كثبانها وجواهرها وأشجارها ونهرها خصباه
 وأما وجهه وداراته ، ثم ضمن بيت يحمل عذوبة النهر وتشبيهاً جميلاً ، ثم أخذ
 يصور صفحة النهر ومزجه بماء الجنة وأن الصبا تزيهه ، والنسيم يحركه . فكأنما
 هو دروع نسجت ، أو مباردسنت ، أو دمع سال سلاله ، أو أفاع تتحرك ،
 أو ففنة سالت ، أو صفحة سيف صقل ، أو لوح من البلور رقم ، وهكذا
 ثمانية أوصاف لصفحة النهر مليئة بالآخيلة في أسلوب رق كرفة الطبيعة .
 ثم صور الكاتب الغصون إن مالت على النهر بأنها الشخوص الراقصة
 والظباء إن شربت بأنها كالغيد ترشف من أنهارها الزلال (ولم يهده رشف
 الغيد من أنهارها) ثم صور النجوم إن أطلت عليه بأنها تخيل للرائي أن فلكا
 يدور في أرجائه ، والنبرد إن تجلى فاضطربت صورته في الماء بأنه قلب يخفق
 بين الأحشاء ، وهذه الصورة الأخيرة يمكن ظهورها في الماء مع اضطرابه
 أما التي قبلها فلا يتأتى صورها مع اضطراب الماء .

كل هذه صور رسمها الكاتب فافتن في رسمها ، ووضعها تحت الأنظار لوحات
 ناطقة بالجمال في أسلوب عذب جميل لولا ما يبدو حيناً من تكلف السجمات ،
 ثم ختم الكاتب بأنه فكر فيما هو فيه ، وما كان فيه من الفرج بعد الضيق
 ثم أعلن إيمانه بالقدر خيره وشره (طباق) وحلوه ومره (طباق) ثم ضمن
 بالبيت ربما تجزع ، ولم يزل ينعم بما وهبه الله حتى حن إلى مصر فنزع إليها
 ودخلها آمناً .

العصر الحديث

إلى الوقت الحاضر (١٢٢٠ هـ)

مقدمة ثانية مختمة :

يعتبر بعض مؤرخي الأدب أن النهضة الحاضرة بدؤها من الحملة الفرنسية لأنها تركت وراءها آثاراً كانت الدعامة التي ارتكزت عليها النهضة .

آثار الحملة :

عملت الحملة في عام وبعض العام ما قد تعجز عنه قرون ؛ حيث أحضر نابليون معه أساتذة وعمالاً ومهندسين ، واتخذ دور الخيالة بالدرب الجديد بالناصرية للمراقب ؛ وأنشأ مكتبة وألحق بها قاعة للمطالعة ، وأنشأ مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين ، وأصدر صحيفتين بالفرنسية وصحيفة بالعربية سماها « التنبيه » ، وأسند تحريرها إلى الشيخ الخشاب ، وكلف المهندسين فسحوا البلاد ، وورضوا الخرائط ، وأنشأ معامل للكيمياء ، وكشفت الحملة عن تاريخ مصر القديم ، ووضعت كتاب (وصف مصر) في التاريخ ، وأنشأ نابليون مسرحاً للتمثيل ، وأحضر معه مطبعة بخروف عربية وأفريقية لطبع المنشورات والصحف ، وأنشأ مرصداً ، وأنشأ المجمع العلمي المصري ، وكان به ٤٨ عضواً لدراسة الرياضيات والطبيعات والاقتصاد والآداب في مصر وقد عكف هذا المجمع منذ إنشائه على كثير من هذه الأمور التي أوضاعها وأقام نابليون الديوان الخاص بالأقضية ، ومن أعضائه المشايخ : « الشرفاوى والمهدى ، واليكبرى ، والفيومي » .

ولكل هذا اعتبرت الحملة الفرنسية بدء النهضة الحاضرة .

محمد علي

قدم مع الحملة التركية - التي طردت نابليون - (جنديا) وأقام مع فرقته ولم يزل يرقى ويتقرب إلى الشعب حتى نودي به والياً على مصر .

ومن أول الأمر اتجه محمد علي إلى الاستقلال بمصر وإدارتها عن تركيا ورأى أنه لا بد أن يعتمد استقلاله على الجيش والمال ليبنى عليهما الدولة .
ولذا كان أول همه النهوض بمصر اقتصاديا وزراعيا وتجاريا ليستغل ذلك في إنشاء الجيش الذي يريده .

ورأى الآثار التي تركتها الحملة الفرنسية ، فليس فيها حضارة وعلما فاتجه بالبعوث إلى فرنسا للاستفادة منها ، ثم اتجه بعد ذلك بها إلى إنجلترا وإيطاليا .

ولم يتجه إلى النهضة الأدبية ومن ثم تأخرت عن النهضة التجارية والاقتصادية والزراعية ؛ وإن كانت نواة النهضة الأدبية وجدت في عهد محمد علي في نشر المدارس والترجمة والمطبعة والصحف .

النهضة الأدبية وعوامل بعضها

استعادت نهضتنا الأدبية إلى الوجود تلك الأيجاد التي كانت لدولة الأدب في عصره الذهبي ، عصر الرشيد ، بل فاخرت المصور بتلك القوى العارمة في الكتابة والخطابة والشعر ، ولم تقنع بذلك التراث الكبير الذي أحياه من المعاني والأخيلة والأساليب ، بل انطلقت تجدد وتبتكر في الغرض والفكرة والمعنى واللفظ والوزن والقافية ، وكان شأن هذه النهضة شأن كل النهضات التي تسمر في تدرج معتمدة على إخلاص المجددين وثقتهم ، وإيمان كل منهم بأنه قوة

باعتة لا يفسخ الماضي ولا يمسح الحاضر بل يعتر برائه الماضي ويضيف إليه ما يتكره في حاضره وما يلهمه مجتمعه الشرق وتوحي به يثته
وكان لهذه النهضة الشاملة عوامل بعثتها ، وعلى رأسها : الطباعة ، والصحافة
والبعثات ، والترجمة ، والتعليم تحدث عن كل منها فيما يلي :

١ - الطباعة :

كان لظهور الطباعة وانتشارها أثر كبير في النهضة الأدبية حيث أحييت التراث العظيم من المخطوطات الأدبية ، وساعدت على نشره . كما سرت للناس تبادل الآراء والأفكار ، وحفزت العلماء والأدباء إلى إظهار مؤلفاتهم وأثارهم الأدبية ، ونشرت الصحف بين ملايين القراء

ودخلت المطبعة العربية مع نابليون ثم أسس محمد علي المطبعة التي عرفت بمطبعة بولاق ، وتولى إدارتها أحد السوريين ، وعاونته في التصحيح عدد من شباب الأزهر ، وكانت تتولى طبع المنشورات والأوامر ، ثم طبعت الوقائع المصرية ، ثم الكتب التي ترجمت في الطب والرياضة والتاريخ وغير ذلك .

وبعد حين أنشئ فيها قسم أدبي تولى طبع العلوم والفنون ، ثم ضم هذا القسم إلى دار الكتب ، وبعد حين أنشئت المطبعة القبطية ، ثم أقبل الأهاالي على شراء المطابع حتى غصت بها الآن المدن وصار عددها حوالى سبعمائة مطبعة منتشرة في أنحاء الجمهورية العربية ، ثم أمت الدولة أكثرها ، وبدأت المطابع في أداء رسالتها العلمية منذ عهد محمد علي حين بدأت تطبع ما ترجم ، ولكنها لم تبدأ رسالتها الأدبية حقيفة إلا في عهد إسماعيل حين هاجر إلى مصر الكثير من أدباء الشام وأنشأوا الصحف ، وحين جاء جمال الدين الأفغانى ، فأيقظ الأدب في الخطابة والكتابة وحين أسست جمعية إحياء الكتب القديمة .

وقد أخذت المطابع تتنافس في بعث الكنوز القديمة من تراثنا الأدبي من كتب اللغة ودواوين الشعراء ، وكان في مقدمة ما طبع مقدمة ابن خلدون

وخزانة الأدب ، ووفيات الأعيان ، وزاد نشاط مطبع الكتب الأدبية حين نقل بعض الكتب بالتصوير الشمسى من مكاتب أوروبا وطبع الآن الآلاف من الكتب الأدبية فى كل عام ، وبذلك تؤدى رسالتها وتحمل أعظم عبء فى بناء نهضتنا الأدبية وبحق تعتبر الدعامة الأولى فى ذلك البناء .

٢ - الصحافة والمجلات الأدبية :

الصحافة : هى المدرسة الأولى للشعب والمنبر الحر الذى تقابرى فوره الآراء وتهذب الأفكار ، وهى القوة الموجهة المحاسبة الناقدة .

وقد أصبح لها فى العهد الأخير معهد يربى طبقة من الشباب للعمل فى بناء صحافة نظيفة تعمل لخير المجتمع لا لثروات الأفراد أو الشركات ، وكان من خير أعمال الثورة فى مصر تأميم الصحف ، وبذلك أخذت الطريق على المستغلين والتجار ، وأصحاب الشهوات والأهواء ولم تهدف من وراء ذلك إلا إلى الاتجاه بالصحافة إلى رسالتها فى التوجيه والبناء ، وقد عرفت مصر الصحافة أيام الحملة الفرنسية حين أنشأت الحملة جريدتى الأعشور والبريد بالفرنسية ، ثم التنيه بالعربية وحررها الشيخ الخشاب

ثم أنشأ محمد على (الوقائع المصرية) وحررت أولا بالتركية ثم بالعربية ، وتولى تحريرها الشيخ العطار والشيخ شهاب الدين ، وكانت قاصرة على نشر الأوامر الحكومية ، ثم عهد رياض باشا فى أيام إسماعيل إلى الشيخ محمد عبده الإشراف على تحريرها ، فبدأ يهذب أسلوبها ويحرر فيها المقالات ، ومنذ ذلك الحين بدأ يظهر فيها جانب من الأدب إلى أن كثرت الصحافة فاقصرت الوقائع عل نشر الأوامر والمقررات الحكومية ، ثم أنشأ محمد على البقلى (جريدة اليصوب وهى شهرية) ثم ظهرت وادى النيل ، ثم روضة المدارس ، وتعتبر أول مجلة أدبية لها قيمتها تظهر فى عالم الصحافة المصرية ، وتولى التحرير فيها زعماء الأدب والفكر مثل رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وإسماعيل الفلكى ، وحسين المرصى ، وعبدالله

فكرى ، ثم وفد إلى مصر بعض السوريين الفارين من ظلم الأتراك فأحدثوا في مصر رغبة صحفية يائسائهم الأهرام والمحروسة والمتنظم .

وظهرت المؤيد ومي أول صحيفة وضنية لصاحبها الشيخ على يوسف ، وكانت لسان الشعب والمسلمين ، ثم ظهرت اللواء لصطفى كامل ، وساعده في تحريرها محمد فريد ، والشيخ عبدالعزيز جاديش كما ظهرت جريدة التنكيك والتكيك للسيد عبد الله القديم خطيب الثورة العراقية .

ثم ، الجريدة ، لاحد لطفي السيد والأخبار لأمين الرافعي وكوكب الشرق لاحد حافظ عوض ، والجهاد لتوفيق دياب : وكثرت الصحف بعد ظهور الأحزاب في مصر .

وقد أثرت الثورات والحزبيات في الصحافة وفي لغتها تأثيراً كبيراً .

وظهرت منذ أربعين سنة صحافة الجمعيات والهيئات كمجلة ، الهداية الإسلامية ، و ، مكارم الأخلاق ، و ، مجلة الأزهر ، . ثم ظهرت الصحافة المدرسية في الكليات والمدارس ، وعملت كلها على نشر الوعي الثقافي والإجتماعي والعلمي والأدبي .

وأفردت الصحف اليومية والشهرية والأسبوعية بعض صفحاتها للأدب وبذلك أسهمت في النهضة الأدبية .

أما المجلات الأدبية فأول مجلة ظهرت في العصر الحاضر في مصر هي ، روضة المدارس ، ثم ، المقتطف ثم ، السياسة الأسبوعية ، ثم ، الرسالة ، وقد حملت هذه المجلة إلى العالم العربي آثار أفلام زعماء الأدب من نثر وشعر وظلت تؤدي رسالتها جيداً ثم اختفت .

وظهرت ، مجلة الثقافة ، ثم ، الرسالة الجديدة ، ثم ، مجلة الأمراء ، و ، مجلة المجمع القوي ، و ، مجلة نادي العلم المصري ، و ، المجلة ، وغيرها من المجلات الأدبية التي كان لها الفضل في ثقافتنا الأدبية .

ويبلغ عدد الصحف اليومية أو الأسبوعية والشهرية التي تصدر بالعربية وغيرها ١٨٠ صحيفة يقرأها الملايين من أبناء العرب في مختلف الأقطار . ولا تشار الصحف الأثر في تربية العقول والأفكار وتقويم الألسنة .

أسلوب الصحافة :

يختلف أسلوب الصحافة باختلاف أغراضها .

فأسلوب الصحافة السياسية يميل إلى السهولة والوضوح والبعد عن التأنق في التعبير وعن الإغراب في الخيال ، لأنه يراعى فيه المستوى الشعبي .

وأسلوب الصحافة الأدبية يتجه في الأعم الأغلب إلى السهولة ، غير أنه يغلب فيه اختيار الألفاظ الجميلة والعبارات الرقيقة والتفنن في الخيال ، ويراعى فيه جانب المثقفين ، وأسلوب صحافة الهيئات والكليات يراعى فيه من يكتب لهم فإذا كانت صحيفة هيئة عليا روعى في أسلوبها دقة التعبير عن المعنى المقصود بحيث تكون الألفاظ مؤدية للمقصود منها ، ولا يراعى في مثل هذا النوع الاقتنان في التركيب ، وهكذا تختلف الأساليب باختلاف أغراض الصحف .

٣ - البعثات والترجمة :

فكر محمد علي في إرسال بعثات للدراسة في أوروبا للاعتماد على أعضائها في النهضة التي يريدتها ، فاسفرت أول بعثة إلى فرنسا سنة ١٨١٦ وعددها أربعون غالبا . ثم توالى البعثات إلى إنجلترا وإيطاليا حتى بلغت ١١ بعثة . ضمت (٣٠٩) عضوا للدراسة الهندسة الحربية والطب والزراعة والتاريخ الطبيعي والسياسة والميكانيكا والحقوق .

وبعد عودة المبعوثين أمروا بترجمة الكتب التي كانت في المكتبة التي خلفها نابليون : وبدأت بذلك أول حركة الترجمة ، ثم تولى الأزهريون تصحيح عبارات الكتب المترجمة بعد اختيار الكلمات الفنية بمراجعة الكتب القديمة التي ترجمت في العصر العباسي ، ثم طبعت هذه الكتب ووزعت على المدارس

وقد ألف الشيخ محمد عمر التونسي معجماً طبياً يعين المترجمين في الطب سماه «الشدور الذهبية في الألفاظ الطبية» .

وكان الهاد الأول في حركة الترجمة الشيخ رفاعه الطهطاوى الذى سافر ليكون إماماً لإحدى البعثات في فرنسا ، فتعلم الفرنسية في ثلاث سنوات واتصل هناك بالمستشرقين ، فعاونوه على سرعة تعلم اللغة الفرنسية ، ثم ترجم هناك ١٢ رسالة في العلوم المختلفة .

ولما عاد عين في منصب الترجمة ومدرساً بمدرسة الطب ، ثم نقل إلى مدرسة المدفعية ، وعهد إليه بترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية . ثم اقترح إنشاء مدرسة للألسن ، فأُنشئت لتعليم الفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية والإيطالية .

وترجم « رفاعه » والمتخرجون في مدرسة الألسن وطلبة مدرسة الطب الكثير من العلوم التى تطلبها النهضة ، وفى عهد عباس الأول هبط عدد المبعوثين إلى ١٩ طالباً ، وهبط فى عهد سعيد إلى ١٧ طالباً .

أما « إسماعيل » فقد عنى بالتعليم والبعثات ، لأنه كان عضواً في بعثة الأمراء التى تعلمت في فرنسا . وبلغ عدد المبعوثين في عهده ١٧٢ مبعوثاً وأعاد مدرسة الألسن التى أغلقها « عباس الأول » ، ومن ثم نشطت الترجمة والترجمة الأدبية بالذات حيث قام بها تلاميذ « رفاعه » ، من أمثال محمد عثمان جلال الذى ترجم بعض المسرحيات ، ومنها بول وفرجينى « الفضيلة » ، وهى المسرحية التى صاغها « مصطفى لطفى المنفلوطى » ، بعد بأسلوبه .

وكان طلاب البعثات هم قادة حركة الترجمة ، فترجموا في الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وظهر النشاط في التعريب ولا سيما في القصة والمسرحية .

وقامت مؤسسات التعليم الإنجليزية والأمريكية بنصبها في الترجمة . وفى طليعة من عنى بالترجمة بعد « رفاعه » ، و « محمد عثمان » ، الأديب « محمد

السباعي ، وانجده إلى ترجمة القصص ، وبما ترجمه ، الأبطال ، و ربايات الخيام ، و دفتحي زغلول ، ترجم دروح الاجتماع ، و ديمقوب صروف ، ترجم دسر الشجاح ، و دأحمد لطفى السيد ، ترجم دالأخلاق ، و دمحمد فريد أبو حديد ، ترجم دفتح العرب لمصر ، و دأحمد حسن الزيات ، ترجم دآلام فرتر ، للشاعر الألماني ورفائيل ووطه حسين ، ترجم دزاديج ، لفولتير .

واطر دازدياد البعثات حتى بلغ في سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٥٧ م (١٢١) بعثة منها ٢٣ في ثقون والآداب - كانتشط حركة الترجمة بعد الحرب العالمية الثانية فترجم ١٣٤ مصنفاً منها ١٢٥ في الأدب .

أثر الترجمة في الأدب :

١ - في الشعر : اكتسب الشعر ثروات عظيمة من الألفاظ بعد حركة التعريب ، كما غمر المعاني سيل دافق من معاني اللغات الأخرى ، و اكتسبت الأخيلة صوراً جديدة وسعة في الآفاق لم يعدها الشعر العربي القديم .
ثم حاكى أدباؤنا المحدثون الأدب الغربي في التحلل من قيود القوافي والانطلاق في أوزان لم تعرفها بحور الشعر القديمة .
وأخيراً كان التجديد في الغرض والفكرة ، كل ذلك نأثر به الشعر بعد حركة الترجمة .

٢ - وفي النثر . استفاد الأدب العربي الأقصوصة ، ثم القصة الطويلة ثم المسرحية الوطنية والاجتماعية ، وظهر التعريب الذي غمر الأفكار والمواظف بآثار الأدب الغربي .

وكان لحركة الترجمة في الأدب عامة آثار لا نبيحد في :

- (أ) وضع المصطلحات العلمية . (ب) العناية بالمعنى قبل اللفظ .
- (ح) تحديد الموضوع وترتيب الأفكار . (د) اتساع الخيال .

٤ — اتساع نطاق العلم

والعناية فيه بالدراسة الأدبية

حين دخل الفرنسيون مصر لم يكن هناك سوى الأزهر وكتاتيب تحفيظ القرآن ، وأسس الفرنسيون مدرستين ، وفي عهد محمد علي رأى الحاجة الملحة إلى الشباب المثقف ليتولى شئون الدولة ، فأنشأ أول مدرسة بالقلعة لتعليم القرآن واللغة التركية . ثم أنشأ مدرسة لإعداد ضباط الجيش ، ولكنه اختار لها طلاباً من أبناء الشراكسة والأتراك والأكراد واليونانيين ، ولم يكن بها طالب مصري ، ثم أنشأ مدرسة الطب واختار طلابها من الأزهر .

وتوالى إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية والعالية لدراسة الطب ، والحرية والصيدلة والهندسة ، وبلغ عدد طلاب المدارس في عهده (٢٠ ألفاً) . ثم قمر التعليم في عهد عباس الأول وسعيد ، ثم عاد نشاطه في أيام اسماعيل فأنشئت مدرسة دار العلوم ، والحقوق ، والصنائع والفنون ، والمعلمين ومدارس للبنات ، وبلغ عدد الطلاب في عهده مائة ألف طالب .

وأنشئت في عهده الجامعة الأمريكية بأسبوط ، كما أنشأت فرنسا وإنجلترا دوراً للتعليم ، ثم نجحت مصر بالاحتلال ، فسيطر على التعليم ووجه سياسته ، وفرض مناهج خاصة كما فرض تعليم الإنجليزية في بعض المراحل ، وفرض مصروفات مدرسية لحرمان أبناء الفقراء من العلم ، ولكن الثورات التحررية هبت تكافح حتى استردت مصر إشرافها على التعليم ، وأخذت تتوسع في إنشاء المدارس ، ثم أنشأت التعليم الأول وجعلته إلزامياً وبالجمان . وانتشرت مدارس في القرى جميعاً . وأنشئت الأقسام الليلية في الجامعات الشعبية وتلا هذا التوسع في التعليم الإعدادى والثانوى والثنى للبنين والبنات وكثرت المدارس الأهلية التي ضمت بعد إلى وزارة التربية والتعليم ، وتوالى إنشاء المعاهد والمدارس حتى كان عهد الثورة التي عتبت بالتعليم فأنشئت

في إنشاء الجامعات والمعاهد العليا ، وتوسعت حكومة الثورة في التعليم الحربي والرياضي والصناعي والمهني .

أما العناية بالدراسة الأدبية في التعليم ، فلم تظهر إلا منذ عهد إسماعيل حين أُنشئت ددار العلوم ، وعُتبت بدراسة علوم اللغة العربية وآدابها ، وحين وفد جمال الدين الأفغاني ، وأخذ يذكي في نفوس الطلاب روح الحرية والسياسة ، ويحثهم على العناية بالمعنى وترك الزخارف اللفظية ، وحين أسس الشيخ محمد عبده الجمعية الخيرية الإسلامية وأشرف على إعداد مناهجها إعداداً يكفل إيجاد الطالب الباحث الكاتب .

و حين ظهرت في نظارة المعارف نخبة ممتازة من العلماء والأدباء أداروا دقة السياسة التعليمية فيها ، ودرسوا في التعليم ووجهوا الطلاب إلى البحث عن الكنوز النفيسة في تراثنا الأدبي القديم من أمثال عبد الله فكري وحفني ناصف والشيخ حمزة فتح الله ، والشيخ حسين المرصفي ، والشيخ محمد الحضري . ومن هنا أخذت الدراسات الأدبية تسير مع الدراسة العلمية وحظيت كلاهما بالعناية ، بل اشتدت التنافس بينهما واستبقا يحفزهما حيناً أصوات التحرر من السيطرة العلمية والاستغلال القوي ، وحيناً صيحة اليقظة التي أيقظت هذه الأمة ودفعتها إلى أعجابه وإلى إحياء تراثها العلمي والأدبي حتى امتلأت بها مناهج الدراسة وألوان النشاط في مختلف المراحل كالصحف المدرسية والإذاعات الداخلية للمدارس والمحاضرات والمناظرات والتدوات المدرسية والمثيل وجمعيات الخطابة والشعر والمسارح .

كل ذلك يكشف عن مدى العناية بالدراسات الأدبية .

• - الأزر :

هو أقدم جامعة عرفها الشرق الإسلامي وكعبة الاسلام الثانية وحصن اللغة العربية الذي تحطمت أمام قوته الحلات الإلحادية وعواصف اللغات المختلفة

نشأته :

أنشأه جوهر الصقلي القائد الفاطمي في قلب القاهرة بعد بنائها بأمر المعز لدين الله الفاطمي ، وبدأ بناؤه في جمادى الأولى سنة ٣٥٨ هـ وتم في عامين ، وأقيمت أول جمعة فيه في رمضان سنة ٣٦١ هـ وسمى الأزهر إشارة للقب السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى عليه وسلم التي تنسب إليها الدولة الفاطمية ، وعملت فيه يد الإصلاح والتجديد والزيادة في عهد الحاكم بأمر الله والمستنصر بالله والحافظ لدين الله من الفاطميين وعلان وكتنخدا من الأيوبيين وعلاء الدين طبرس ، وعلاء الدين أقبا ، وجوهر القناني ثم الخديوي عباس الذي أضاف الرواق العباسي .

وأعظم الزيادات هي التي زادها عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ حيث زاد في سعته مقدار النصف .

الأزهر كجامعة :

كان أول مدارس في الأزهر فقه الشيعة ، ودرست إلى جانبه العلوم الرياضية والفلكية والطبية والجغرافية ، ثم قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الفاطميين ، فأسرفت في القضاء على كل أثر للشيعة ، ومن ثم فقد الأزهر كل مظهر كان له حتى صلاة الجمعة ، وغطت فيه الدراسة مائة سنة ، فلم تعد الدراسة فيه إلا في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ .

والأيوبيون حين عطلوا الدراسة فيه أنشؤا مدارس أخرى ، ولكن لم ينقص إنشاؤها من قدر الأزهر ، بل تخرج فيها أعلام على طائفة من علماء الأزهر الذين تولوا التدريس فيها ، ولم تكن هذه المدارس إلا امتداداً لحمل الأزهر في تنمية الثقافة العربية والإسلامية ، وبعد سقوط بغداد وغارات التتار على الشام هاجر كثير من علماء العراق والشام إلى مصر ، فماشوا في كتف المالك مع علماء مصر وعمل هؤلاء وأولئك على تجديد التراث الإسلامي ، وأوقف المالك والأمراء الأموال على العلماء والطلاب فتدفق طلاب العلم على الأزهر من أرجاء العالم الإسلامي .

وظل الممالك يوالون عطفهم على الأزهر، والعلماء يؤلفون ويعملون ليعملوا من مصر أعظم مركز ثقافي للإسلام ولغة العرب .

ولم تكن مهمة العلماء عليه فحسب بل كانوا قادة الحركات التحررية وزعماء الثورات ، والقوة التي يحشهاها أمراء الممالك ، ومن ثم كان يلجأ إليهم المظلوم ليجد فيهم كل عون يدفع عنه الظلم ، وظل الأزهر كذلك حتى كان عهد العثمانيين فجزدوا مصر من مظاهر الحياة ، ونقلوا إلى تركيا العلماء واستولوا على الأوقاف التي كانت محبوسة على الأزهر ، فكثت الأزهر يكافح هذا الليل ويدرس علوم الدين واللغة العربية في ضمت حتى دهمت الحملة القرنية البلاد فقاد الأزهر الأمة للدفاع عن كيانها ، وأدرك الفرنسيون خطورة الأزهر فاقبضوه بغيوتهم ونكلوا بالكثير من أبنائه ، ثم رأى نابليون التقرب إلى الشعب بهذه الممارك فأنشأ ديواناً اختار فيه عشرة من المشايخ هم : (عبد الله الشرفاوي - البكري - الصاوي - الفيومي - المهدي - المرسى - مصطفى الدمنهوري - أحمد المريشي - يوسف الشبراخيتي - محمد الدواخلي) .

وأمر المصورين بالتقاط صورهم ولم تزل صورهم محفوظة في معرض (فرساي) وهو أول ديوان وطني ويعتبر فاتحة السلطة النيابية في مصر . ولما تولى محمد علي أمر مصر استعان بالأزهر ، وأقام على كواهل أبنائه النهضة التي أرادها فاختار من أبنائه البعوث وطلبة مدرستي الطب والألسن ، وعين العلماء للتدريس في المدارس التي أنشأها واختار منهم مصححين للكتب المترجمة .

وكان من أبناء الأزهر الشيخ رفاعه الطيطاوي والدكتور النبراوي ، أحد فواين الطب والكثير من رجال الحرية والهندسة ، وظل الأزهر عماد النهضة حتى كان عهد إسماعيل الذي عرف للأزهر فضله فغنى بإصلاحه بعد أن رأى الشيخ العباسي شيخ الأزهر أنه قد اندس في زمرة العلماء من لا يعرف العلم فتقدم بطلب نظام يقضي بامتحان الطلاب على لجنة مؤلفة من كبار العلماء تمتحنهم في الفقه

والأصول والتوحيد والتفسير والحديث والنحو والصرف والمعاني والبيان
والبديع والمنطق .

وتعصب الأزهريون لهذه العلوم واعتبروا سواها علوماً حديثة .

وتنبه الشيخ محمد عبده إلى نقص علوم الأزهر فنادى بوجوب التوسع
في العلوم ، وكان من نتيجة دعوته استصدار قانون يقضى بتقسيم العلوم
وبمقتضى هذا القانون درس مصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض
وشجع الطلاب على دراسة هذه العلوم بمكافآت مالية .

ولم يزل الأزهر يتقدم ويسير النهضة في جميع نظوراتها .

فضل الأزهر في صيانة التراث الإسلامى والعربى

لبث الأزهر طوال الأجيال الغابرة أكبر جامعة إسلامية في الشرق ،
بل في العالم يصون ذلك التراث .

١ — في عهد الفاطميين : درس فيه مذهب الشيعة وقضى به في المحاكم .

٢ — في عهد الأيوبيين : أنشئت مدارس كثيرة في القاهرة والقسطاط
كالمدرسة الكاملية والصالحية والفاضلية ، وتولى التدريس فيها علماء من
الأزهر ، ودرست فيها العلوم الدينية والعربية والطب والهندسة ، وتخرج
فيها عدد كبير ، منهم ابن الحاجب ، والشاطبي ، وابن الفارض الصوفي ،
وعز الدين بن عبد السلام ، والسيد أحمد البدوي ، وابن معطى . والقاضى
الفاضل ، والعماد الأصهباني ، وعبي الدين بن عبد الظاهر ، وغيرهم ممن
حفظوا التراث الإسلامى والعربى من الضياع .

٣ — في عهد المماليك : يعتبر هذا هو العهد الذهبى للأزهر القديم حيث
إن الكثير من المهاجرين من العراق والشام أحسوا وأحسن معهم
علماء مصر بالأعباء التى على كواهلهم بعد تدمير الحضارة الإسلامية

في العراق والشام ، فكانت حركة التأليف الجبارة التي لم تشهد لها مصر من قبل .

وبهذا النشاط في التأليف كان الأزهر الفضل في إعادة علوم الإسلام ولغة العرب ، وأدب هذه اللغة إلى الوجود — ولولا الأزهر ، لما رأى العالم الاسلامي هذه الكتب التي تمتلئ بها المكتبات في العلوم الدينية والعربية .

٤ - وفي عهد العثمانيين : على الرغم من أنهم حرموا الأزهر من الاوقاف التي حبيست على العلماء والطلاب ، وعلى الرغم من تضائل عدد العلماء والطلاب فإن بعض العلماء درسوا فيه وألفوا وأمدوا بذلك في حياة الأزهر .

٥ - وعاش الأزهر بعد العثمانيين يصون ذلك التراث حتى خيم الاحتلال ورأى المحتلون ودعاة التبشير في العالم أنه ليس في وسع قوة في الارض القضاء على الإسلام ولغة العرب إلا إذا زال الأزهر من الوجود ، وعبا المحتلون وغيرهم الحملات للقضاء على الأزهر ، ولكنه ثبت يرد الحملة بعد الحملة ، وما زال الأزهر يتصدى للهجمات المقنعة وغير المقنعة من الانجليز ومن الامر بكان ومن أذناهم ، ويدرك بقوة اليقين والبيان والثبات ، كل شر يحاول النيل من ذلك التراث الاسلامي الكبير .

أثر الأزهر في بناء النهضة الأدبية الحديثة

النهضة الأدبية الحديثة مدينة للأزهر أولاً وأخيراً ، فهو المنهل الذي ورد به كل أديب ، والقوة الموجهة التي أخذت يد كل أديب ، وهو الآخذ بهذه النهضة منذ بدأت فيما بها واعتلى في إيمان وثقة .

فمن رجاله الشيخ الخشاب الذي حرر جريدة النبيه التي أصدرها نابليون . ومن رجاله الشيخ العطار والشيخ شهاب الدين اللذان حررا الوقائع المصرية حين أنشئت .

ومنهم مصححو الكتب التي ترجمت في عهد محمد علي .

ومن رجاله الشيخ رفاعه الطهطاوى عميد المترجمين ، ومن أبناء الأزهر كان طلاب مدرستى الطب والألسن ، والبعوث ، والمصححون الذين اعتمد عليهم رفاعه في تصحيح ترجمة الكتب بعد .

ومن رجاله الأساتذة الذين اختيروا للتدريس فى المدارس على اختلاف مراحلها .

ومن رجاله الشيخ محمد عبده الذى كانت تزخر حلقات دروسه بمحبي الأدب والبيان ، والذى هذب أساليب الكتاب ووجههم ، ومن تلاميذه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار ، والشيخ محمد مصطفى المراغى ، ومصطفى لطفى المفلوطى ، وسعد زغلول .

ومن رجال الأزهر الشيخ عبد الكريم سلمان الكاتب الذى كان ساعد الشيخ محمد عبيد فى بناء النهضة الحديثة .

ومن رجاله الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، والشيخ عبد الله التديم خطيب الثورة العراقية ، والشيخ عبد العزيز جاويز ساعد مصطفى كامل ، والشيخ حمزة فتح الله ، والشيخ حسين المرصفي من كبار رجال اللغة والأدب ، وكل هؤلاء من بناء النهضة ، ومن رجال خطباء ثورة سنة ١٩١٩ والثورات التى تلتها .

ومن أبنائه الألف من تخرجوا فى دار العلوم وكليات الجامع الأزهر وكافة أزماء الفكر والأدب فى هذا العصر .

ومن أبنائه الكثير من الصحفيين فى الأجيال المختلفة ، ومن أبنائه الشعراء والكتاب الذين لا يحصى عددهم .

على أن من لم يشرف من أدباء مصر بالانتساب إلى الأزهر ، أو الأخذ
عن أشياخه مباشرة ، شرف بالقراءة والاطلاع على الآثار الأدبية التي
خلفها هؤلاء ، أو شرف بتوجيه أحد أبناء الأزهر - وهكذا يعتبر الأزهر
أساساً لكل عوامل النهضة الأدبية من طباعة وصحافة وتعليم وبعثات وترجمة
قلولا الأزهر مارأت مصر هذه النهضة التي تجنى ثمارها .

من أشهر رجال الأزهر

حفل تاريخ الأزهر الطويل بالعلماء والأعلام ، الذين ملأ صوتهم
وصيتهم الشرق الإسلامي بل العالم كله ، ونوجز القول في ثلاثة من كبار
رجال الأزهر .

١ - الشيخ عبدالله الشرقاوى المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ

نسبه ومولده :

هو عبدالله بن حجازي بن إبراهيم الشهير بالشرقاوى ، ولد بالطويلة
وتربى بالقرين وكلتاهما من محافظة الشرقية .

حياته : اتجه ككل ناشئ في هذا العهد يريد العلم ، إلى حفظ القرآن ،
ولما أممه دخل الأزهر ، وتلقى العلوم الدينية والعربية على يد طائفة من كبار
الشيخوخ ، ولما تمكن من العلم واطمأنات نفسه إلى ما جنى منه قام بالتدريس في
الأزهر ، فانتشر صيته لما عرف عنه من دقة التحقيق وقوة التأليف وحسن الإلقاء
ولم تقتصر مؤلفاته على جانب من العلوم ، بل ألف في العلوم الدينية
واللغوية ، وما زال حتى لمح نجمه ، وأصبح في طليعة أعلام الأزهر .

وأبرز مواقف الشيخ الشرقاوى موقفه من أمراء الماليك حين شكوا أهل
قرية في بابيس إلى الشيخ ظالم محمد بك الأتقي ورجاله لهم ، إذ استولوا على
أملأهم ، فعمد الشيخ اجتمعاً في الأزهر حضره العلماء ، واستقر الرأي على

مقاومة الأمراء بالقوة ، فأمروا الناس بإخلاء الأسواق والحوانيت استعداداً للقتال ، وبدأ العلماء يستعدون لقيادة الشعب ضد الأمراء ، وأدرك الأمراء الخطر المحرق بهم ، فاجتمعوا ، وأسرعوا في حل المشكلات قبل اندلاع الثورة وأذعنوا لأراء العلماء في رفع المظالم عن الناس ، وكف أشياهم عن مد أيديهم إلى أموال الناس ، ووعدوا أن يسيروا في الناس بالحسنى ، وبجولوا بذلك وثيقة دستورية وقعها الوالى مراد بك وإبراهيم بك .

وعاد العلماء بعد ذلك وبينهم الشيخ الشرقاوى في موكب حافل بثورين بالنصر على الأمراء .

ولما دخل نابليون مصر ، وانتهت مقاومة الشعب ، أنشأ نابليون الديوان الخاص ، وهو أول ديوان للسلطة النيابية ، وأسند رياسته للشيخ عبد الله الشرقاوى تقديراً لمكانته ، وتقرباً إلى الأمة وإلى العلماء به ، وظل نجم الشيخ يعلو حتى أسند إليه منصب مشيخة الأزهر وتمياً له من الجاه والغنى ما تنقطع دونه الآمال ومات سنة ١٢٢٧ هـ .

٢ — الامام الشيخ محمد عبده

نسبه ومولده :

هو الشيخ محمد عبده بن حسن خير الله . ولد بقرية عملة نصر من محافظة البحيرة من أسرة متوسطة .

حياته :

نشأ في قريته وحفظ القرآن بها . ثم جوده بالجامع الأزهرى بطنطا ، وطلب العلم هناك عاماً وبعض عام ، ولكن سرعان ما مل العلم ، لان الشيوخ لم يعجوه مسائله بطريقة مشوقة ، فعاد إلى بلده . وبعد حين عاد إلى طنطا ، ثم إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، ولم تكن الدراسة في الأزهر حينئذ كفيلاً بأن

تخلق من الشيخ محمد عبده ذلك الرجل ، لولا أن الله ساق إلى مصر الشيخ جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الفكرية في الشرق ، فأقبل الشيخ محمد عبده عليه ولازمه واستقى من علمه الفياض وسمع آراءه الناضجة وأفكاره ، وتغذى من قوة بياانه حتى أصبح الشيخ محمد عبده صورة لشيخ جمال الدين ، وهذا ما صرح به جمال الدين حين نفي من مصر ، حيث قال : إني تركت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده .

ومال الشيخ محمد عبده إلى دراسة العلوم العقلية والنقلية ، وبحث وجده حتى نال شهادة العالمية سنة ١٢٢٤ هـ فعين مدرساً للأدب العربي بدار العلوم ومدرسة الآلسن ، ثم فصل من عمله وانتقل إلى بلده .

ثم عينه رياض باشا محرراً في (الوقائع) فاشتغل في تحريرها ، ونمض بأسلوبها ، ثم عهد إليه الإشراف على الصحف التي كانت تصدر إذ ذاك وعلى كتابة الدواوين . فأخذ ينتقد الأساليب ويصحح نماذج الكتابة .

ثم كانت الثورة البريانية ، وعاشت مصر في أتونها ، وجثم الاحتلال على مصر ، وحوكم زعماء الثورة ، وأتهم الشيخ محمد عبده بأنه كان من أفتوا بخلع الخديوى . فنفى إلى سوريا ، وتولى التدريس في مدارسها ، وهناك شرح كتاب نهج البلاغة للإمام علي ، ومقامات الحريري ، وبتدريج الزمان الممدانى ثم ترك سوريا إلى باريس ، واثبت هناك بالشيخ جمال الدين الأفغانى ، فأنشأ جريدة العروة الوثقى ، وتعلم هناك الفرنسية ، ثم عفا عنه الخديوى فماد إلى مصر وقد ألم بقسط كبير من حضارة أوروبا ومعارفها ، فعين قاضياً في المحاكم الأهلية ، ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف ، ثم تولى الإفتاء ، وتولى إلى جانبه التدريس في الأزهر ، فدرس للطلاب المنطق والتفسير والبلاغة ، وكانت دراسته للتفسير على ضوء البلاغة العربية وكثيراً ما حكم عقله في تفسير القرآن ليتشبي مع روح العصر .

وعين أثنائه توليه الإفتاء عضواً في مجلس إدارة الأزهر الذى أنشئ
ليضع النظم والإصلاحات التى تنهض بالأزهر ، كما عين عضواً في مجلس
شورى القوانين ورئيساً للجنة اختيار القضاة الشرعيين ، وله في كل ناحية
من هذه النواحي إصلاحات عظيمة ، ومات في القاهرة ودفن بها .

آثاره :

في الأدب واللغة : حرر الوقائع ، فقهض بأسلوبها ، وأشرف على
ما يكتب في الصحف والدواوين ونشر الكتابة الضعيفة وبين مواضع النقد
فيها ، ثم نشر النماذج الصحيحة ، ولما تولى التدريس في الأزهر درس كتابي
عبد القاهر (أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز) وكشف لطلابه عن وجوه
البلاغة - كما شرح نهج البلاغة ومقامات الحريري ، وبديع الزمان الهمذاني .
وفي العلم والدين : فسر سورة البقرة وآل عمران والنساء وجزءي تبارك
وعم . ولما قام كتاب النصرانية يطمعون على الإسلام ، وينتقدون ما جاء به
جرد قلبه للدفاع عن الدين ، فصد عدوان المبشرين وغيرهم بالحجج الدامغة ،
وأظهر كتاب الإسلام والنصرانية للرد على الوزير (هانوتو) ومن مؤلفاته
الدينية رسالته في التوحيد .

أساليه في الكتابة :

الترم في أول حياته المحسنات عامة وبخاصة السجع . ثم بعد عن تكلف
ذلك ، ثم انتهى إلى التوصل . وحين كان يلتزم المحسنات كان يحاكي طريقة
ابن العميد ، أى الاتجاه إلى الصناعة ، ولكن في قوة تدل على تمكنه من
اللغة تمكننا جعله يتلاعب بالأساليب ، ويتوعد بتنوع المقام ، ولكنه مال
أخيراً إلى البعد عن الصناعة ، واتجه إلى قوة المعنى والعبارة فقط ، ونجلى
هذا اللون في رده على النصارى فيما كتب .

٣- الإمام المراغى

نسبه ومولده :

الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ولد فى قرية الراغة من محافظة جرجا
سنة ١٨٨١ م .

حياته :

بدأ حياته التعليمية بحفظ القرآن الكريم فى المراغة ، ولما أكمل
استظهاره أخذ يتردد على طهطا ليتلقى العلم على فريق من علمائها .

ثم انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وتلقى علوم الدين واللغة على العلماء
وعرف بين إخوانه بالذكاء النادر ، وكثيراً ما كان يعتمد على نفسه فى تحصيل
الدروس وتفهم المسائل العلمية ، وكان محباً للعلوم العقلية ، لأنها تغذى العقل
وتصله بنواحي الحياة لإدراك مافيه ، ولذا ناقت نفسه إلى دراسة الحكمة
وفروع الفلسفة على أحد الشيوخ . وحين كان الإمام محمد عبده يقرأ فى
الأزهر دروس البلاغة والتفسير لانيمة الشيخ المراغى وأخذ عنه وتأثر به .

وفى سنة ١٩٠٤ تقدم لامتحان الشهادة العالمية فكان موضع إعجاب أعضاء
لجنة الامتحان ، ثم عين قاضياً فى دنقلة بالسودان فشقت له همته العالية الحياة
هناك على الرغم من الصعوبات ، ثم عين قاضياً فى الخرطوم سنة ١٩٠٦
فكان مثال القاضي الحر ، وفى سنة ١٩٠٧ عين مفتشاً بوزارة الأوقاف
المصرية ، ثم عاد فى آخر سنة ١٩٠٨ لعضوية لقضاة السودان ، فعمل على تنظيم
القضاء الشرعى ، وأبرز هناك شخصية الحاكم الشرعى وقاضى القضاة يازاء
شخصيات القابضين على زمام الأمور .

ورجع إلى مصر سنة ١٩١٩ رئيساً للفتيش الشرعى . ثم عين رئيساً
لمحكمة مصر الشرعية ، ثم عضواً بالمحكمة العليا الشرعية فرنسياً لها ، وكان يحكم

منصبه عضواً في المجلس الحسبي العالي ، وعضواً في مجلس الأزهر الأعلى .
وتقدم لمضوية كبار العلماء برسالة موضوعها (الأولياء والمحجورون)
أحدثت دويماً في الدوائر القضائية لما اشتملت عليه من آراء .

وفي سنة ١٩٢٩ عين شيخاً للجامع الأزهر ، فوضع قانوناً يفتح أمام
الأزهريين الكثير من الآفاق ، غير أن هذا القانون لم يصادف قبولاً عند
أولى الأمر فترك الأزهر .

وفي سنة ١٩٣٥ ثار الأزهريون ثورة حقلت بالأحداث ونادوا بعودة
الشيخ المراغي إلى الأزهر ، وكان زعيم هذه الثورة الطالب الثائر الشيخ
أحمد حسن الباقوري ، وأمام هذه الثورة استجاب أولو الأمر لرغبة
الأزهريين فأعيد للمرة الثانية إلى مشيخة الأزهر ، وظل في منصبه حتى مات
سنة ١٩٤٥ ، ودفن في مقبرة خاعة بالقرب من مشهد السيدة نفيسة رضي
الله عنها :

مكاته في الأزهر وآثاره :

كان عهد الشيخ المراغي في المرة الأولى قصيراً ، ولكنه كان خطيراً في
تاريخ الأزهر ، وفي نفوس الأزهريين حيث تركت آثاره في المذكرة الخاصة
بقانون الأزهر أثراً بالغاً في النفوس فتعلق به الأزهريون ، ورأوا فيه
الآمل الذي يضيء في سبيله بكل شيء ، فكانت الثورة التي بحين فيها وعذب
مئات الطلاب في القاهرة ، وغيرها من المدن التي تضم معاهد دينية .

ولس المصريون صدق هذه الثورة فتعلقت نفوسهم بهذا الرجل الذي
اجتمعت على حبه قلوب الألاف من العلماء والطلاب حتى هيا الله لهذه الثورة
النجاح ، فعاد الشيخ المراغي ، وبدأ يعيد النظر في قانون سنة ١٩١٠ فعدل فيه
ثم تابع خطوات الإصلاح فتوسع في قسم الوعظ الذي كان قد اقترحه
في المرة الأولى ، ووضع مشروع مباني مدينة الأزهر ، ونظم المسابقات

لتعيين المدرسين . ورأس بنفسه لجنة امتحانات المتسابقين لاختيار الكفايات ، كما رأس امتحان شهادة العالمية من درجة أستاذ .

وعلى الرغم من مشكلاته الإدارية لم يشغل عن العلم والدروس ، بل قرأ الطلبة كلية الشريعة كتاب التحرير في الأصول ، وألقى دروساً في تفسير القرآن الكريم في شهر رمضان في محافل جامعة كان يؤمها كبار رجال الدولة وكان له مواقف في الاحتفاظ بالكرامة أرغمت كل الناس (حتى من نفسوا عليه مكاتته) على حبه وتقديره .

وكان يرى أن رسالة الأزهر يجب أن تنبج إلى ما يأتي :

- ١ - تعليم الأمم المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين ، وفهم الكتاب والسنة وتاريخ الإسلام .
- ٢ - إنارة كنوز العلم التي خلفها علماء الإسلام في العلوم الدينية ، والعربية والعقلية .

- ٣ - عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً .
- ٤ - العمل على إزالة القروق المذهبية أو تضيق الخلاف بينها .

الشيخ المراغي والسياسة :

أخذ بعض الناس على الشيخ المراغي اشتغاله بالسياسة فقال لهم : إن الإسلام دين وسياسة ولا رهبانية في الإسلام .

وقد اشتغل بالسياسة في أثناء توليه منصب مشيخة الأزهر من وراء ستار لا خوفاً من النفي والسجن بل حرصاً على كرامة المنصب أن يتعرض لتيارات الحزبية .

وقد عرف عنه وهو في القضاء في السودان تأييده للثورة المصرية سنة ١٩١٩ وجمع المال لمساعدة المنكوبين والجرحي ، وقد أثار ذلك نائرة الحكام الانجليز ، ولكن هذه النائرة لم تثنه عن المضاء في تنفيذ ما رأى .

ومن مواقفه السياسية العظيمة تلك الخطبة التي خطبها في مسجد الرفاعي في أثناء الحرب العالمية الثانية حين طلب من مصر الاشتراك في الحرب فأعلن رأى مصر في قوة حيث قال : إن هذه الحرب لانافة لنا فيها ولا جمل .

وقد أحدثت هذه الخطبة هزة في الدوائر الانجليزية والمصرية .

لقد علم الشيخ المراغي الأزهريين كيف يحفظون بكرانهم ويعتزون بدينهم واقد ترك في كل نفس سبعة مشرقة تفيض بحب هذا العالم العظيم الذي رثاه المرحوم الشيخ محمد الأسمر فكان آخر ما قال فيه .

من كان ثغرا قضى فأمت ذكراه ثغراً وأى ثغراً

تنظيم الأزهر

في سنة ١٩٣٠ نفذ قانون الأزهر ، وأصبح جامعة تتألف من ثلاث كليات : أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية ، واختصت كل كلية بدراسة مواد أساسية ، وأخرى إضافية ، ونشأت تبعاً لذلك تخصصات (التدريس ويتبع كلية اللغة العربية . والتخصص ينبع الشريعة ، والوعظ ويتبع أصول الدين . ثم ألقى تخصص القضاء أخيراً) .

ونشأ أيضاً تخصص المادة الذي يخرج حملة العالمية من درجة أستاذ . ويتبع كل فرع منه الكلية التي تتصل بمواده الدراسية ، وتنال شهادته بعد امتحان وتقديم رسالة في المواد المتخصص فيها .

وكان من قبل في أنتى . نظام التخصص بعد الشهادة العالمية ، وكانت له فروع تبعت الكليات المتعلقة بموادها وفروعها -- (النحو والصرف) (البلاغة والأدب) (التوحيد والمنطق) (التفسير والحديث) (والفقه والأصول) (والتاريخ والأخلاق) وكانت تنال شهادته بعد امتحان وتقديم رسالة في المواد المتخصص فيها .

وقد تولى التدريس في الكليات والتخصصات خيرة علماء الأزهر أومن تخرجوا في هذه التخصصات ، وإلى جانبهم نخبة ممتازة من المتخرجين في مدرستي القضاء الشرعي ، ودارالعلوم ، وكبار رجال وزارة التربية والتعليم ممن درسوا في الخارج .

وعلى هؤلاء وأولئك تخرج ألوف العلماء الذين امتلأت بهم مدارس وزارة التربية والتعليم على اختلاف مراحلها ، كما امتلأت بهم المعاهد الدينية ووزارة الأوقاف والصحافة والبعثات الموفدة إلى البلاد العربية والإسلامية ، وعين منهم في القضاء ، وفي وزارات الشؤون الاجتماعية والإرشاد والداخلية وفي الإذاعة .

وشمل تنظيم الأزهر أيضاً تنظيم الإداري . فأنشئت فيه إدارات للبحوث والثقافة ، ومهدت ربط الأزهر بالبلاد الإسلامية عن طريق الصحافة والبحوث والكتب والإشراف على المراكز الثقافية المنتشرة في أنحاء الشرق والغرب .

وأخيراً أنشئت في الأزهر إدارات للنشاط الثقافي والتربية العسكرية والرياضة . ويتبع الأزهر الآن (٦٠) معهداً في مختلف مدن الجمهورية العربية المتحدة . ومن بينها معاهد للفتيات .

وأخيراً كان قانون التطوير الذي درست بمقتضاه في المعاهد الأزهرية جميع المواد الثقافية التي تدرسها مدارس الوزارة ، كما أنشأت جامعة للتعليم العالي أطلق عليها جامعة الأزهر ، وأنشئت بمقتضاه كليات للتجارة والبنات والزراعة ، والطب ، والهندسة ، والعلوم ، والتربية ، ومعهد الدراسات الإسلامية والعربية ، ومعهد اللغات والترجمة إلى جانب كليات الشريعة والقانون ، وأصول الدين ، واللغة العربية . كما أنشئت فروع لبعض هذه الكليات في أسوط ووطنطا ، وتسابقت حواضر المحافظات في إنشاء فروع أخرى لجامعة الأزهر .

ويضم الأزهر الآن الآلات من الطلاب تلقى إليهم المحاضرات والدروس باللغة العربية كما يلقي وعظه في المساجد والمجتمعات ودروسهم كذلك باللغة العربية . والرسائل والبحوث والمؤلفات التي صنفها العلماء في المواد الدراسية ومجلة الأزهر : وما فيها من مقالات وبحوث وبمجموعها خيرة العلماء كل ذلك يعتبر غذاء للنهضة الأدبية ، وفي الكليات والمعاهد ألوان من النشاط الثقافي كاصحافة ، والإذاعات الداخلية ، والتدوات والجمعيات الدينية والأدبية ، وجمعيات الوعظ والخطابة والمحاضرات والمناظرات والتمثيل في كل ذلك انطلاقات جبارة تمد النهضة بالقوة .

ولهذا كان الأزهر من أهم زواقد القوة لهذه النهضة منذ نشأتها .

الاستشراق وأهم أعمال المستشرقين

أطلقت كلمة الاستشراق ، على العناية باللغات الشرقية وآدابها وحضارة أهلها وعلومهم وفنونهم ، وقد تولى هذا العمل طائفة من أبناء الغرب وعلمائه عرفوا باسم المستشرقين ، ونصبوا أنفسهم لتعلم اللغات الشرقية والتنقيب في ذخائر الشرق العلمية ، واستخراج ذفاتها ، وتحقيق مخطوطاتها ونشرها ، واعتمدوا على الأسلوب العلمي في تحقيق الكتب وفهرستها ، فأقادوا النهضة العلمية والأدبية إفادة قيمة : وإن شاب تحمل بعضهم ما تورط فيه من ثلب المجتمع الشرقي وذي عاداته وتقاليده والإضرار على شرائعه ، فبعضها منه أؤخدمة للاستعمار الذي يسوؤه أن يتحدث العالم بالحضارة الشرقية وما أثمرته من علوم وفنون وآداب :

ويمكن تلخيص أهم المستشرقين فيما يأتي :

- ١ - ترجمة القرآن وتفسيره كذه الترجمة التي اضطلع بها ، كازمرسكي . البولندي و د اين ، الانجليزى .

٢ - ترجمة المصنفات العربية كترجمة ، المسيو كزيمير ، الفرنسى لكتاب السلوك للمقرئى ومقدمة ابن خلدون .

٣ - التأليف فى الأدب العربى كتأليف ، بروكلمان ، الانجليزى و نالينو ، الإيطالى ، و نلذك ، الألمانى .

٤ - ترجمة الشعر العربى كما فعله ، جنتول ، الهولندى فى ترجمة أشعار المتنبي وأبى فراس وغيرهما من شعراء الحمدانيين .

٥ - نشر الكتب والتعليق عليها وشرحها كما فعل ، سامى ، الفرنسى فى مقالات الحريرى وكليلة ودمنة وألفية ابن مالك .

٦ - تأليف المعاجم ودوائر المعارف كمعجم ، فرايتاج ، الألمانى و د لين ، الإنجليزى و دوزى ، الهولندى ، ودائرة المعارف الإسلامية بالملغات الانجليزية والفرنسية والألمانية .

٧ - التأليف فى الأحكام والآداب الإسلامية ، كبحوث د لين ، الإنجليزى ، و د فلتشر ، الألمانى .

وقد عمل كثير من المستشرقين على إنشاء أقسام لدراسة اللغات الشرقية وآدابها فى الجامعات الأوروبية والأمريكية ، وأسهم بعضهم فى التدريس والمحاضرة فى جامعاتنا وخاصة فى مرحلة إنشائها كالاستاذ د كارلو نالينو ، الإيطالى الذى حاضر بالجامعة المصرية فى (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية) ، وكالاستاذ د سيتلانا ، الذى حاضر فى الفلسفة الإسلامية وحلنها بالفلسفة اليونانية القديمة .

الشعر في العصر الحديث

١ - حالة في صدر العصر

لم يكن الشعر في هذا العصر صورة واحدة من بدئه إلى اليوم ، حتى تحدث عنها من نواحيها ، وإتمام الشعر بأطوار لا بد من بيانها وبيان حالة الشعر في كل منها .

من عهد محمد علي إلى أول عهد إسماعيل :

لم يكن محمد علي بالنهضة الأدبية لأنه تركى ولغته كذلك ، وقد تعصب لها حيناً ، وإلى جانب هذا فهو ليس بالخاصة المثقف ، ولهذا لم تدرس اللغة العربية ولا آدابها منه تقديراً . ومن ثم بقي الشعر على صورته التي كانت في العصر العثماني من حيث الأسلوب فهو سهل بانغ السهولة ، حتى لتكاد تلبس الأساليب العامة بارزة فيه ، ومن حيث المعاني ؛ لأنه لم يستفد شيئاً من العلوم المترجمة ، والأدب العربي لم يترجم بعد حتى يظهر أثره ، ومن حيث الأغراض : لم يجد فيها جديد على ما كان لها في العصر العثماني ، اللهم إلا فتح الأمراء وهنئتهم بحج أو زواج ، وكل ما جدد من الأغراض هو الشعر الوطني (الأناشيد) وإن لم يكن مظهر من الشعر الجيد غير أنه فتح للشعراء باباً أجادوا فيه بعد ذلك .

وأما الصناعة والإسفاف فيها فطابع انتقل من العصر العثماني إلى الشعر في عهد محمد علي .

وقد عني الشعراء بالتاريخ بالشعر حتى لا تمكث تخلو قصيدة من التاريخ بالشعر ليسجل الزمن الذي وقع فيه الانتصار أو الرجوع من الحج أو حدثت فيه الوفاة ، ومن ذلك ما كتب على قبر إبراهيم باشا :

« زينت للقدم جنة عدن ، ١٢٦٤ »

والتاريخ بولاية عباس :

د ممر ازدهت بعزیزها عباس ، ١٢٦٥

ومن شعراء هذا العهد المشايخ : والحشاب ، العطار . شهاب الدين .
على رفاعة بك ، السيد علي الدرويش .

نماذج لشعر هذا العهد

للشيخ حسن العطار في الغزل (١) :

- ١ - أعن المحب ثلك عنه وجيهه أم قد دعاك إلى البعادرقيه ؟
- ٢ - هجر الكرى لما هجرت وراحتك شجونه وازداد فيك نحيبه
- ٣ - لم يحزن ذنباً في هراك وإنما قد كان ملهجران منك نصيه
- ٤ - أفقرته من حسن وعلك بعدما جادت عليك دموعه ونسيه
- ٥ - لو للقاء عظمك منه شكايه رقت ودمع طافح شؤبويه
- ٦ - لرأيت جسماً كالخلال من الضنى ولهب قلب مقلته نذيه

اللفه - الوجيب : اضطراب القلب وخفقانه - الكرى : النوم -
الشجون : الأحزان - النحيب : البكاء الشديد - التسيب : الغزل الرقيق -
الشؤبوب : الدفعة من المطر - الخلال : عود ضئيل يعرف (بالخله) .

أسلوب الأبيات عربي والمعاني كلها قديمة تناو لها الشعراء من قبل وقصر
الممدود في قوله (لو للقاء) وإن كان جائزاً للضرورة الشعرية .

الشرح :

- ١ - هل عدك عن المحب خفقان قلبه واضطرابه خشية أن يتم الخفوق

(١) الشيخ حسن العطار ، من علماء الأزهر ، زار البلاد الإسلامية ، وحرر

الوقائع المصرية ، ثم صار شيخاً للإسلام وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ

عن الحب أم دفعك إلى البعد خوف الرقباء ، وتكرار (عن) لامبرر له ، بل هو الضعف .

٢ — لقد فارقته النوم حين فارقته ، وكثر بكأؤه ، وبين هجر ووصل ، طباقي ، وشجون ونحيب مراعاة نظير .

٣ — إنه لم يقترف جرماً في حبك ومثل هذا يجازى بالحب لا بما جوزى به من الهجران وحذف نون من الجارة في قوله (ملهجران) جاتز ٤ — وأنت أفقرته من الوصل على الرغم من أنه جاد عليك بدمعه وغزله فكيف يقابل جوده بما كان منك .

٦٠٥ — ولو أن شكاته الرقيقة ودمعه المنسكب جعلاك تعطف على ألقائه لرأيت الجسم السقيم الضئيل كعود الخلال ، ورأيت طيب قلب تذيبه مقلته حين تحملان إليه الجمال الثاقن .

٢ — السيد علي الدرويش^(١) يمدح محمد علي ، ويؤرخ بحجـ الجراد في عام موت البقر :

يا صاح ماهذا الخير	قال الجراد هنا ظهر ؟
قلت استعد بالله قال	وهل من المقضى مفر ؟
ما كان قط بخاطري	في خاطري هذا الخير
جاء الجراد كأنه	يتلو على البقر السور
أو ما سمعت مقالهم	مثل الجراد المنتشر
فترى الجراد على الجمر	يد مكلا مثل الثمر
لواحة للأرض لا	تبقى النبات ولا تذر
وصغيرة في حجمها	لكنها إحدى الكبر
دقوا الطبول لرفعه	في الزرع لما أن زمر

(١) السيد علي الدرويش كان أديباً شاعراً بارعاً في التاريخ بالشعر ، وله

ديوان ، وتوفي سنة ١٢٧٠ هـ

وخزوا على ذا المعتدى فضى هزيماً وانكسر
وكذا الخديوى عادة لم يفز إلا واتصر
هل للخديوى شبهة في همة أو في سير
هل قبله رد الجسرا د سواء فيما قد غير
أرخته (وصل الجراد لمصر في عام البقر) ١٢٤٩

التعليق: أسلوب القطعة عربي وإن كانت السهولة بالغة فيه مبلغاً وقد استعمل
الشاعر ألفاظاً غير شعرية كقوله (قط) .

وقد شغل الشاعر بالجراد ووصفه عن المدح ، وما كان له وهو مدح أن
يقدم بين يدي المدح بذكر هاتين الكارثتين (الجراد وموت البقر) ، وأمال
الحديث فيما فعل الجراد بالزروع والشجر والآيات التي مدح فيها قليلة طغى عليها
وصف الجراد ، وقد انتقل إلى المدح انتقالاً لا بأس به وإن كان الأسلوب
الذي انتقل به ضعيفاً (وكذا الخديوى عادة ..) واستعمل ألفاظ القرآن في
قوله : (لواحة ، ولاتبقى ولاتنذر ، إحدى الكبر) ، وصور الشاعر كيفية
مطاردة الجراد في قوله (دفرا الطبول) في شيء من القوة ، وانتهى الشاعر
إلى تاريخ هذا الحديث بقوله (وصل الجراد لمصر في عام البقر) ١٢٤٩
وهو بمجموع الحروف الأبجدية بحساب الجمل المعروف عند الفلكيين .

هـ — الشعر من عهد إسماعيل إلى عهد الاحتلال

وانبعاث الشعر ونهضته على يد البارودي

نهض الشعر في هذا العهد نهضة فيسيحة الخطى معتمداً على أسباب نمت
فيه فجعلت فيه قوة يعتبرها كثير من مؤرخي الأدب طفرة جبارة ، أما تلك
الأسباب فهي :

١ — انفتاح التعليم والتمنيّة فيه بدراسة الأدب وتاريخه في دار العلوم
والأزهر

٢ - طبع دواوين فحول الشعراء العباسيين وغيرهم وإقبال الأدباء عليها لاستظهار وفهم ما فيها ، وطبع بعض كتب الأدب الموسوعة ، كالنقد الفريد ، والكامل للمبرد ، وغيرهما .

٣ - ترجمة بعض كتب الأدب الغربي والروايات .

٤ - عناية إسماعيل بالشعر واختيار شاعرين ، من بينهم: هما الشيخ علي أبو النصر والشيخ علي الليثي ليكونا شاعرين له .

٥ - ظهور الصحافة الأدبية ، وتبارى الأدباء على صفحاتها بإظهار تمارق انهم .

٦ - هجرة الأدباء السوريين إلى مصر وإنشائهم الصحف الأدبية وغيرها .

٧ - ظهور طائفة من الشعراء الموهوبين في آخر عهد إسماعيل كعبدالله فكري ، وإسماعيل صبرى .

وكان البارودي أكثر أدباء عصره إقبالا على دواوين فحول الشعراء ليستظهر ما يغرض وراء ما فيها حتى خلقت فيه ذوقاً أدبياً عظيماً .

هذا إلى جانب دراسته لغة التركية والعربية وفهم أدبهما حتى قال بهما شعر ، وأخيراً درس الإنجليزية ووقف على آدابها حين كان منفياً في سيلان .

ولم يظهر في شعره أثر واضح لهذه الثقافات المختلفة ، لكنه كان يمتدح الرائد الأول لهذا البعث الذي عاد بالشعر إلى سيرته الأولى في أيام العباسيين من جزالة الألفاظ ، وقوة المعاني وورقتها ، وبعد الخيال وسعته وتجنب الإمغان في الصناعة اللغوية التي تورط فيها الشعراء من قبل ، فلم يحفل بها البارودي ، وإنما عني بقوة المعنى أولاً ، مقلداً فحول شعراء العربية ، وجاءت عنايته بالألفاظ وحشد الاستعارات والتشبيهات في المنزلة الثانية ، وبذلك أعاد للشعر نهجه الأول وأقله من وجهته التي كان فيها .

وعلى الرغم من كل هذا لم يتسكّر البارودى فى الممانى وإنما كان شمسه
قديماً فى ممانيه كما كان قديماً فى أغراضه وألفاظه - فهو وإن كان يرجع إليه
الفضل فى ثمرة الشعر لكن فضله كان فى إعادة كل ما كان للشعر فى ماضيه،
ونقله من الضعف الذى استحوذ عليه قروناً إلى القوة التى عهدت له فى أزمنه
عصور الأدب .

نماذج من شعر هذا العهد

١ - عبد الله باشا فكرى (٥) يستعطف الخديوى توفيق :

كتانى توجّه وجهه الساحة الكبرى وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرى
وقف خاضعاً واستوهب الاذن والنفس

قبولا وقبل سدة الباب لى عشرةا

وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة لدى أمل برجو له البشر والبشرى
لدى باب سمح الراحين مؤمل صفوح عن الزلات يلتمس العذرا
يراقب رحمن السموات قلبه فيرحم من فى الارض رفقاً بهم طرا
ملكى ومولاي العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفة العمرا
لئن كان أقوام على تقولوا بأمر فقد جاءوا بما زورا نكرا
حلفت بما بين الخطيم وزمزم وبالباب والميزاب والنكبة الغرا
لما كان لى فى السر باع ولا يد ولا كنت من يغبى مدى عمره الشرا
التعليق والنقد : يدفع الشاعر بكتابه إلى الساحة الكبرى ساحة القصر
الخديوى ، ثم يطلب منه أن يكبر ولا يتكبر (جناس بين كبرى
وكبرا) ، ويأمره أن يقف فى خشوع ويطلب الإذن ويرجو القبول ويقبل
عتبة الدار أو أمامها عشراً ثم يبلغ حاجته و (بين البشر والبشرى)
(١) ولد بمكة ودرس بالأزهر، وأجاد التركية والعربية وترقى فى المناصب حتى

وصل إلى مية سميد وإسماعيل .
اللقب : الدرة : الظلة تقام بباب الدار - السمح : الكريم - الزلات : الهفوات
الآلاء : النعم - الخطيم جزء متصل بالكعبة - الميزاب : مسيل المطر ويقصد بميزاب الكعبة

جناساً وقد طالب الوقوف عند باب : كرم الراحتين ، الصفوح عن الهفوات
المراقب رب السموات ، الراحم من في الأرض . المرفق بهم جميعاً ، والملك
والمولى والسيد ، ومن ترجى نعمه ، ثم اتقل إلى ما أذاع المفسدون عنه ، ثم أقسم
بالخطيم وزمزم . أنه لم يكن له في الشريد ، وأنه ليس بمن يحبون الشر حياتهم
وبعد - فأى جرم هذا الذى اقترفته ، وأى نفسية تلك التى تجعل من
الخدوي رباً حين يقول لكتابه : كبر ولا تتكبر ، واخضع والنس القبول
وقبل سدة الباب ، إن الشاعر لم يبق له بهذا الأسلوب كرامة أو عزة .
وأسلوب الشاعر قوى الألفاظ والتراكيب ومعانيه قوية . أما الصور
الخيالية فتبدو في ذلك الخطاب الموجه إلى الكتاب ، ثم تلك الأوامر التى
يأمره بها الشاعر .

٢ - البارودى فى الغزل^(١) :

ياغزالا نصبت أهدابه يد السحر لضى شبكا
قد حلت القلب فاستوص به إنه حق على من ملكا
لا تعذبه على طاعته بعد ما نيمته فهو لكا
غلب اليأس على حسن المنى فيك واستولى على الضحك اليكا
فإلى من أشتكى ما شفى من غرام وإليك المشتكى
ملكك نفسى سيلا فى الهوى لم تدع فيه أخيرى مسلكا
التعليق : ينادى الشاعر ذلك الغزال الذى صنعت يد السحر من أهداب
جفونه شبكا صاده ليوصيه بقلبه الذى ملكه وهو الطائع المملوك ، فكيف
يعذب على طاعته ؟

وقد اضطرع الأمل واليأس فى قلب الشاعر فقهر اليأس الأمل ، وتغلب
البكاء على الضحك (وقصر البكاء للضرورة الشعرية والتغاية) .

(١) ساقى ترجمة البارودى

الآفة : الهدب - شعر أشجار العيين - نيمته : عبثته وذلكه - شفه : مزله

وقد مزله الحب وأضناه فإلى من يشتكى وأنت أيها المحبوب من يشتكى إليه
وقد اتخذت نفسه طريقاً في الحب لم تترك لغيرها في هذا الطريق منفذاً
يمكن أن يسلكه غيره ، والألفاظ رفيقة ناسبت موضوع الغزل الرقيق
والغزل الناصد ، والأخيلة جميلة فلتسها في (نصبت أهدابه إلخ ، وفي غلب اليأس)
واستول على الضحك البكاء والمعاني قديمة وفيها قوة .

الشعر منذ الاحتلال إلى اليوم

بنى الاحتلال الإنجليزي على مصر سياسياً وحرية ، وكان وجوده فرصة
لنهضة أدبية حيث أعان على ازدهار الأدب والشعر حين دفع المصريين إلى تعلم
اللغة الإنجليزية ، ومكنهم من الاختلاط بالأجانب ، والاطلاع على نتاج
أفكارهم ، وخلق لشعر مادة جديدة في الشعر السياسي ، والوطني فهب الشعراء
يرجمون عن عواطف الشعب وعواطفهم حين هبت الثورات المختلفة كالثورة
العراقية ، (وإن كان لم يظهر فيها كثير من الشعر لغير التديم) وكثورة
سنة ١٩١٩ ، والثورات التي أعقبتها وكما كانت سبباً في إيقاف الشعر ونهضته .

ألفاظ الشعر ومجانيه وأخيلته

١ - الألفاظ والأساليب :

للبيئة الطبيعية أثرها في جمال اللفظ ، وبيئتنا الطبيعية بعد الاحتلال
زخرت بالقصور والرياض وما خلعت عليها الحضارة الأوربية من فنون السحر
والجمال فكان لابد للشعراء وهم يعيشون بين أحضانها ، وأول من يحس الجمال
ويهم به أن يترجوا عنها ، وأن يكون شعرهم مرآة لبيئتهم . كما أن للتقدم العلمي
والاجتماعي والصناعي والتطور الاقتصادي والحضارات الأخرى آثاراً في
الألفاظ من حيث بعث ألفاظ قديمة ، أو وضع أو تعريب ألفاظ ، ولكل هذا
رفق ألفاظ الشعر وقويت أساليبه ، وعزف عن الضعف الذي كان له

في ماضيه وتراعى في ذلك النسيج البديع والعبارة القوية والوشى الساحر ، وإن لم يكن ذلك الوشى الذى عهدناه من المحسنات البديعية ، ولكن وشى الاستعارات وغيرها مما يضافى الجمال على الألفاظ والأساليب .

وعنى بعض الشعراء فى صدر هذا العهد بغريب الألفاظ ، والانتجاد بها إلى ألفاظ الشعر الجاهلى ، وفى ضليعة هؤلاء الشيخ محمد عبد المطلب ، والشيخ حمزة فتح الله ، وغيرهما من تجاوز عصره بألفاظه فكان شاعراً جاهلياً فى قوة لفظه وغرابته .

ومن الأسباب التى صقلت ألفاظ الشعر ورققت أساليبه :

١ - دروس الأدب التى تجلى فيها نقد الأساليب والتوجيه إلى البحث فى المعاجم .

٢ - كثرة ماحفظ الشعراء من شعر العصرين العباسى الأول والأندلسى اللذين عرفا برفعة ألفاظهما من أمثال شعر البحتري وأبى نواس وابن زيدون وغيرهم .

٣ - البيئة الطبيعية التى زخرت بالجمال فى مصر والشام والمهجر .

٤ - البيئة الأوربية التى تنقل فيها كثير من شعراء العروبة .

٢ - المعانى :

ظهرت المعانى القوية منذ ظهرت الكتب الأدبية المترجمة والروايات ومنذ بعثت كتب التراث القديم ، ومنذ بعث البارودى وأمثاله نهضة الشعر وزاد ظهورها فى عهد الاحتلال . وكان أكثرها فى الشعر السياسى ، والاجتماعى بعد تطور الحياة الاجتماعية ، وماجد فيها من المشافى والمنبرات والملاجىء . والمشروعات كمشروع القرش وغيره .

وكان لإلام بعض الشعراء بأكثر من لغة أثره فى نقل معانى تلك اللغات إلى الشعر العربى ، كما كان لتطور الحضارة فى نصف القرن الأخير ذلك التطور

الذى غمر الدنيا بما لم تعرفه البلاد العربية من طائرات وغواصات وأسلحة ومستحدثات أثر كذلك في جدة المعاني .

وكان للثورات التحررية التي انبعثت في الشرق وبينها الثورة المصرية الأخيرة وما أحدثته من تطورات اجتماعية واقتصادية وصناعية وحرية كل ذلك كان فيه خلق المعاني ، كما كان لاتصال مصر والشام بالأمم الغربية والشرقية عن طريق البعثات والإذاعة . والمعاهدات الثقافية التي عقدت بينهما وبين غيرهما من الدول أثر في تغذية الشعر العربي بالمعاني التي عرفت في أدب تلك الأمم .

وأمام كل هذا لم يقنع الشعراء بالمعاني الموروثة في الأدب القديم ولا بالمعاني التي عرفت في آداب اللغات الأخرى ، بل أضافوا إلى هذه وتلك معاني مبتكرة ، وكان أكثر الشعراء اتجاهاً إلى الابتكار هم الذين درسوا اللغات المختلفة ، كشعراء المهجر وغيرهم ، من نزعوا إلى العمق أو نظروا إلى الحياة من جوانبها الواسعة .

٣ — الأخيلة :

اتسعت آفاق الأخيلة أمام الشعراء على أثر ما ترجم من الآداب المختلفة إلى اللغة العربية . فقرأ شعراؤنا هذه الآداب المترجمة من قصص وغيرها وشاهدوا ما ظالمتهم به الحضارات من مسارح ودور خيال ، ثم رأوا البينات الجديدة بقصورها ورياضها وجداولها ، واختلف بعضهم إلى ينات شرقية أو غربية ، وقرأ شعراء الشرق العربي شعر المهجريين ، ووقفوا منه على ما استحدث من أخيلة ، ثم انطلقوا بعد أن تأثروا بكل ما تلقوا به عقولهم ، فبحروا في أجواء الخيال وأوغلوا ما شاءت لهم قواعم ، ثم طالعوا قراء العربية بهذا الشعر الذي يرفل في أخيلة جديدة تزدهو بجذتها ويزدهو بها الشعر .

حال الشعر في أشهر الأقطار العربية وفي المهجر

١ - في سوريا ولبنان

سبقت نهضة سوريا ولبنان الأدبية نهضة مصر ، لأن اتصال أوروبا بهما كان أسبق حيث تدفقت إليهما اليهوث الغربية أو الدعاة ، فشيّدوا المدارس وأسسوا المكتبات والمطابع ، ودعوا إلى التعليم الحديث ، فتدفق الطلاب يتلقون في هذه المدارس علوم اللغة العربية وآدابها ، وتعلوا اللغات الأوروبية وآدابها ، وأخذوا عنهم فن الصحافة والناطرات وبهذا سبقت نهضتهما نهضة مصر

ثم كان لاحتلال فرنسا لهما أثر في أدبهما ، ولم تطغ اللغة الفرنسية على اللغة العربية بل وقفت غيرة العرب على لغتهم وعلى أدبها تصد تيار هذا الغزو ، ونحث الغيورين منهم على الإقبال على اللغة العربية ، ودراسة أدبها إلى جانب الفرنسية وآدابها .

فليس بغريب بعدئذ أن نرى بين السوريين واللبنانيين الكثير من الشعراء والمجددين في الأغراض ، والموضوعات ، والمعاني ، والإخيلة ، والألفاظ بل المجددين في الأوزان والقوافي .

٢ - في العراق

رزح العراق تحت ألوان الظلم منذ تقويض عرش الباسيين في بغداد ، فاستبد به حيناً ، وما كاد ينمط بمسد زوال ملكهم حتى دهمه الأنراك فسيطروا عليه حيناً لم يسكن فيه من استعادة الحياة الأدبية ، ولم يكذب مزاح عنه الكابوس التركي حتى منى بالاحتلال الإنجليزي الذي أمعن في فرض الجهل عليه ، فلم تعد له حياة العلم التي كانت له في الماضي .

وكان لهذه التقنيات التي عاش فيها العراق الأثر في انكماش الحياة الأدبية ، وإن الشعب العربي هناك لم ينس على الرغم من كل هذا عروبه وغيبته على لغته وعلى آدابها . تأسست جمعيات غلبت بإنشاء المدارس والصحافة والمطابع . ولجأ الكثير من العراقيين إلى مصر وغيرها من البلاد العربية التي تقدمت فيها الحياة العلمية والأدبية فدرسوا فيها أو قرأوا ما كتب أدباؤها ، وظلوا على اتصال بهذه النهضة حتى ظهر منهم الأدباء المبرزون أمثال صدقي الزهاوي ، ومعروف الرصافي ، والشبيبي وغيرهم .

أما أسلوب شعرهم وألفاظه ومعانيه وأخيلته فهي كلها صورة من الشعر المصري أو السوري أو اللبناني ، بل هي صورة من الشعر العربي القديم الذي عني هؤلاء بدراسته ، والتأثر به بعد طبع الكثير منه في مطابعهم أو مطابع البلاد العربية الأخرى ، وفي الأعوام الأخيرة بدأت تتحرك نهضة الأدب في العراق نتيجة للبعثات المصرية وغيرها من البعثات التي ملأت مدارس العراق ومعاهدها وجامعاتها .

٣ — في المنهج

الهجرة وأسبابها :

هاجر كثير من الشاميين إلى أمريكا وليست الهجرة بمجددة عليهم فهم من النبطيين الضارين في آفاق الأرض ، وكان أكثر المهاجرين من المسيحيين ومن اللبنانيين بالذات لكثرة الإرساليات الأمريكية في لبنان .

وحين شغل المسلمون في الشام بالمناصب الدينية والإدارية والعسكرية شغل المسيحيون بالتعليم في المدارس النظامية التي غلبت باللغة العربية ، وأدبها ، وباللغات الحية ، وتخرج منها عدد كبير من عرفوا بحسن بلاغهم في خدمة الأدب وزح كثير منهم إلى مصر وأمريكا فآظفروا هناك آثار قرائتهم ونبوغهم وكثرت هجرتهم إلى أمريكا . أما الأسباب التي دعتهم إلى الهجرة فهي :

١ - سره سياسة العثمانيين في بث الفرقة بين العرب حتى لا تجتمع كلمتهم وقد جرت مذابح دموية في سنة ١٨٤٠ ، ١٨٦٠ ، ١٨٩٥ م بسبب التفرقة .

٢ - فقر بلاد الشام واختلال الميزان الاقتصادي بها .

٣ - حب المهاجرين لمعانى الحرية والكرامة .

٤ - انتشار الثقافة الأمريكية عن طريق الإرساليات .

وتناول شعراء المهجر أسباب هجرتهم في شعرهم فقال مسعود سماعة^(١)

سأترك أرض الجدود قفياً حياة الجبان وموت الجرى

تقيّد أقلام أحرارها وتطلق أيدي ذوى المنسر

وقال إيليا أبو ماضي^(٢) .

لبنان لا تعذل بئيك إذا ثم ركبوا زلى العلياء كل سفين

لم يهجروك ملالة ألسنتهم خلفوا لصيد اللؤلؤ المكنون

لما ولدتهم نسوراً حلقوا لا يقيمون من العلا بالدون

والنسر لا يرضى السجون وإن تكن ذهباً فكيف محابس من طين

ثقافة شعراء المهجر :

امتاز شعراء المهجر بتعدد ثقافتهم من اللغات المختلفة ، وبالاطلاع على الحركات الفكرية في عالم ، فقد تنقفوا جميعاً بالثقافة العربية ، ثم قرأوا جميعاً الشعر الأجنبي ، وترجموا بعضه إلى الشعر العربي حيث ترجم ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة قصائد من الشعر الروسي ، وشفيق معلوف وشقيقة فوزى من الشعر الأسباني ، وترجم كثير منهم عن الإنجليزية والفرنسية .

(١) ولده في دير القمر ببلدان سنة ١٨٨٢ ، ورحل إلى الولايات المتحدة واشتغل بالتجارة ومات سنة ١٩٤٦ .

(٢) إيليا أبو ماضي . سائر التعريف به .

التجديد في شعر المهجر :

لم تخرج دواوين المهاجرين الأولين عن الشعر القديم ، فكان شعر المهجر أول أمره تقليداً خالصاً للشعر الشرقي ، ومن هذه الدواوين ديوان (النحلة) للدكتور لويس صابونجي الذي يعتبر أول المهاجرين ، لأنه هاجر سنة ١٨٧٠ وديوان (نلمات الغصون) للشاعر سليمان داود سلامة ، وديوان (نقات الرياض) للشاعر رزق حداد ، وفيه قصيدة في وصف بيروت استلها بالنسب كعادة الشعراء القدامى .

ثم اتجه شعراء المهجر إلى إغفال القديم ، واشتطوا في مهاجمته ، وتألقت لهم جماعة في أمريكا الشمالية سنة ١٩٢٠ م باسم (جماعة الرابطة القلمية بنيويورك) ونظموا الثورات على الأدب العتيق ، وآمن أعضاء هذه الرابطة بوجود الثورة على القديم ، ويكاد يوجد شبه إجماع على هجر الشعر القديم ، ومن شعرائها :

(إيليا أبو ماضي - نسيم عريضة - جبران خليل جبران - ميخائيل نعيمة - رشيد أيوب - منعم سماعة - محبوب الشرتوني - أحمد زكي أبو شادي) . وبعد ١٢ سنة من تأليف الرابطة القلمية ، تألفت في البرازيل في أمريكا الجنوبية جماعة (العصبة الأندلسية) أسسها ميشيل معلوف وتلاه في رياستها (رشيد خوري الشاعر القروي) وأخذت تدعو إلى التجديد في طيعة الشعر العربي في هدوء ، ورغبت في بقاء شيء من القديم يربط الماضي بالحاضر ، ولا يقطع العرب المحدثين عن تراثهم .

وعلى الرغم من ثورات المهاجرين على الأدب القديم فإنه لم يخل شعراء من أصداء المناسبات القديمة ، فقد مدحوا وشكروا وعزوا وتهادوا وقالوا في الحكم وعارضوا غيرهم من الشعراء القدامى ، بل سطروا على معاني الأقدمين كالشاعر نعمة الحاج في قوله :

وإذا سكرت فإنني بين الأوائس والورود

وإذا صحت فإنى بين الأبالس والقروء
أخذه من قول المنخل البشكرى الجاهلى :

فإذا سكرت فإنى رب الخورنق والسدير
وإذا صحت فإنى رب الشوبهة والبعر

وقد حمل شعر بعضهم بالجناس والتضمين .

وقد هاجم بعض شعراء المهجر من جددوا فى الأخيلة ، ونقلوا ما أوحى
به الخيال الغربى إلى الشعر العربى ، على حين هاجم البعض موضوعات الشعر
القديمة وألفاظه وأساليبه ، ودعا إلى الاتجاه بلغة الشعر إلى لغة بين الفصيحة
والعامية ، ومن ثم هبط المستوى اللغوى لشعراء المهجر ، ولعل أهم سبب
لهبوط ذلك المستوى اللغوى هو أنهم هاجروا قبل استكمال ثقافتهم العربية .

مظاهر فى شعر المهجر :

يرى شعراء المهجر سمو رسالة الشعر وقديمتها ، فهم يثرون على الأدب
الداعر ، ويدور شعر الحب عندهم حول الحنين إلى رقيقة الصبا والشباب ،
وما يتصل بذلك من ذكريات ، كما يعتبرون الحب عنصر الحياة يوصل
الإنسان إلى الحقائق الانسانية كقول إيليا أبو ماضى :

إن نفساً لم يشرق الحب فيها هى نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفى وبالحب قد عرفت الله

التجديد فى الموضوع :

أخذ شعراء المهجر ينطلقون من عالم السدود إلى العالم الطليق وتلس
ذلك فى شعر نسيب عريضة :

قم تتخذ للننى جناحاً يطير من عالم الحدود
تؤم خدر الرؤى ونحظى بما حرماه فى الوجود
قم واترك الجسم حيث يلى فانوت خير من الجود

ويتجه شعر المهجرين إلى الإنسانية العامة فيشارك الناس جميعاً في آلامهم
وابتساماتهم مشاركة الطبيعة في ظاهرها، ومثل هذا النوع لا يعرف القوميات
ولا العصبية، ويصور لنا ذلك ميخائيل نعيمة في تصويره للنهر الذي جدد
ماؤه، وفيدته الجليد عن الجريان ويرى في ذلك رمزاً لحاله فيقول :

قد كان لي يا نهر قلب ضاحك مثل المروج
حر كقلبك فيه أميال وآمال تتوج
قد كان يضحي غير ما يمسى ولا يشكو الملال
واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمل
يا نهر ذا قلبي أراه كما أراك مكبلاً
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو لا

وإن كثيراً من مسائل الحياة بلبل شعراء المهجر، ففكروا في الوجود
في بدنه ونهايته، وفكروا في النفس، وفي الزمن، وفي الحياة، وفي الموت،
والخير والشر، فاستمع إلى إلياس فنصل يصور ذلك :

ما زلت أبحث معنأ في حيرتي وأجد خلف الوهم جد تلف
حتى رجعت إلى الشكوك مصدعا ورأيت أني مصدر السر الخفي
وإلياس يقول :

حامت على روحي الشكوك كأنها وكأنهن فريسة وصقور
واقعد لجأت إلى الرجاء ففقتي أما الخيال فغائب مدحور
باليسل أين النور إلى تائه سر يفتيق أم ليس عندك نور؟
وترى نظرات التشاؤم في شعرهم تبدو كقول إلياس فرحات :

يمشي الأسي في داخلي متغلغلا بين العروق كبضغ الجراح
ورياض معلوف يقول :

فجراحى الحمراء ملء ضلوعي أي سهم لم يصم مني ضميمي

ونرى كذلك دعوة الإقبال على الحياة والتغنى على الرغم من أحداثها
كما يصور إيليا ذلك :

الشجاع الشجاع عندي من أمسى بفتى والدمع في الأجفان
ونرى في شعرهم نوعاً من القصص هو عبارة عن تأملات وأفكار كما
في قصيدة الطلاس لإيليا أبو ماضي ، ومنها :

قد سألت البحر يوماً هل أنا يا بحر منك
أصبح ما رواه بعضهم عنى وعنكا
أم ترى ما زعموا زوراً وهتاناً وإفكا
ضحكت أمواجه منى وقالت .

لست أدري !

تجديد المهجريين في الوزن :

مال أكثر شعراء المهجر إلى الموشحات ووجدوا فيها انطلاقاً من قيود
القافية الواحدة أو البحر الواحد . ويرى بعضهم أن تعدد الأصوات يزيد
في وقع القصيدة ، وكلف الكثير منهم بالأوزان القصيرة والبحور المجزوءة ،
وقد ساقهم انفلاتهم من القيود إلى ارتكاب الضرورات التي يابأها المحافظون
على الشعر ، وقد كان الجنوبيون أكثر من المهجريين تحفظاً من الشماليين
في اللغة ، وقد هاجم بعضهم الأوزان الشعرية وقيود القافية .

من نماذج التجديد في الوزن

١ - لإيليا فرحات :

يا عروس الروض يا ذات الجتاح يا حمامه

سافرى مصحوبة عند الصباح بالسلامه

واحلى شوق فواد ذى جراح وحيامه (هذا لون من الموشحات)

٢ — نسيب عريضة من قصيدة (النبابة)

كفنه

وأدفنه

اسكنوه

هرة اللحد الميق

وأذهبوا لا تندبوه فهو شمع

ميت ليس يفيق... (وحدة الوزن فاعلان ، وتصرف الشاعر في نظام القصيدة فقط).

ومن التجديد قول إيليا تحت عنوان الزوج في أمريكا

فوق الجيزة سنجاب والأرب يمرح في الحقل

وأنا سياد وثاب نكن قصيد على مثل

محظور إذ أني عبید

نوعات التجديد في موضوعات الشعر

لشعر موضوعات عرفت في عصوره الماضية من مدح ورناء ، وغزل ونثر ووصف ، وعرف عن نظام القصيدة دوراتها حول أعراض متقدمة وإن كان عنوانها واحداً ، وهكذا كانت القصيدة حتى أواسط هذا العصر فالأرودي وشوقي وهما من زعماء هذا العصر قلدا الشعراء القدامى ، وقلدوا غيرهم من الشعراء المحدثين فيما نهجوه .

وحدثت في آخر عصرنا الحاضر نوعات مالت إلى التجديد في القصيدة من حيث :

١ — وحدة الموضوع

نزع المجددون إلى وحدة موضوع القصيدة بحيث تكون وحدة مترابطة الأجزاء والمماثل يبرر فيها الشاعر عن كل ما يتصل بالموضوع اتصالاً وثيقاً فلا يخرج عنه ومن أمثلة ذلك قصيدة للنازي عنوانها :

(ليلة وضباح)

جثم الهم على صدر المشوق

يا صديق

وبدت في لجة الليل النجوم

ومضى يركض مقرر النسيم

وثنى الزهر على النور الغطاء

عم مساء

هاتلى ماذا آلهات الدواه؟

الدواه

أولم يغف مع الليل الصدى

فليكن سمرا تحت الدجى

تداعى فى حواشيه سواء

عم مساء

ويمضى الشاعر فى هذه القصيدة المترابطة إلى آخرها ، فنرى أن كل جزء مرتبط بما قبله بحيث لا ترى جزءاً قائماً بذاته كما عرف ذلك فى نظام القصيدة القديمة التى يمكن أن يستقل كل بيت منها بمعنى منفصل .

٣ - التجديد فى الموضوع :

(١) جد فى الشعر موضوعات بعضها جديد كل الجدة ، وبعضها قديم ، غير أن الشعراء أحدثوا فيها جديداً ، وأكثر من عنى بالتجديد شعراء المهجر كما عنى بعض المصريين والسوريين واللبنانيين ، وغيرهم بالتجديد ، ومن بينهم المازنى وعبد الرحمن شكرى .

وهذه قصيدة لعبد الرحمن شكرى (١)

(١) ولد فى الاسكندرية سنة ١٨٨٦ ، وتعلم فى المدارس المدنية ، وتخرج فى المعلمين العليا ، وسافر فى بعثة إلى إنجلترا ، وتقلب فى مناصب وزارة التربية والتعليم حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٥ وشعره يتجه إلى السكون والحياة البشرية وهو من الذين جروا القصيدة من موضوعها القديم .

إلى المجهول

يحوطني منك بحر لست أعرفه ومهمه لست أدري ما أفاضه
أقضى حياتي بنفس لست أعرفها وحولي ألكون لم تدرك معانيه
يا ليت لي نظرة للغيب تسعدني لعل فيها ضياء الحق تبديه
وليت لي خطرة تدحو بجاهله وتكشف السر عن خافي مساعيه
كأن روحي عود أنت تحكمه قابسط يديك وأطلق من أغانيه
وأكبر الظن أني هالك أبداً شوقاً إليك وقلبي فيه ما فيه

التعليق : تفنن الشاعر في التصوير وأبدع حين ألقي نظرة على الحياة فإذا هي مبهم غامضة ، وإذا عقله يحار في ذلك المجهول الذي يحيط به . وكأنه في صحراء مترامية لا يدري أناسها ، إنه يقطع الحياة بنفس مجهولة لديه ، وفي كون لا يدري ما فيه . وكل معنى لو عرف الحقائق ، إنه يتسنى أن تكون له نظرة نافذة تنفذ بين سدود الغيب فتكشف ما وراءه لعل هنالك قسماً من الحق يهدي ، ويتسنى أن تكون له خطرة تطرى الجاهل وتكشف الأسرار ، ويتصور أن روحه بين يدي المجهول كالعود ، ويرجو أن يبسط المجهول يديه فوق روحه لتنظن الأغانى .

ثم يقول : إني سأعلك شرقاً إلى المجهول وقلبي ملي بالخيرة . وهكذا تدرك النزعات التي تسترل على الشاعر ، وتحرك أفكاره فتدفعه إلى البحث وراء المجهول .

وهذه الأفكار طرقت في بيت أو بيتين بعض الشعراء من أمثال المعري حين تحدثوا عن الغيب ، أما تناول الموضوع على هذه الصورة فلا شك أنه جديد ومثل هذا اللون كثير في شعر المهجريين .

(ب) حب جديد :

هذا حب ليس كما عرف شعراء العربية من قبل من مسألة الأطلال والديار

اللغة : المبهمة . الصحراء . تدحو . تطوى .

راخيت عن المرأة وعظامها ، ولكنته حب جمع بين القديم والجديد
يعرضه بشاره الخورى^(١) من خلال مشاهدة الطبيعة :

أنا ساهر والكون نام ثم وكل ما فى الكون نام
نام الجميع ومقلتي يقضى تجول مع الظلام
حتى نجوم الأفق نامت فوق طيات الظلام
أنا ساهر والسهل فى حضن الطبيعة كالغلام
وكأله فتحت ذرا عينا ليها ليلنا بالنام
تغفو ويحرس نغره روح البنفسج والخزام
والسهل نام فلا حرا ك ولا هتاف ولا بغام
أنا ساهر والبحر آخر من لاهدير ولا احتدام

انتعليق : تحدث الشعراء قديماً عن خفقان القلوب بالحب كما تحدثوا
عن الطبيعة ووصفوها . وجاء بشاره فرج بين الطبيعة والحب فى هذه القصيدة
التي يعرضها : فالكون نام كل ما فيه ، وهو الساهر الذى أرسل مقلته بين
ثنايا الظلام تجول حتى النجوم نامت وراء البغام وهو ساهر ، والسهل فى حضن
الطبيعة قد استلقى كالغلام فتحت له أمه ذراعها لينعم بنومه ، ونام السهل
فلا تحس منه حركة ولا هتافاً ، والبحر لا ينطق وقد صمت هديره ونام .
وهذا اللون من الغزل جديد لم تعرفه العربية ولكنته نتيجة لدراسة
الأدب الغربى وما يشيع فيه من اتجاهات حول الحب والغزل .

(١) بشاره الخورى من أعظم شعراء لبنان ، اشتغل منذ شبابه بالصحافة
فأنشأ صحيفة البرق سنة ١٩٠٧ وشارك مواطنيه فى مشاعرهم الوطنية وإحسانهم
بالظلم الواقع عليهم من العثمانيين ، وله شعر وجداني عظيم وكثير من القصائد
فى الغزل وهو شاعر (الهوى والشباب) ولقب بالأنخل الصغير .
- اللغة : تيجول : تتحرك : تغفو : تنام . الخزام : نوع من الزهر . البغام :
صوت الظبي .

(ح) مزج الهجاء والتهم بالفلسفة .

الهجاء والتهم من موضوعات الشعر القديمة والفلسفة كذلك ، ولكن مزجها كلها هو ما استحدثه إيليا أبو ماضي حين تكبر عليه صديق أثرى فتحدث عنه في قصيدة جعل عنوانها : الطين ، وكأنما يشير إلى ذلك الإنسان الطيني ، منها :

نسى الطين ساعة أنه طين حقيقير فصال تيهاً وعربد
وكسا الخبز جسمه قبايحى وحوى المال كيده فتمرد
يا أخى لا تمل بوجهك عنى ما أنا فخمة ولا أنت فرقة
أنت لم تصنع الحرير الذى تلبس واللؤلؤ الذى تتقلد
أنت لا تاكل النضار إذا جفست ولا تشرب الجنان المنضد
أنت فى البردة الموشاة مثلى فى كفاى الرديم تشقى وتسمد
لك فى عالم النهار أمان وروى والظلام فوقك تمتد
ولقلبي كما لقلبك أحلام حسان فإنه غير جلمد
أمانى كلها من تراب وأمانيك كلها من عسجد ؟
وأمانى كلها للتلاشى وأمانيك للخليلود المؤبد
لا ، فهذى وتلك تاتى وتمضى كذوبها وأى شيء سرمد ؟

القصيدة :

لقد نسى ذلك الإنسان الطينى أنه من طين حقيقير فتشكر وتعالى ، وتباهى حين أرى ثم قال له : لا تصمخ حدكلى ، ولا تزور عنى فليست الفخم وليست الكوكب الرضاء ، وليست صانع الحرير الذى تلبسه ولا اللؤلؤ الذى تتحلى به ولا آكل الذهب ولا شارب الفضة ، أنت فى ثوبك المحلى مثلى فى ثوبى البالى وكلانا

الفة : صال استطال وسطا ، الجنان : الفضة . المنضد : المنظم المنسق ، ازديم : البالى . الجلمد : الصخر . المسجد : الذهب . السرمد : الدائم .

يشقى ويسعد ، ولى أمان ولك ، ولى رؤى ولك ، ولقنى أحلام ولقنىك سلطان ،
ثم ساق الاستفهام للتوبيخى ألمانى من تراب وأمانيك من ذهب ، وأمانى
للذهاب وأمانيك للخلود ، ثم أجاب : لا فهدى وتلك نجيء وتذهب .

التعليق : أسلوب القصيدة ساخر امتزجت فيه الفلسفة بالسخرية ، والسؤال
التهكمى ، والجواب المفجّم ألمانى كلها من تراب لا الخ والفاظها عربية جزلة
وهى فياضة بالمعاني الدقيقة زاخرة بالأخيلة البديعة ، وهذه القوة فى الأساليب
والمعاني ، والأخيلة يسير فى تلك القصيدة الطويلة دون أن يمسه الرهن .

(د) من أغاني الرعاة .

لرعاة اليونان والرومان أغاني عرفها أدبهم ، ولم يعرف الرعاة العرب
إلا تلك الأغاني الشعبية التى عرفت فى العصر الحاضر .

ولكن ، الشاى^(١) ، صاع هذه الأغنية على لسان الرعاة فوق جبال
تونس فى ذلك الأسلوب العربى ، وربما يكون الشاعر قد قرأ شيئاً من
الأدب العربى المترجم فنقل ذلك إلى أدبنا العربى :

أقبل الصبح يغنى للعيون الناعسة

(١) هو أبو القاسم الشاى شاعر تونس الكبير تعلم ، وقال الشعر فى شبابه
المبكر واختطفته انثى وعمره خمسة وعشرون عاماً سنة ١٩٥٤ .

درس الشعر العربى على أديبا مصر والبلاد العربية . وتأثر بشعر المهجر
والأدب المترجم أثر فى شاعريته وقد حرر القصيدة العربية من الموضوع التقليدى
والوزن والقافية ، واستقصى مرضه قرأ فى معانى الحزن والألم التى هتفت بها شعراء
المهجر ما مز من آلامه ، فتجاوب معهم ولم يفس فى مجته آلام وطنه وما يمانيه
من طغيان الفرنسيين . فأرسل نقات قلبه تلب مشاعر شجه ليحطم القيود وليس
بالمستحيل على إرادة القسرب أن تسرد ، إذا الشعب يرما أراد الحياة .

والربا تحلم في ظل الفصون المائه
والصبا ترقص أورا ق الزهور اليابسه
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامه

أقبل الصبح جميلا يملأ الأفق بهاء
تغطي الزهر والظير وأمواج الحياه
قد أفاق العالم الحر وغنى للحيه
فأفريقي ياخرافي واهرعى لى يايشاه^(١)

القصيدة : فوق جبال تونس ، وبين مراعيها الخضراء استوحى الشاعر
أغنيته مع الصباح حين أقبل يغنى ، والربا ساجدة في أحلامها تحت ظلال
الفصون المائه ، والأنسام اللينه تداعب أوراق الزهور فتزهو بالنور يختال
بين المسارب الداجنة

وقد أقبل الصبح فلا جماله الأفاق تغطي الطير والزهر والموج ،
واستفاق العالم الحر من غفوته فأفريقي أيتها الخراف وأسرعى لى .
التعليق : أسلوب القصيدة متأثر بموضوعها من حيث سهولة الألفاظ
والمعاني وفيها الأخيلة الرائعة المناسبة لسهة الصحارى والمراعى تلمسها في
الربا تحلم ، الصبا ترقص ، تهادى النور ، تغطي الزهر .

(هـ) الأماسيد : وقد تسابق الشعراء إلى تأليفها للصغار والكبار
وللأفراد والجماعات ، لبث الروح الدينية والخلق انفاضل وإذ كاه القومية
في نفوس الناس وبعث الأجداد التاريخية ، وليس من شك في أن الأفعال
ميالون بطبيعتهم إلى الإنشاد والتغنى ، وينشطون لذلك أيما نشاط ، وعلى
المرين أن يستقروا فيهم هذا الميل ، فضلا عما فيها من تعويدهم النطق .

(١) اللغة : ماس الفصن : مال . الصبا الرج اللينه . التهادى : الاختيال .
النداسة : النظلة ، البهاء . السنا والجمال . هرع : أسرع .

والجراحة في القول ويجب أن نحسن اختيار الأناشيد التي تفرس في نفوسهم
حب الفضائل ومكارم الأخلاق ، وأن نختارها من اللغة القصيدة حتى تجرى
على ألسنتهم وبألفوها

ومن أمثلها نشيد (حصالي) للدكتور محمد السعدى فرهود :

حصالى الصغيره تقودها كثيره
فى كل يوم أسقط قرشا بها وأنشط
لكسب قرش ثان ليكون لى قرشان
وهكذا إلى المساند أجمعها بالتجزئه
للآلاف والألفين حتى تفر عيني

التجديد فى أوزان الشعر وقوافيه

اخترع الأندلسيون الموشحات والأزجال وظهر بعد ذلك التشطير
والتخميس والتسبيح . وكل ذلك تجديد فى الوزن وخروج على ما عرف
للقصيدة العربية القديمة ، وفى العصر الحديث بدأ البارودى ، التجديد فى
ذلك الوزن الجديد ، :

إملا تقدرح وأعص من نصح
وارو غلى بآبنة الفرح
فالفقى منى ذافها انشرح
وهى إن سرت فى العليل صبح

(فوه حدة الوزن وأعلن فعل)

تم قاد شعراء المهجر ومعهم بعض محبي التجديد من شعراء الشرق العربى
حركة التجديد فى الوزن ، وقد أرادوا أن يخلقوا القصيدة من قيرد الوزن
والقافية الموحدة . وأن يرجعوا إلى أوزان الموشحات ، وما أكثرها .
وجاءهم فى ذلك كثير من الشعراء الناشئين .

وإذا قيل عن الناشئين من الشعراء إن ضعف محصولهم اللغوى هو الذى حدام إلى الانطلاق من قيود القافية الموحدة ، وبخاصة فى الموضوع الموحد لأنه من العسير التقيد بمعاني الموضوع والقافية ، فلا يمكن أن يقال عن شعراء كبار من أمثال شكلى ، والملازى ، والعقاد ، وإبراهيم ناجى مثل هذا القول .

وقد مر كثير من النماذج فى موضوع التجديد فى الوزن عند شعراء المهجر وفى قصيدة الملازى ، وهذه نماذج أخرى .

١ - من قصيدة « عاصفة روح » لإبراهيم ناجى :

أين شط الرجاء يا عباب المغموم ؟
 ليلى أنواء ونهارى غيوم
 أعزى يا جراح أسمى الديان
 لا يهم الرياح زورق غضبان

فقد التزم الشاعر قافية فى الشطر الأول وفى الثالث وأخرى فى الثانى وفى الرابع .

٢ - من قصيدة « الغريب والشمس » للشاعر القروى .

ربة النور جمال وكال ما أجلا
 مذ بدا وجهك من فوق الجبال وتجلي
 مال ظل الليل نحو الغرب مال ، ثم ولى

(الوحدة فاعلان والتجديد فى النظام)

٣ - بجمع البحور : وهذا لون من التجديد يتطابق فيه انشاعر فى موضوع القصيدة من بحر إلى بحر ، ومن قافية إلى قافية . ومن ذلك لإيليا أبى ماضى تحت عنوان :

الشاعر والسلطان الجائر

أمر السلطان بالشاعر يومه فأناه في كساء حائل الصبغة واه جانباه
وحذاء أوشكت ثقلت منه أخصاه

القصر ينبئ عن مهارة شاعر لبق ويخبر بعده عنكا
هو للألى يدرون كنه جماله فإذا مضوا فكأنه دكا
فالشاعر التزم بحراً في الأجزاء الثلاثة الأولى، ثم خالف ذلك في البيتين
بعد، والفاية بين البحرين مختلفة.

٤ - ومن التجديد في الإيقاع قول عبد الرحمن شكرى في وصف راقصة :

آنة	تمرج في جلبانها
كأنها	تعجب من شياها
وشعرها	كأمة نفى بها
راقصة	كالصل في أنسائها
كأنها	تندود في إهابها
تكاد أن	تخرج من ثيابها
وثوبها	يكاد أن يزهي بها

فتل هذا العرض يسطى إيقاعاً للشعر وتنفيلاً لأجزائه فيزيد من جماله
ويهيئ لحسن استقباله.

٥ - ومن التجديد ظاهرة ندعوها (التكرار) مثل قول الدكتور
عبد العزيز عتيق :

أطلعي . فالطرف ظمآن إلى معلقة كالقنبرع مرفور الضياء
أطلعي ، فاققلب هيمان إلى بسمه تخني به ميت الرجاء
فكلمة (أطلعي) مكررة بلفظها والكلمات الثلاث الباقية من الشطر الأول
والكلمات الأخرى والأخيرة من الشطر الثاني مكررات على طريق التوارد

والتوازي . وهذه الظاهرة تكشف عن رغبة الشاعر في تأكيد انتماله
وجلاء إحساسه فهو يتكلم على الحكمة التي يكررها ويلج عليها لإبرازها
من أجل ذلك

٦ - الشعر المرسل : وهو نظم الشعر دون الالتزام بروى واحد ،
فلكل بيت قافيته ورويه حسبما اتفق (وهذا اللون من النظم غير المزدوج
الذي عرفناه في متون العلوم كألفية ابن مالك ومنظومة أبي العتاهية ذات
الأمثال) .

وهذا الشعر المرسل بدأه توفيق البكري وجيل صدق الزهاوى ونظم
منه عبد الرحمن شكرى أكثر من قصيدة ، ومنه قوله في قصيدة (كلمات
العواصف) :

أرى الحسناء في ضمير ذليل وفي الديباج داجية الجبين
أرى الدنيا تضيق بكل حر فتلفظه كما لفظ البصاق
أرى خدعا تقاد بها الغواني وفي أعقابها الذل الكمين
أرى التكلّي تكاد تسيل دمعاً وفي أحشائها النار الأكل
هواجس تعتريني لست أدري أأقبلها وأقنع بالجهالة
أم ألتسّل خير من سكوت وإن الرأي ينضجه الزمان
وهذه الآيات إذا أحسننا الظان فيها لا تخرج عن خطرات محدودة كيفما
اتفق ، وفي تقديرنا أن الشعر المرسل لا ينجح في القصيدة الغنائية وقد ينجح
في تأليف المسرحيات والقصص لأن المادة الروائية تساعد على سهولة الكلام
(مؤلف الشعر من الحركات التحريرية والقومية)

مع عرض نماذج لذلك

تجاوب الشعر مع الأحداث التي مرت بمصر وغيرها من البلاد العربية
في العصر الحاضر . وكان مرآة لهذه الأحداث كلها - فقد انتفضت مصر بعد

الاحتلال انتفاضات جارية أريقت فيها الدماء ، وأزهقت الأرواح ، فهب الشعراء يمبرون عن تلك الانتفاضات ، وغدر الاستعمار الغربي بالشعوب العربية بعد الحرب العالمية الأولى فتيقظت الشعوب بعد هذا الغدر ؛ وصحت على صوت الشعر يهتف بها ، وعلى صيحة القومية العربية تنادي بالوحدة وعلى الشعر يردد تلك الصيحات .

ثم كانت ثورة سنة ١٩١٩ فتجارب الشعر مع جميع أحداثها وانبعثت نغاث الثوار شعراً ، ولعبت الدسائس الاستعمارية بين ساسة مصر لتفريق الصفوف بينهم وبين ساسة البلاد العربية ، فدوى صوت الشعر وندد وحذر من الخطر المحقق من وراء هذه التفرقة ، وكلم من ثورات صال فيها الشعر وندد وحذر ونهكم ونقد وسخر .

وأخيراً كانت الثورة الكبرى التي صفا على صيحتها الشرق العربي ، فانطلق بحطم القيود ،

تلك الثورة التي بعثت في مختلف الميادين ثورات اجتماعية وسياسية وحرية . وربع الاستعمار فعباً للجهود للقضاء عليها ، ولكن الثورة التي يحمها الشعب قامت بواجهة الاستعمار حتى صرعه ؛ وكان الجلاء ، وكان تأمين القناة ، وكان السد العالي ؛ وزحفت القومية العربية تناضل من أجل الوطن العربي الكبير ، وزحفت الثورات الأخرى إلى جانب الثورة السياسية العامة .

وانطلق الشعر يقود تلك الثورات كلها ، فكان أصدق مرآة تصور عواطف العرب ومشاعرهم وكفاحهم ، وهذه بعض الصور :

١ - مصر تتحدث عن نفسها ، للشاعر حافي إبراهيم^(١) .

(١) التعريف بالشاعر :

حافظ إبراهيم . ولد بدريوط وكان أبوه مهندساً هناك ، ومات أبوه فانتقل =

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة الأهرام في سالف الدهر سر كفوني الكلام عند التحدي
أى شيء في الغرب قد بهر النسا من جمالا ولم يكن منه عندي ؟
مارماني رام وراح سليما من قديم عناية الله جندي
لنفي حرة كسرت قيودي رغم رقي العدا وقطعت قدي
أمن العدل أنهم يردون الما اء صفواً وأن يكدر وردى ؟
أمن الحق أنهم يطلقون الآء د منهم وأن نقيد أسدى ؟

القصيدة والتعليق : قال هذه القصيدة في تكريم د علي يكن ، بعد قطع
المفاوضات المصرية الإنجليزية ، ولم يكن مادحا بل جمل موضوع التكريم
حديث مصر عن نفسها : فأهرامها تتحدى الدنيا ، وكل عجيب اعز به الغرب
كان مثله في مصر ، وعناية قته تولتها ، فردت الرماة عنها ، وهي الحرة التي
كسرت الأغلال ، وليس من العدل في شيء أن نعكر حياها ، ولا من الحق
أن يقيد المناضلون عنها .

وهكذا يسير الشاعر بهذا الأسلوب السهل الممتنع الذي يتم عن تمكن
في اللغة ، ومعانيه القوية تدفق في غير عسر ، والعاطفة الوطنية المشبوبة تلمسها
حين يتحدث في مرارة عن مجدنا ، وحين يدعو إلى بناء الحاضر بعد ليل طال .
٢ - من الشعر السيامي في نقد الأحزاب واختلافها وإن كانت القصيدة في :

ذكرى مصطفى كامل (لشوقي)

إلام الخلف بينكمو إلاما وهذه الضجة الكبرى علاما ؟

== مع أمه إلى طنطا ، وهناك اتصل ببعض محبي الأدب من طلبة معهد طنطا فبدأ
في دراسة الأدب ، وحفظ الشعر ثم دخل مدرسة الحربية ، وتخرج منها ضابطاً ،
وسافر إلى السودان ، ثم أجيلى إلى الاستبداد لا شراً كفى ثورة هناك ، وعاد إلى
مصر وأخيراً عين وكيلاً لدار الكتب ، ومات سنة ١٩٣٢ .

وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟
 وأين الفوز لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما ؟
 وأين ذهبتوا بالحق لما ركبتم في قضيته الظلاما ؟
 شبنم بينكم في القطر نارا على محمله كانت سلاما
 ترايتم فقال الناس قوم إلى الخذلان أمرم تراى
 وكانت مصر أول من أصبتم فلم نحص الجراح ولا الكلاما
 إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما
 جعلنا الحكم تولية وعزلا ولم نعد الجزاء والانتقاما
 شهيد الحق قم تره يقيما بأرض ضيعت فيها اليتامى

القصيدة والتعليق : قال هذه القصيدة حين بلغ تنازع الأحزاب على الحكم أشده فاتته ذكرى مصطفى كامل ، وقام ينقد في قوة صارمة ذلك الخلاف الكبير والعداوة والاحقاد التي تلتهم آمال الأمة ، وتدفع بالساسة إلى هذا الخذلان ، ثم ساق الحكمة الساخرة إذا كان الرماة ونقد في مرارة سياسة الساسة في أن حكمهم أصبح تولية الأقرباء والأشياء وعزل المخالفين في الرأي ، ثم هتف في حيرة : شهيد الحق قم تره يقيما ، وأسلوب الشاعر قوى بحكم النسيج شأن شوقي في كل شعره وفي معانيه قوة وعمق تصله بالحكمة في غير تكلف شأن الأديب المطبوع .

وفي الآيات التي قدمناها من القصيدة عاطفة باكية نستدر السمع على شهيد الحق الذي فقدته مصر وهي أشد ما تكون حاجة إليه ، وإلى أمثاله في الطهر والنزاهة والإخلاص ، وفيها استعارات في (ركبتم في قضيته الظلاما شبنم تارا : إلى الخذلان أمرم تراى ، قم تره يقيما) .

الشاعر معروف الرصافي ، العراقي ، (١) توقف جثمت أنجلترا على صدر
العراق وقيدت حرپته بعد الحرب العالمية الأولى :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تسبقظوا ما فاز إلا النوم
وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تعلموا
من شاء منكم أن يعد ش اليوم وهو مكرم
فليمنح لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
لا يستحق كرامة إلا الأصم الأبكم

التعليق : يتهم الرصافي حين ينهر قومه عن الكلام لأنه محرم عليهم
و حين يطلب منهم النوم لأن القاترين في الحياة هم النوم ، وحين بدعواهم إلى
التيات على الجهل ، لأن الشر في تعلمهم ، ثم ينصح في سخرية : من يريد أن
يعيش مكرماً في الدنيا ، فليكن بلا سمع ولا بصر ولا لسان ، فالكرامة للأصم
الأبكم .

وفي مرارة الألم الساخر يسوق الرصافي هذه الآيات في أسلوب عربي
صحيح ينطوى على كثير من المعاني القوية .

٤ - وبين ثوراتنا التحررية ظهر اسم دنشواي (٢) في حادثة أنارت

(١) ولد ببنداد سنة ١٨٥٧ وحفظ القرآن ثم دخل الحربية ونشل في إتمام
دراسته بها فلقباً إلى مدرسة محمود شكرى الألوسى ودرس العربية وآدابها وسافر
إلى الآستانة ليدرس اللغة العربية في المدرسة الحاشمية وحرر في مجلة الإرشاد ،
ثم تولى تدريس الخطابة في إحدى المدارس وعاد إلى العراق فاشتغل رئيس لجنة
التأليف . وهو شاعر فائز ومن المحافظين على الوزن العربي في الشعر ، ولكنه
كان جريئاً في استعمال المفردات والاشتقاق والتعريب .

(٢) قرية من قرى المنتوفية كان لها في تاريخنا الحديث مكان حين ذهب ==

الشعراء . فأرسلوا شعرهم الدأبى يبكون^١ وينددون بالوحشية الإنجليزية . فقال فيها شوقي :

يا دنشواى على رباك سلام ذهب بآنس ربوعك الأيام
تيرون لو أدركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الأحكام
وقال حافظ : وقال عبد المطلب وغيرهم من شعراء العصر فصوروا
تلك الوحشية .

ومن وحى ثورة سنة ١٩١٩ (١) يصور الشاعر المرحوم محمد الأسمر (*)
مظاهرات وعشية اشترك فيها العتيان والفتيات :

علاهم بالغداة وبانسي رعاك الله من شعب أبى
مشى للحق أعزل غير عورت يردده كزجاجة الآتى
فوا أسفا عليه وهو يقضى شهيداً بالرصاص وبالمصى
رماه الظالمون وما رعام فويل للضعيف من القوى

الإنجليز ليصيدوا الحمام فيها واشتبكوا مع أهلها . ومات جندي إنجليزى من
ضربة الشمس ، فأقام الإنجليز عكمة عاجلة ، وشقوا بعض المتهمين . واجلدوا
بعضهم .

(١) كانت ثورة ١٩١٩ ثورة عامة اشتعلت في مدن القطر ضد الإنجليز ،
وأبلى فيها المسلمون والمسيحيون أحسن البلاء ، ومات فيها الكثير من أبناء مصر
والإنجليز وسجن وعذب الكثير من المصريين .

(٥) محمد الأسمر تعلم في الأزهر وتخرج فيه وله ديوان كبير . واشتغل وكيلا
لمكتبة الأزهر ، ومات وهو فى شبابه ، وكان شاعراً قوياً قال فى كل أغراض
الشعر التى عرفتها العربية .

اللقنة : الأعزال : الخالى من السلاح . الآتى : السيل الصرع : الطرح على
الأرض ويقصد الموت ، ارتشف : شرب ، الزكى : الطاهر . الوسوسة : الصوت
الخفى ، السهرى : الريح المشرق : السيف .

رماه الظالمون فلو تراه رأيت مصارع الزهر الندى
 سلوه بعد ما ارتشف المنيا أيشعر في مرانده يررى ؟
 وليس بظالم أبداً شهيد . سقى الأوطان من دمه الزكى
 وربت ناشئات هاتفت مصر لقين بغى الأجنبي
 دهاها بالبنادق شرعات ولم تخجله وسوسة الحيل
 فياشء البلاد فذلك تقى لانت سعادة الوطن الشقى
 لقد قتلوك لم تحمل حساماً ولم تظعن بأسمر سميرى
 فكيف إذا نهضت وقت نعى لما ترجو محمد المشرقى ؟
التعبئة والتعليق :

يتحدث الشاعر عن الملاحم التي دارت بين شعب والإنجليز وأن الشعب
 على الرغم من أنه أعزل قام بثورته ، واندفعت أصواته كرمجة البحر النائر
 — ويصور الضحايا الذين ماتوا بالرصاص والعصى ، وأن الطغاة رموه ، وويل
 الضعفاء في عصر القوة ، ثم وصف اشتراك الفتيات في المظاهرات ، وأن الإنجليز
 لم يرحموا ضعفتن حين رموهن — ثم يقول لهنم حاربونا ، ولم تحمل سلاحاً
 ولم تظعنهم برماح فكيف يكون الحال لو تسلحنا وجاهناهم بقواتنا .
 يصور الشاعر كل ذلك في أسلوب سهل سلس ، وفي معان قوية ، وهو
 يترجم هذه الأحداث في عاطفة نائرة تعب عن هذه الفترة من حياة قضاينا
 وتصور كفاح الشعب من فتيان وفتيات .

القومية العربية

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وتلفت العرب ينتظرون من
 المستعمرين وفاءهم وتقديرهم لجهودهم فأراهم إلا الجحود والتشكر للعرب ،
 وانبعثت همسات الشعوب تنأجج بالوحدة ، ثم اندفع صوتها سنة ١٩٤٥ يدعو
 إلى تحقيق هذا الحلم . وقص الله أن يتحقق اجتماع العرب لبحث فكرة

إنشاء الجامعة العربية للتشاور فيما ينبغي أن يكون ، واستقبل الأستاذ على الجارم^(١) اجتماع العرب في هذه المناسبة بهذه القصيدة تحت عنوان :

العروبة

قال في المطلع :

سنا الشرق من أى الفراديس تنبع . ومن أى آفاق النبوة تلمع ؟

ثم قال في الوحدة :

لقد كان حليماً أن نرى الشرق وحدة ولكن من الأحلام ما يتوقع
إذا عددت راياته فهي راية وإن كثرت أوطانه فهي موضع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا لنا الشرق حد والعروبة موقع
تذوب حشاشات العواصم حصرة إذا دमित من كف بغداد إصبع
ولو صدعت في سفح لبنان صخرة لك ذرا الأهرام هذا التصدع
ولو يردى أنت لخطب مياهه لسالت بوادى النيل للنيل أدمع
ولو مس رضوى عاصف الريح مرة لبانت له أكبادنا تنقطع
أولئك أبناء العروبة ما لهم عن الفضل منأى أو عن المجد مزع
هم في ظلال الحق جمع موحد وعند اللقاء رأى فرد يجمع

القصيدة والتعليق :

استقبل الشاعر بهذه القصيدة زعماء الشرق العربى فتحدث عن الحلم الذى تحقق باجتماعهم ، ومن راية العروبة الموحدة ، والوطن الواحد ،

(١) الأستاذ على الجارم : أحد زعماء الشعر في العصر الحاضر ، تعلم في الأزهر وتخرج في دار العلوم ، وسافر في بعثة إلى إنجلترا وثقف بالثقافة الغربية التى كان لها أثرها في أدبه وهو من أكثر شعراء مصر تحدثاً عن مجد العرب ولتتهم وأبرز ما كان فيه قوة شعره وجودة لفظه وحسن أدائه حيث كان يترجم عن معانيه بحركاته وإشاراته : فكان مثلاً أى مثل في الإلتناء .

والمشاعر الواحدة ، مشاعر الألم المتجاوبة بين بغداد ولبنان ومصر وسوريا
والسعودية ، فكلنا أبناء العرب في ظلال الحق جمع موحد وعند الرأي
فرد بجمع .

والأسلوب محكم بفيض بالقوة ، وأروع مانراه حين يتحدث عن
مفومات الوحدة : الراية والوطن والمشاعر واللغة التي أحبا فلم تبخل عليه
بروائها تغلما على نسجه ، وترجى إليه الأنفاظ الجولة حيث يريدنا ،
وترى الترابط القوي بين المعاني التي يسوقها ، كما ترى حسن التصوير في
ذوب العواجم العربية ألما لأصبع بغداد الدامية . وتزلزل الأبرام إذا
تصدعت عثرة في لبنان الخ . ثم ترى العكس الجميل جمع موحد - فرد
بجمع والجناس (النيل النيل) .

ونكثذا نبذو القصيدة فياضة بالقوة والجمال شأن شمره كله .

تأميم القناة

وفي الثورة الأخيرة التي خلقت مصر الجديدة وأرست قواعد العزة
والكرامة ، كان أعظم حدث بدأت به حياة العزة هو إجلاء الناصيين عن
البلاد بعد أن جنموا فوق صدرها أكثر من خمس وسبعين سنة :

والله ما دون الجلاء ويومه يوم نحيه الكائنات عيدا
ثم كان تأميم القناة التي حفر في صدر الوادي لعمدة بالحياة ، فاستغلها
الغرب ، وجعل منها داء في صدر الأمة ، وكان تأميمها الحلم الذي اهتزت
له المشاعر ، وقاض الشعر يعبر عن هذه الفرجة ، وكان أروع انصاف إلى
قيلت قصيدة :

اللغة : النسي . الضيرة : الفراديس جمع فردوس . الصنح . الشق . بردي .
نهر في سوريا . رضوى . جبل في الحجاز . المنأى البعيد .

تأميم القناة

للشاعر محمود غنيم^(١)

منها :

ربض الجيش على خط القناة وعلى شطآنها ألقى عصاه
أيها الجيش أعددا للحمى فلذة قد نزعوها من حشاها
هي قلب النيل إلا أنهم وضعوها بين أضلاع سواها
سألت الموت إلى مصر وإن بعثت في الشرق والغرب الحياة
حينما قال ، جمال ، أمت رقص الرادى وغنت أضفائها
وسرت في كل عطف هتزة ونمشت بسمه فوق الشفاه
وأظلم النيل عجب شامل فيه حيا كل مصرى أخاه
ما بيني التأميم سدا عالياً بل بيني للنيل جاهاً أى جناه
هذه الثورة من عاصمها وعلى قائدتها أننى عمداه ؟
وأقربت بناها أعين تنكر الصبح إذ لاح سناه

القصيدة والتعليق :

يربض الآن جيش مصر على القناة لحمايتها بعد أن حرم طويلاً من حمايتها.
وكانت القناة قطعة مقطوعة من أحشاء الحمى ، فطلب من الجيش إعادتها لأنها
قلب الحمى النابض بالحياة وضعوها بين أضلاع غيره ، وقد جرت الموت على

(١) الشاعر محمود غنيم رحمه الله ، تعلم في الأزهر وتخرج في دار العلوم ، عين
مدرساً للغة العربية في مدارس الحكومة ، ثم دعى إلى فتحبش اللغة العربية بوزارة
التربية والتعليم ، وشيخه سجل الأحداث التي جاعرها في تاريخ عصره . وتوفي سنة ١٩٧٣
اللمة : ربضي أقام ، القلدة القطعة الضفة ، الشاطئ ، العطف بكسر العين ،
الجانب ، النى ، أضواء .

مصر ، وسامت الحياة إلى غيرها بما تحمله للعالم من التجارة ، وقد رقص
الوادى وغنى حين قال جمال : « أمننا القناه ، واهتز كل جنب وتبسم كل قم ،
وكان العيد الذى تبودلت فيه الهانى ، وإلتالم بن بها السد ، بل بينا العز
والجاء ، . وعندئذ هنا القادة كل من عادهم ، وأفر بالثورة ، وأيدها كل
من أنكرها .

كل هذه المعاني حفلت بها هذه الآيات فى أسلوب سلس يفيض رقة
وعذوبة فى تصوير بديع وخيال واسع الآفاق ، تدس ذلك فى أنها قلب
الحى يحمله غيره ، وأنها جرت الموت إلى مصر ، وبشت الحياة فى سواها ،
(وفى هذا البيت تقابل) .

وتحس فى القطعة عواطف الشوان ترقص وتتغنى وتبسم ، ويصل
بك الشاعر بعد هذا إلى أن يوم التأميم عيد أنسى الناس الخصومات .
وليس فى القطعة تكلف ، ولكنه الانسيال والتدفق الذى نحس فيه
الشاعرية الموهوبة .

بور سعيد الخالدة

كان تأميم القناه ضربة أذهلت الاستعمار ، فبدأ للدوان الجيوش الثلاثة
وثبتت مصر وإلى جانبها الشعوب العربية لهذا العدوان ، وكانت « بور سعيد »
الهدف الذى ركزت عليه قوات فرنسا وانجلترا ضرباتها ، ولكن بور سعيد
خلقت لنفسها ولأمته تاريخاً حافلاً بالبطولات الفذة وتغنى بها الشعراء ، وكان
من المهاتمين الأستاذ على الجندى فى قصيدة « بور سعيد الخالدة » (١) :

(١) التمرىف بالشاعر على الجندى ، تعلم وتخرج فى دار العلوم ثم عين مدرسا
ورقى إلى التدريس فى دار العلوم ، ثم عين عميداً لها وقد جعلت المجتمعات بشعره
فى مختلف المناسبات . اللغة : النار : النصر ، المتون : الموت الاعصار : الريح
الشديدة ، التضار : الذهب ، انبرت : اعترضت ، تشدو : تغنى ، القريض :
الشعر ، الرغى : الحرب ، المنصار : المشعل

لجبيذك السامى الأشم الغار ولخصك الباغى الأنيم العار
 هبطوا عليك من السماء ومادروا أن السماء على حماك تغار
 فتلقفتهم فى الهراء صواعق فيها المتون واقهم إعصار
 أفديك فديت الحى ووقته والبر يرف عنك والإيثار
 كنت النصار على اللطى وعلى اللطى يصفوا النصار وتذهب الأكار
 غنى الحديد لنا بياسك قانبرت تشدو به وترجع الأشمار
 زيدى القريض حية وحماة إن القريض له الوغى معار

القصيدة والتعليق :

يسجل الشاعر مواقف «بور سعيد» و بطولتها فى أثناء العدوان ، ويتخيل
 أكاليل النصر على جبينها والدار للباغى عليها ، ثم تحدث عن جنود مظللتهم
 حين هبطوا وتلقفتهم الصواعق والأعاصير ، وأنقذت «بور سعيد» بكفاحها
 الحى ، وكشفت المحنة عن معدنها الخالص ، وحين حمل الحديد ، الراديو ،
 أبناء النصر وأغانيه رجعت الأشمار الغناء ، والشعر ثيرة الحروب ،
 فزيدى «يا بور سعيد» قوة وحية .

تزخر الآيات بالمعاني وفى نسجها تبرز الحقائق التى عنى الشاعر بتسجيلها :
 هبطوا من السماء ، فديت الحى ، فتلقفتهم .

مع الثورة الاجتماعية

وتجاوب الشعر مع الثورة الاجتماعية منذ بدأت نهضتها فهب يؤلف
 ويدعو ويمتف فى كل ميدان انبعث فيه حياتنا الاجتماعية وما أكثر ميادينها

١ - فى ميدان رعاية الطفولة والإسعاف جالت أفلام الشعراء قال :
 محمد عبد المطلب - قصيدة مظللتها :

أسالت باكية الدياجي مالها أرقت فأرقت النجوم حيالها ؟
وقال حافظ إبراهيم :

أيها الطفل لا تخف غنت الدهر ولا نخش عاديات الليالي
قيض الله للضعيف نفوساً تعشق البر من ذوات الجمال
أى ذوات الجمال عشقن للبر ودمتن قدوة للرجال
راعنى من نفوسكن جمالا يتجلى في هالة من جلال
وجمال النفوس والشعر والأخلاق عندي أسمى بحال الجمال
قد أجبتنا ندامكن وجنتنا نسال القادرين بعض النوال
لو ملكتنا غير المقال لجذنا إن جهد المقل حسن المقال
كم يتيم كذبت به الباء لولا رعاية الأبطال

القصيدة والتعليق :

هذا الشاعر البائس بصور موقفاً من مواقف البؤس ، وما أروع تصويره
في مثل هذا ، وهذه إحدى قصائده التي أبدع نسيجها ، لأن الأطفال البائسين
يلتقون معه في بؤسه ويتمه المبكر وقد دغته (جمعية رعاية الأطفال) ليسهم
بشعره في ميدان البر ، فهتف بالطفل المسكين ، لا تخف بعد من ظلم الأيام ،
ولا عوادي الليالي . فقد هيا الله لك نفوس النساء التي عشقت البر ، ثم دعا لهن
بالحياة وأن يكن قدوة للرجال ، وتحدث عن جمال نفوسهن بين هالات الجلال
ثم عرض مهمته ، وأنه جاء يستجدي القادرين شيئاً من العطاء ، وترجم عن
حالته هو ، وأنه لا يملك إلا حسن القول ، وهذا نثر منه بشاعريته .

أسلوبه : فاضت شاعرية وحافظ ، كبدأها في هذا اللون من الشعر في
أسلوب سهل متمتع ، ولفظ أنيق رقيق استدر به الشاعر عطف القادرين ،

الثقة : العنت : الظلم ، الجمال : جمع جملة موضع يزين بالآثار للعرض
الهالة : الدائرة البيضاء حول القمر ، النوال العطاء ، المقل : الفقير

وهذه الرقة اعتذر عن عدم تقديم شيء من المال ، لأنه لا يملك إلا القول ولن يخل به أبداً .

والشاعر يصور الكثير من الحقائق في أسلوب أضفى عليها الجمال ، وعاطفته الباكية لها أثرها في جمال القصيدة ، ناسبها في نداءه : أيها الطفل لا تخف ، وهذه العواطف الجياشة هي التي استلهمها ، واستعان بها على الوصول إلى القلوب فاهتزت للبذل .

٢ - البناء لوزكي فنصل (*) :

والبناء من أصحاب الحرف ، والحديث عنه وعنهم من الشعر الاجتماعي الذي يتناول ما هم فيه من شقاء وتعاة وما يلقونه في سبيل لقمة العيش من عنت وجهد . وقد أنشأ هذا الشاعر نحواً من عشرين قصيدة ، تناولت كل قصيدة منها صاحب حرفة ، ووسعت إحساس الشاعر إزاهم .

وما يقوله الشاعر عن البناء ، :

بني القصور وكوخه خرب ساءت حياة كلها تعب
لا يزجي في ليلة قنبر إلا تولت طمة النوب
لكأنه في الناس حاشية وكأنه في الأمل مغرب
جليبانه رقع تألفها غرض وباعد بينها نسب
مشت السنون عليه فاختلفت أصابعه وتقارب السبب
تلوى الرياح به فإن سكنت فتحت عليه تقويها النحب
يا غانماً بالطين لا نصب يبرهي عزيمته ولا وصب

(د) زكي فنصل من شعراء المهجر ، وأصله من سوريا ، ولد في مدينة (بيروت) سنة ١٩١٩ وتعلم في مدارسها ، وهاجر مع أهله إلى الأرجنتين في العاشرة ، واشتغل بكثير من المهن ، وانتفى به المظالم إلى الصحافة ، ومعظم شعره اجتماعي ووصفي تأملي ، وله عدة دواوين منها (أوتار القلب ، وأحوالك ، وشظايا) .

ما أنت أول كادح عثرت آماله وكبابه الدأب

التعليق :

هذا هو البناء ، وظيفته بناء القصور وتشيد الدور ، ليسكنها ساكنوها ويحتموا بها من غوائل البرد والحر ، ولكن البناء لا يستطيع أن يصنع لنفسه بناء مثل بنائهم ، وغاية ما يصنعه لنفسه ، كوخ خرب ، ، ولهذا تعجب الشاعر من هذه الحياة حياة كلها تعب ونصب . والبناء يعيش في هذا الكوخ عبثة الفقراء الذين يفتقدون الدفء فهو لا يشعل قسيماً ولا يصلي ناراً . لأنه لا يجد القبس والنار ، وإن وجدها فالنوب والمحن كفيلة بتفخيص عبثه وضمير معالم الدفء في كوخه . وهو يعيش بين الناس كما هملاً (ولهذا يشبهه الشاعر فيهم بالخاشية من الثوب وبالغريب وسط الأهل) ونسوة حاله فلا يلبس إلا المرقع من الثياب برقع مختلفة الألوان ، جلباباً لا يصد عن جسده العاري عادة الرياح فلا تلبث هذه الرياح أن تتلاعب به ، وإن كفت عنه قال أمد ولتتركه لأمطار الشتاء تصيبه وتوسع جلده وتخزه بالأمراض والعلل .

هكذا وصف الشاعر ، البناء ، كما رآه ، ثم أراد أن يسليه مخاطبه بصفته الملازمة له ، الغائص بالطين ، بأنه ليس أول كادح كبابه سعيه ودأبه ، وليس أول إنسان خابت آماله وضاع بين قومه جهده ، فهناك غيره كثير من الكادحين المحرومين ، الذين عاشوا على هامش الحياة ، يقتنعون - على الرغم منهم - بالجوع والعري والحرمان .

وأسلوب القصيدة - كما ترى - سهل يكاد يكون نثراً ، لأن الشاعر من شعراء المهجر الذين آثروا السهولة وخفة الألفاظ والعبادات ورفضوا التكلف والإغراب والتشديق باللغة وتراكبها .

والصور التي أوردها الشاعر متوزعة من ظروف البناء ، ومهنته ومركزه

الاجتماعي بين قوم لم يحترموا بعد المهنة ولم يقدرُوا العمل قدره . واعتمد الشاعر في تصويره على المقابلة والتشبيه والاستعارة والكنابة .

نماذج بقية أغراض الشعر

غير ما قدمنا في تجاربه مع الثورات والحركات القومية

١ - من شعر المعمارك والبارودي (١) ، يتحدث عن الحرب التي خاضها الروس مع الدولة العثمانية (٢) .

أدور بعيني لا أرى غير أمة من الروس بالبلقان يخطئها العد
جوات على هام الجبال لغارة يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
فانت ترى بين الفريقين كبة تحدث فيها نفسه البطل الجمد
على الأرض منها بالدماء جداول وفوق سرة النجم من نغمها لبد
إذا اشتبكوا أو أرجفوا الزحف خلفهم

بحوراً توالى بينها الجزر والمد
فهم بين مقتول طريح ، وهارب ضليح ، ومأسور يجاذبه القيـد

(١) محمود سامي البارودي ، زعيم نهضة الشعر كان ضابطاً ، واشترك في معارك حربية وفي الثورة العربية ، ونفى إلى مرنديب ، وأقام بها سبعة عشر عاماً ثم عفى عنه ، ومات في القاهرة بعد عودته بستوات ، وله ديوان كبير ، ويمتاز شعره بقوة ألفاظه ودقة معانيه وإن كانت قديمة ، ويعتبر رائد النهضة الشعرية في هذا العصر

(٢) ليس هذا الغرض بتحديد بل قال فيه شعراء المعصرين السابقين كالخليل ، وعنترة وحسان بن ثابت ، وكثير غيرهم .

اللغة : جنا ، جلس على ركبتيه ، الهام : الروس ، القنا : الخراب : الكبة ، الحلة : الجعد : الكرسم : السراقة : الظهر : النقع : الفبار : البلد : ما تلبد من شمر الطليح ، المهزول : القعد : السوط .

هذه آيات من قصيدة طويلة يصف فيها المعركة وهي زائخة بما يخطئه
العد من الروم ، ويتلفت الشاعر فيراهم يحشون على قم الجبال استعداداً
للمغامرة عنيفة عند الصبح تطارد ضوءه بما يثير الغبار وحين يبدأ سير الجيش
يظهر الشر ، ويحمل صليل الحرب صيحات الموت ، ويستमित الجند ، وحين
نكر الجيوش تفزع قلوب الأبطال فيحدث كل بطل نفسه بالفرار خوف
الموت ، وتجري الدماء جداول (كناية عن عنف المعركة) ويعلو الغبار ،
فينعقد على ظهر النجم لبداء استعارة) وإذا اشتبكوا أوتيهوا للقدم رأيت
بين الجيش الجزر والمد (تصوير جميل) والجند بين قتيل وهارب وأسير
(مراعاة نظير) وترصيع في قوله مقتول طريح وهارب طليح .

النقد : أسلوب الشاعر قوى مناسب للغرض بحكم النسيج غنى بالألفاظ
العربية (كالحمد ، ولابد ، وطليح : وقد) والشاعر معنى بالتصوير حيث وضع
تحت أبصارنا صور المعركة . فنرى من خلال الآيات الجواثي على هام الجبال
وضوء الصبح يطير أمام تكاثف الغبار ، وجداول الدماء ، والجزر والمد
(بين الجيش والقتلى والهاربين والأسرى) المقيدين مراعاة نظير وهو يسوق
الحكمة إذا واته فهو متأثر بالمتنبي في هذا ولهذا يعتبر من شعراء الحكمة .

في الوصف

٢ - الموسيقية العمياء للشاعر علي محمود طه^(١)

(١) الشاعر علي محمود طه ، ولد في أوائل هذا القرن والتحق بالمدارس
وتخرج في الفنون التطبيقية وتنقل في المناصب حتى عين وكيلاً لدار الكتب ،
ومات في ريعان شبابه سنة ١٩٤٩ وقد حفظ كثيراً من التراث العربي ، وتعلم
القليل من الأدب الغربي وقال الشعر واتجه إلى التجديد وأبرز ما في شعره
الوصف وعنى بالألفاظ شعره ، وله دواوين منها (زهر وخمر) و الملاح البائس
و ليالي الملاح ، ومن شعره الجندول والكرنك

إذا ما ضاف بالأرض شعاع الكوكب المضي
إذا ما أنت الريح وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر عيون الترجس الغض
بكيت لزهرة تبكي بدمع غميز مرفض

زواها الدهر لم تعد من الإشراف باللمح
على جفتين ظمأ نين للأنداء والصبح
أهدد النور ما لليل قد لفك في جنح ؟
أضيتي خضر الدنيا ووارسناك في جرحى

إذا ما أقبل الليل وشاع الصمت في الوادى
خذى القيثارة واستوحى شجون سحابة الغادى
وهزى النجم إشفاقاً لنجم غير وقاد
لعل اللحن يستدنى شعاع الرحمة الهادى

التقصيدة والتعليق :

رأى الشاعر هذه الموسيقى العمياء ، وهى تجيد العزف على القيثارة ،
فتحركت عواطفه الشاعرة وأضال في رفته المعهودة يصورها ، ويكي حين
يطوف بالأرض شعاع البدر فيبصره ، ويذكر أنها لا تبصره ، وحين يشتد
الريح ويجيش البرق وتفتح عيون الترجس في الفجر عند كل هذا يذكرها
ويكى من أجلها .

وقد أبعدنا الدهر عن الحياة فلم نسمع بلحمة من الأضواء ، وجفتناها
ظلماتى أروية الندى والصبح ، ثم يسأل ما لها - وهى مهد النور وتضئ النفوس
بموسيقاها - ما لها قد لفها الليل في ظلامه ؟ ثم يطلب منها أن تضئ خواطر

الناس بالحناء ، وتلقى سنا في جرحه هو ، ويطلب منها أن تمسك بقيثارها
حين يقبل الليل ، ويسود الصمت ، وتستلم أحزان السحب ، وتهز النجم ،
على هذا اللون يدها بشعاع من الرحمة .

وقد اختار الشاعر الوزن القصير الذي يناسب الموسيقى في إيقاعها ،
وتأنق في اختيار الألفاظ المناسبة للوضع مثل شعاع وكوكب وعيون
الترجمر ، وإشراف ، وأنداء ، وصبح ، وقينار ، وتمتلى القصيدة بالخيال
الواسع ، والآفاق الشاسعة التي سبغ فيها فتراحت عليه ، وتخبر منها الجبل البارح
٣ - من الشعر التمثيلي^(١) من مصرع كليوباترا - مشهد في مكتبة القصر

يجلس حاي وديون وإيسياس يستمعون إلى الشعب خارج القصر يعني :

يومنا في اكتيونما ذكره في الأرض سار
أسألوا أسطول روما هل أذقناه الدمار ؟
أحرز الأسطول نصرا من أعطاف الديار
شرفا أسطول مصرأ حزت غايات الفخار
صارت الإسكندرية هي في البحر المنار
ولها تاج البرية ولها عرش البحار
حاي : اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه

(١) الشعر التمثيلي فتح بابه شعراء الشام ، ثم تواروا وأدخل فيه شوقي
قدوس تاريخ مصر القديم وأحوال المجتمع السياسية والاجتماعية ثم طالع
العربية (بمصرع كليوباترا) ودرس تاريخ الفرس وبجتههم وطالنا برواية قبيز ،
ودرس المجتمع في العصر الأموي ، وطالنا بمجنون ليلى ، ثم تاريخ مصر قبل
العصر الماضي ، وطالنا برواية علي باشا الكبير . وهذه المسرحيات كلها فيض
عفوية شوقي الدارس المستقى للتاريخ من نواحيه السياسية والحربية والاجتماعية
ثم خرج من هذه الدراسات بهذه المسرحيات التي تصور في دقة حياة المجتمعات
ولا يقتنى ذلك إلا لشاعر ماهر .

ملا الجو هتافا بحيانى قاتله
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله من يقاء عقله فى أذنيه

ديون: حابى سمعت كما سمعت وراعى أن الرمية تحتفى بالراى
هتغوا بمن شرب الطلافى تاجهم وأعار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام

يكشف شوقى فى هذا الجزء من المسرحية عن خداع موظفى القصر
وتمويههم على الشعوب حيث هزم الأسطول المصرى . ولكن بعض حاشية
القصر دبوا خداع الشعب ، فأذاعوا الانتصار ونشيد النصر هو ذلك
النشيد الذى تدفق به الشعب على أبواب القصر ينشده : إن يوم أكتيوما
من أيام البطولة .

وقد سار ذكره فى آفاق الأرض فسلوا أسطول أعدائنا كم أذقناه ،
وقد أحرز أسطولنا نصراً هزت فرحته البلاد ، وقد أحرزت مصر به ثغراً
أى ثغراً ، وأصبحت به الاسكندرية مناراً ، ثم ينبرى حابى أحد موظفى القصر
فيطلب من ديون أن يصيح إلى هذا الشعب وما أوحوا إليه فهو يهتف بحياة
من قتلوه وقد انطلى عليه الكذب والضلال ، ثم يتمجب حين يراه كاليقاء
يردد ما يسمع دون تفكير .

ويجيب ديون : سمعت كما سمعت ، وفزعنى أن أرى من رُمى يهتف بحياة
من رماه . ويهتف بمن استباح حربته ، وسخر من كرامته فشرب الخمر
فى تاجه ، وصير عرش بلاده مهداً للحب ، ومشى على تاريخ أجداده هازئاً ،
ولو استطاع أن يدوس أعظم مفخرة من مفاخرنا (وهو الأهرام) لداس .
فى هذه الآيات كشف الشاعر فيها عن :

١ ... سياسة القصور وخداعتها للشعوب.

٢ .. الشعب المخدوع كاليغاف .

وكشف كذلك عن فترة من تاريخ كيبوترا ، وأن أنطونيو سخر من تاريخ مصر وعزتها حين صير عرشها مهداً لحبه ، وأن الشعب سيق إلى تمجيد الساخرين منه .

وكل هذا لا يتأتى إلا لدارس لهذه الفترة من التاريخ .

الأسلوب : سهل يمتنع على كثير من الشعراء وقد حفل بتصوير الشعب المخدوع (ياله من يقاء) هتفوا بمن شرب الطلاء - متى على تاريخهم مستهزئاً ومثل هذه المرحيات تطلب الأسلوب السهل والمعاني القوية والتعقيد بمقائده التاريخ مع البعد عن الإسراف في الخيال إلا فيما يتطلبه الموقف التمثيلي من تصوير .

١ - في الغزل^(١) لبشارة الخوري^(٢) :

الصبا والجمال ملك يدك أي تاج أعز من تاجيك
نصب الحسن عرشه فمألتنا من تراها له فدل عليك
كلنا نانس الصببا بجمال عبقري السنا نماء إليك
ما تنقى الهزار إلا ليلتي زفراء الغرام في أذنيك

(١) ليس الغزل جديداً على الشعر في هذا العصر ولكن الجديد مزج الغزل بالطبيعة .

(٢) شاعر لبناني اشتغل بالصحافة في شبابه المبكر ، وأنشأ جريدة البرق سنة ١٩٠٨ وشارك في النزعات القومية والوطنية والسامية وقد عاش حياته بين أحضان الطبيعة الجميلة في لبنان يستلهمها الجمال فتفيض عليه رقة ، وبلغت رفته الغاية في الغزل الذي يتطلب السلامة والتذوبة وهو يستمد معانيه في الغزل من شعراء القدامى كما استلهم منهم الكثير من الصور والتشبيهات ولكنه مزج بين القديم والجديد الذي وقف عليه من ثقافة الغربية .

سكر الروض سكرة صرعه عند مجرى العير من نهديك
قتل الورد نفسه حسداً منك وألقى دماه في وجنتيك
والفراشات ملئت الزهر لما حدثتها الأنسام عن شفيتك

القطعة والتعليق :

لقد ملكت العبي والجمال ، وتوجت بهما وما أعزهما ، وقد أقيمت
مسابقات الجمال ، ونصب عرش الحسن وتلفتنا نسال من تلك الملكة التي
تنعم بذلك العرش ، فأشار الجمال إليك . وكل جمال عبقرى وضاه نافس
به الصبا يوماً عزاه إليك أنت . والهمز لم يغرد يوماً إلا ليبتك نجواه ،
ويطلق في سماءك زفرات حبه (مبانغة في هيام الطيور بها) . والروض سكر
وصرعه رائحة نهديك ، والورد قتل نفسه حسداً . والفراشات حملت إليها
الأنسام أخبار شفيتك فملت الزهر الذي ترشف منه (كناية عن حلاوة
شفيتها وإزدهارهما) وهكذا ربط بين هذه اللقائنة والهمز والروض والعير
والورد والزهر والأنسام والفراشات وعبارته تسيل رقة ، وخياله ضلّق
يتجلى في تصوير حب الهمز لها والروض النشوان من عير نهديا ، والورد
الذي يقتل نفسه حسداً منها ويلقى دمه في وجنتها ، والفراشات الحائمة التاركة
غداها من الزهر حين حملت إليها الأنسام أخبار شفيتها : في كل هذا تظهر
الآخيلة البارة والصور الرائعة .

هـ - في الزناء^(١) . من قصيدة بشاره الخوري في رثاء شوقي :

قف في ربا الخلد واهتف باسم شاعره

فسدرة المنتهى أدنى منابره

(١) ليس الرثاء بمجديد على الشعر وإنما الجديد ذلك الذي سبّح فيه الشاعر
وعو يثلم هذه المرتبة .

واسمح جيبك بالركن الذى انبلجت
 أشعة الوحى شعراً من مناره
 قال الملائك : من هذا فقيل لهم
 هذا دوى الشرق هذا ضوء ناظره
 هذا الذى رفع الأهرام من أدب
 وكان فى تاجها أغلى جواهره
 هذا الذى لمس الآلام فابتسمت
 جبراحها ثم ذابت فى محاجره
 شوقى أنذكر إذ (عاليه^(١)) موعدا
 نعمنا وما نام دهر عن مقاديره
 وإذا طلعت علينا أصفرأ وجلأ
 كالدر خلف رقيق من ستاره
 سألتيه رثاء خسيذه من كبدى
 لا يؤخذ الشيء إلا مصادره

القصيدة والتعليق :

هذه أبيات من قصيدة بشاره الخورى فى رثاء شوقى وقد ضافت آفاق
 الدنيا على الشاعر فانطلق بخياله إلى العام الآخر إلى الجنة ، وسجد من نفسه
 شاعرأ استوقفه دأب شعراء الجاهلية فى قولهم (قف بالطلول) أوقفاً بك .
 فهتف بشاره بمن جرده من نفسه : قف بين وارف انظلال فى ربا الخلدوين
 باسم الأزهار ، واهتف باسم شاعر الخلد (إضافة جميلة رشاعره) وأقرب من
 إليك من منابر شوقى هو (سورة المنتهى) (مغالاة) لأن سيرة المنتهى كما يقول
 المفسرون شجرة على يمين العرش عندها جنة المأوى ، ولكنه الشعر والخيال ،
 ثم يطلب الشاعر من جرده أن يتمسح بذلك الركن الذى سطعت أشعة الوحى

(١) عاليه : اسم باد بلبان .

من منارانه الشائخة إنه مقام شوقي يتمسح به كما يتمسح بالأماكن المقدسة .
هذا غلو .

ثم عرض مزال الملائكة من هذا فيقال لهم : هذا حب الشرق تجسم
فكان شوقي ، وهذا ضوء ناظر الشرق - هو الضوء الذي يرى به الشرق
فلا يرى بعد أن غاب الضوء عنه (نظرية معروفة في الضوء) .

هذا الذي شيد للأهرام مكانة بشعره الذي وضعه في تاج الأهرام ،
وكان شعره فيها - أعلى جوهرة من جواهر أدبه . - هذا الذي لمس آلام
الناس جميعاً فتفتحت جراحها له ثم ذابت في محاجرهم فجرت دماً ودموعاً
تلمسها حين يتحدث عن آلام الناس فهو الشاعر الحساس المتأثر بما يحس
والمترجم عن إحساسه .

ثم ذكر الشاعر أنه كان على موعد مع شوقي في عاليه من أرض لبنان
وأنهما تأما ، ولم ينم الدهر عن مقاديره ، وكان الشاعر قد رأى شوقي آخر
عام له وهو شاحب كاليدرد خلف السحاب الرقيق ، وطلب شوقي من الشاعر
أن يرثيه إذا مات فوفى له وهذا الرثاء صادر من الكبد الحرى ولا يؤخذ
الشيء إلا من مصادره .

وهكذا جمع الشاعر الكثير من الألفاظ المناسبة لخياله الذي ميسج به
في الجنة ، كالخلد ومدة المنتهى والملائكة .

وفي المعاني شيء من الجدة في قوله (هذا ضوء ناظره) وفي (لمس
الآلام فابتسمت جراحها) .

النشر

ينقسم النشر إلى قسمين : ١ - الكتابة . ٢ - الخطابة .

١ - الكتابة وتنقسم إلى :

١ - كتابة الدواوين . ٢ - كتابة تدوين . ٣ - كتابة أدبية .

١ - كتابة الدواوين وخالتها من أول العصر إلى اليوم .

حفظت اللغة التركية على كتابة الدواوين في العصر العثماني ، وامتد طغيانها إلى فترة من أوائل العصر حيث كانت لغة الدولة في أول عهد محمد علي ، ثم خلفها اللغة العربية ، لكنها العربية الركيكة التي تدب فيها العامية مع فيض من المصطلحات التركية . الأمر الذي جعل الكتابة الديوانية مهمة لا يفهمها سوى من مرورا عليها .

وبقيت على حالها هذه مدة طويلة لم تتأثر بالنهضة الأدبية ، وقد يكون سبب هذا أن الأباطغمة الذين كانوا يعملون في الدواوين ، ومنهم من تولى الوظائف الديوانية بالوراثة ، ولم يكن العمل في حاجة إلى ثقافة بل إلى المراسنة والتدربة . وقد عني « عبد الله باشا » بكري ، في عهد إسماعيل بترقية اللغة الديوانية إلى العربية فنجح بعض النجاح .

ولما تقدم العصر بدأت الكتابة الديوانية ترقى ، وأول من عني بذلك « سعد زغلول » حين عهد إلى « المنفلوطي » بالإشراف على لغة الدواوين في (نظارة المعارف) حين كان وزيراً لها ، فلما نقل « سعد » إلى احتشابة تنقل معه « المنفلوطي » لمثل هذه المهمة نفسها .

وبعد ذلك كثر المثقفون وحملة الشهادات في الدواوين فارتقت أساليب الكتابة ، حتى أصبحت عربية فصيحة خالصة من الخطأ غالبة .

نموذج للكتابة الديوانية في أول العصر

أمر كريم صدر بتاريخ ٧ يونية ١٨٨٠

« قد علم لدينا من الإنهى^(١) الذى تقدم لطرفنا من عبد الله سليمان ومن مكاتبكم الواردة لمعتنا^(٢) أن الشخص المذكور كان مستخدماً من ضمن أسطوات^(٣) الجبه خانة^(٤) الترك وفى أثنى خدمته تعين لتوصيل مركب البارود خانة^(٥) بالبارود مشحونها إلى جبه خانة العدوية ، وعند الوصول إليها خرج من المركب وتركها فأصابها الحريق بمشحونها ، وقد نسب له الإهمال والتساهل فى ذلك ،

أسلوب الكتابة الديوانية فى ذلك العهد :

أسلوب أكثره بالانفاظ العامة ودخله كثير من المصطلحات التركية مثل جبه خانة وبارود خانه وفيه أخطاء إملائية مثل وفى (أثنى) مع القصر الذى لا مجر له حيث أريد (أثناء) أخطاء لغوية فى نحو (خدمته) .

٢ - كتابة التدوين

انتقل ما كان لكتابة التدوين من الضعف من العصر العثماني إلى أول العصر الحاضر فكانت كتابة التدوين ضعيفة تغلب فيها الزكة والألفاظ الدخيلة كما فى تاريخ الجبرنى - وكانت فى بعض الأحيان سليمة غير أن الصناعة طاغية عليها كما فى كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرنى أيضاً .

(١) الإنهى : مصطلح بمعنى المكتوب الذى انتهى إلينا .

(٢) المعتبة : مصطلح كان مستعملاً إلى وقت قريب بمعنى البلاط أو القصر .

(٣) أسطوات جمع أسطى . مصطلح معروف بمعنى الماهر فى عمله .

(٤) مصطلح تركى بمعنى الذخيرة .

(٥) البارود خانة مصطلح تركى بمعنى المفرقات .

ولما طبعت الكتب القديمة ، وقرأ العلماء أساليبها الخالية من اللحن والتكلف بدأت كتابة التدوين تقوى ، وساعد على قوتها ظهور أمثال الشيخ جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وغيرهما من النقاد الذين أطلقوا الكتابة من قيودها ، وآزرها جانب الحقائق العلمية يؤدونها بالأسلوب العلمى الصحيح . ومنذ هذا الحين أخذت كتابة التدوين ترقى ، وواصلت ارتفاعها حتى أصبحت فى مستوى يضارع الكتابة الأدبية بل إن بعض المعاصرين ممن كتبوا فى الأدب والسيرة والتاريخ أضفوا على كتابة التصنيف لغة أدبية عالية كما فى كتب المرأة العربية للرحوم الشيخ عبد الله عفيفي ، وحياة محمد ، وفى منزل الوحي للرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، والعقريات للرحوم الأستاذ العقاد ، والأدب العربى للأستاذ أحمد الزيات .

نماذج للكتابة العلمية

١ - من كتاب عجائب الآثار للجبرتي فى الكلام عن الحملة الفرنسية :
وهى أول سنى الملاحم ^(١) البطيمة والحوادث الجسيمة ^(٢) والوقائع النازلة والنوازل ^(٣) الهائلة ، واضعاف الزور ، وترادف ^(٤) الأمور ، وتوالى المحن ^(٥) واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب المطبوع ، وتتابع الأحوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدبير ، وعموم الخراب ، ونواثر الأسباب ، (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .
التعليق :

يتحدث المؤلف عن الحملة الفرنسية والمعارك التى دارت بينها وبين المصريين ، وما كان فيها من المصائب التى نزلت بمصر ، والمحن التى توالى عليها والأمور

(١) الملاحم : يقصد بها الوقائع والحروب .

(٢) الجسيمة : الكبيرة والخطيرة (٣) جمع نازلة . وهى الأمر الطارىء

(٤) يقصد توالى الأمور وحدوثها واحداً بعد الآخر .

(٥) المحن جمع حنة وهى البينة والمصيبة التى يمتنع بها الإنسان .

التي انعكست فيها ، والآهوال المتعاقبة والأهوال الفاسدة التي خربت البلاد .
الأسلوب :

استعمل المؤلف الألفاظ المناسبة للموضوع - ملاحم ورقائع ونوازل
 وعن وشور وفساد وخراب وتدمير ، واقتبس من القرآن ما يناسب الموضوع
 (وما كان ربك ليهلك القرى ... الخ) ، وانتم السجع القصير الفقرات .
 تراه بين العظيمة ، والجسيمة ، والنازلة والهائلة ، والزور والأمور . . الخ ،
 كما ترى الجنس الناقص في قوله : الأهوال والأحوال ، والتدمير والتدمير
 ٢ - من رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده في موضوع القرآن

نزل القرآن في عصر انفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار^(١)
 عند العرب ، وأغزرها مادة في الفصاحة . وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه
 بوفرة رجال البلاغة ، وفسان الخطابة ، وأنفس^(٢) ما كانت العرب تتنافس
 فيه من ثمار العقل ، وتناجح الفطن والذكاء : هو الغلب في القول ، والسبق
 إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الإذعان من العقول ، وتغانيهم
 في المتأخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه .

الموضوع والتعليق : يتكلم الشيخ محمد عبده عن موضوع القرآن ، وأنه
 معجز بفصاحته وبلاغته وأنه جاء يتحدى العرب ببلاغته في عصر يعتبر من
 أرقى عصور اللغة العربية فصاحة لكثرة الفصحاء والبلاء ، وأن أعظم
 ما سبق فيه العرب القول الفصيح والكلام البليغ الذي يخاطب العقول والمشاعر
 فيزها ، وأن تغانيهم في هذا التسابق البلاغي ليس في حاجة إلى قول .

أسلوبه : مرسل لا تكلف فيه ولا ضعف بل ساق المعاني التي يريد بها
 في عبارات قوية ، وتراكيب متينة بعيدة عن الصناعة ، وهذا النوع من الكتابة
 يمثل المرحلة الأخيرة من كتابة الشيخ محمد عبده ، وهي مرحلة البعد عن
 الصناعة والميل إلى الاسترسال .

(١) أذعصار ، جمع عصر وهو جزء من الزمن (٢) أنفس : أغلى

٣ - الكتابة الأدبية وأنواعها

يطلق على الكتابة الأدبية أيضاً الفنية أو الإنشائية

لم يظهر هذا اللون في صدر هذا العصر إلا في الرسائل الإخوانية في الشوق أو العتاب أو التعزية أو التهنية .

وغلب على أسلوبها في هذه الفترة تكلف المحسنات ، وبقيت على حالها من ضيق الموضوعات ، وتكلف الأسلوب إلى أن طبعت كتب السابقين ، ولهمت أساليبها ، ووقف على أسرار بلاغها ، وإلى أن ترجمت الآداب الغربية إلى العربية ، وأقبل المتعلمون على قراءتها والتزود من معانيها ، وإلى أن ظهرت طائفة من أعلام الكتاب الناقدين ، وإلى أن انتشرت المكتبات والصحف ، وإلى أن أنشئت الجمعيات الأدبية ، وإلى أن دخل التمثيل في مصر بعد فتح قناة السويس وإنشاء (الأوبرا) .

وعند ظهور كل هذا نهضت الكتابة الأدبية ، وتطورت من حيث الأسلوب والموضوع .

أما من حيث الأسلوب فتغير من التقيد بالمحسنات إلى الاسترسال البعيد عن التكلف ومن الاهتمام باللفظ إلى العناية بالمعنى ، ومن المبالغات المفقوتة إلى الاعتدال ومن المقدمات الطويلة إلى الموضوع والفكرة .

وظلت الكتابة الأدبية تزدهر ، وتتقدم من حيث الأسلوب ، مدفوعة بهوامل البعث والتشجيع حتى فاقَت الشعر في كثير من ميادينه .

وأما من حيث الموضوع فقد انطلقت من الحدود الضيقة التي كانت في أوائل العصر في الرسائل إلى موضوعات مختلفة الألوان ، وذلك .

١ - كالمقامات التي أحياها أدباء الشام مترسبين في ذلك آثار الحريري ، وبديع الزمان ، وجارهم من كتابنا محمد الموليحي ، في كتابه عيسى بن هشام ،

٢ - - إلى صف ، وحرف الطبيعة ، والرحلات ، والحوادث ، وخواطر النفس وزعاتها . ويبتأ المصرية الجديدة وما فيها من رياض وأنهار وجداول وقصور وألوان الجمال ألهمت الكتاب كما ألهمت الشعراء ، والصحف والمجلات تفض بهذا اللون من الكتابة . ومن أشهر كتابه المنفلوطي .

٣ - - المقالات الأدبية التي تكتب في موضوعات الأدب المختلفة .

وأسلوب الكتابة الأدبية يزخر بالمعنى الأنيق ، والعبارة المشوقة ، والتفنن في الصياغة ، ويحفل بالرائع من الخيال والصور البيانية ، وهو بعيد عن التكلف ، غير قلة من الكتاب يخلعون على أسلوبهم القوى مرسوق السجع ، يهزوا المواضع ويثيروا المشاعر .

نماذج الكتابة الأدبية

١ - - من وصف الصباح من كتاب د عيسى بن هشام ، للمويلحي^(١) ، جلسنا تتجاذب أطراف الحديث من قديم الزمان وحديثه إلى أن صارت الليلة في أخريات الشباب ، واستأثرت بالأزهار والتغاب ، ثم دب المشيب في فردها وبان أثر الوضوح في جلدها فبعث بالعقود والأقلائد ، من الجواهر والفرائد ، وزعت من صدرها كل مشور ومنظوم ، من درر الكواكب ولآلى النجوم وألقت بالفرقدين من أذنيها : وخلعت خواتيم الثريا من يديها ، ثم إنهما زقت جلبابها ، وهتكت حجابها ، وبرزت للناظرين عجوزاً شطواً ، ترتد متكئة على عصا الجوزاء . وتردد آخر أنفاس البقاء ، فهزها الفجر بملائته الزرقاء ، ودرجها الصبح في أرديته البيضاء . ثم تبرها في جوف الفضاء وقامت عليها

(١) د محمد المويلحي ابن ابراهيم بك ، المويلحي ، أخذ الأدب عن أبيه وكبار العلماء والأدباء في عصره ، وأجاد العربية والتركية ، ويمتاز بقوة لفظه ومثانة سجمه الذي يدل على تمكن من اللغة ، وقد نشر كتابه حديث عيسى ابن هشام ، منجماً في صحيفة ، مصباح الشرق ، التي كان يحررها مع أبيه .

وبنات هديل ، نائمة بالسجع والترجيل ، ثم انقلب الماتم في الحال عرس
اجتلاء ، وتبدل المنجيب بالغناء ، لإشراق عروس النهار ، وإسفار مليكة
البدور والآقار ،^(١) .

الموضوع والتعليق :

هذا اللون من الكتابة الحياية نحاه منهجى كتاب المقامات ، في العصر
العباسى ولكن بأسلوب بعيد إلى حد ما عن الإسراف في استعمال الغريب
الذى جنح إليه كتاب المقامات في العصر العباسى غالباً ، فالتكاتب يصور
في هذه القطعة آخر الليل وبفتن في الخيال ، فيبرز الليل في آخر شبابه ،
وفي هذا كناية .

والاستهانة بالإزار معنى تناوله الأندلسيون ، وديب المشيب في فود
الليل معنى تناوله ابن خفاجة الأندلسى ، ويان أثر الوضوح كناية عن ظهور
النور ، وإلقاء العقود والفلائد والمنثور والمنظوم من اللآلى والنمقدين من
أذنيها وخواتيم الثريا من يديها ، كل ذلك كناية عن اختفاء النجوم .
وتمزيق الجلباب ، وهتك الحجاب ، وظهورها في مظهر عجوز شمطاء ،
كناية عن ظهور نور الصباح .

وقيام بنات هديل بالسجع والترجيل يصور به ظهور الصبح .
كل هذه الصور أبرزها الكاتب في سجعات مناسبة ، وقد أكثر من
الكنايات والاستعارات والأخيلة .

٣ — نموذج من رواية د مجدولين ، في وصف إلقاء الغريق (المنقلوطى)

(١) اللغة : النجاب . اللثام . الفرد : الشعر إلى جانب الأذن ، الوضوح . البياض
الفرقدان : نجمان ، الشمطاء : العجوز ، الجوزاء : نجم ، الهديل . ذكر الحمام :
جلا العروس على زوجها ، عرضها في زينتها ، الإسفار : الإضاءة والإشراق
عن الوجه .

وما زلنا كذلك حتى بلغنا شاطئ النهر ، فراعنا أن رأينا هناك جمعا عظيما من الناس يتدفع فوق الشاطئ الآخر تدافع الموج المتراكب ، ويشير إلى الماء بأصابعه ، ويتأذى الغريق والغريق والنجدة النجدة ، فالتفتنا حيث أشاروا فإذا رجل بين معترك الأمواج يصارع الموت والموت يصرعه ، ويقالب القضاء والقضاء يقبله ، يطفو تارة فيمد يده إلى الناس فلا يجد يدأ تمتد إليه ، ويرسب أخرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فتحسبه من الهالكين وما زال يتخط ويتشبث ويظهر ثم يختفي ، ويتحرك ثم يتسكن ، حتى كل ساعده ، ووهنت قوته ، وابيضت عيناه ، واستحال أديمه ، ولم يبق بين أعيننا منه إلا رأس يضطرب ، ويد تحتلج ، فبكي الباكون ، وأعول المولون (١) .

التعليق :

هذا وصف أبدع الكاتب في تصويره في أسلوب مرسل بعيد عن التكلف في لفظ رصين وعجالة رقيقة ، منسقة الكلمات . والكاتب دقيق في إبراز الصور كصورة اندفاع الجمع نحو الشاطئ ، تدافع الموج ، وفي هذا تشبيه جميل وصورة الإشارة إلى الماء بالأصابع ، وصورة الغريق بين معترك الأمواج وصورة صراعه بين الموت والقضاء ، وصورته حين يطفو ويمد يده إلى الناس (وهذه صورة معبرة في قوة عن موقف الغريق) وصورة رسوبه وانبطاف صفحة الماء فوقه ، وصورة ظهوره واختفائه . كل هذه صور رائعة أبرزها ، والتقابل جميل بين طفوه ورسوبه وظهوره واختفائه وتحركه وسكونه .

الكتابة الاجتماعية

لم يكن المجتمع المصري في أول العصر قد نهض حتى تظهر الكتابة الاجتماعية ، ومن ثم تأخر ظهورها حتى قبض الله لمصر العقول المفكرة البصيرة الناقدة التي تفكر في أحوال الشعب من الفقر والمرض والجوع والإدراء الأخرى .

(١) اللفة — كل . تعب . الأديم . الجلد . تحتلج . تتحرك .
المويل . البكاء .

كالعادات والخرافات ، وكلمرة في قيودها ، وجهلها وكالتفاق وتعلق أصحاب السلطان ، وغير ذلك فظهرت الكتابة الاجتماعية تعالج المشاكل وتبحثها ، وتنقد ما فيها مستدلة بالقرآن أو الحديث أو الحكم أو الدليل المنطقي .

وتطور المجتمع ونهض فكثرت مشكلاته ، وتددت أمراضه . وكثرت عندئذ مجالات الكتابة أمام الكتاب الاجتماعيين حتى ازدحمت على الكتاب موضوعات الكتابة . ونزلت إلى الميادين أقلام تصول وتجول في كل مشكلة كشكلة الطفولة المشردة والشحاذين : ومشكلات العمال والباعة الجائلين ، والامرة وتعدد الزوجات والطلاق . وانحلال الاخلاق والاعاني الخلية وفي الريف مشكلات الفقر والمرض والجهل والسرفه والاخذ بالنار . كل هذه المشكلات ومئات سواها أصبحت هدف الكتاب الاجتماعيين .

وفي طليعة الكتاب الاجتماعيين في هذا العصر الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، وإبراهيم المويلحي ، وقاسم أمين ، ثم المنفلوطي ، والبشري والمازني وغيرهم .

١ - نموذج من كتابة جمال الدين الأفغاني :

كتب يشخص حال الشرق والبلاد العربية : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولملت شعنا لتصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، واستوقفتني الأفغان وهي أول أرض من جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلي ، فايران بحكم الجرار والروابط ، فجزيرة العرب من حجاز هو مهبط الوحي ، ومن يمن وتابعها . ونجد : والعراق وبلاد هاروننا ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والاندلس وحرانها . وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام ، وما آل إليه أمرهم . فخصت جهاز دباغي لتشخيص دانه ونجوى دوانه : فوجدت أبرز أدوانه داء انقسام أهله ، واتشت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم

وتقيهم إلى الخطر الغربى المحدث بهم ، والدعوة إلى مكافحة الاستبداد ، وطلبت حكم الشورى ، وتحرير الدين بما أدخل عليه من فساد فى عقيدة الجبر ، والخطأ فى فهم القضاء والقدر ، .

تعليق : حرص الكاتب على أن يشخص حال البلاد الشرقية والعربية ويقترح الحلول لعلاج هذه الحال ، وأوضح أن نداء هذه البلاد انقسام أهلها وتشتت رأيهم واصرارهم على الاختلاف ونفورهم من الاتحاد حتى أعطوا الفرصة للحاكم يستبد بهم وللمستعمر يتسلط عليهم ، والعلاج لهذا النداء يتلئ فى توحيد الكلمة ، ومكافحة المستبد والمستعمر وإقرار نظام الشورى وتنقية الدين مما انهم به من قدرية وجبرية إتهاما ناشأ عن الخطأ فى فهم القضاء والقدر .

وأسلوب الكاتب سهل واضح يعتمد على كثير من المنطق وقليل من الانفعال . وقدم لحديثه بمقدمة طويلة تجذب القارىء وتثيره إلى تمثّل أجداد الشرق والغروب وضرورة استعادتها وبعث حضارتها واستلهاهم تاريخها العريق .

٢ - نموذج من كتاب قاسم أمين^(١) فى تحرير المرأة

إن طبيعة العصر الذى نحن فيه منافية للإستبداد معادية للاستبداد ، مبالغة إلى سوق القوى الإنسانية فى طريق واحدة ، وإلى غاية واحدة ، فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلاً لا بد أن يتال منه النساء نصيبهن ، فمن الواجب علينا أن نمد إليهن يد المساعدة ، ونعمل معهن

(١) من الكتاب الاجتماعيين ولد بصر وتعلم بها وتخرج فى الحقوق وعين قاضياً ثم رأى أن المجتمع أساسه المرأة وهى ضميعة جاهلة بعيدة بيتها فنصب نفسه للدفاع عنها وعاش يكافح ويكتب من أجلها .

بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله في الضعيفين المرأة واليتيم ، ولا شيء أدخل في باب التقوى من تهذيب العقل ، وتكميل النفس ، وإعدادها بالتعليم والتربية إلى معرفة النافع ، ومداغة الرذائل ، ومقاومة الشهوات ، ولا من حسن المعاملة ، واللطف في المعاشرة ، فعلينا أن نجعل الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لاصلة تسر وتسوة . هذا ما تفرضه علينا الإنسانية وتطالبنا به الشريعة ، وهو مع ذلك فريضة وطنية ، يجب علينا أدائها ، حتى يكون جميع أعضاء المجتمع عندنا حياة عاملة قائمة بوظائفها .

الموضوع والتعليق :

تناول الكاتب في هذا الموضوع طبيعة العصر التي تكره العبودية ، وتناول موقف الإسلام من المرأة ، واستدل بالحديث ، ثم اتجه إلى المنطق يعتمد عليه في قاعدة التعليم في تهذيب المرأة وتربيتها ، ثم اعتمد على الإنسانية في حسن المعاشرة ، ثم اتجه إلى السياسة السليمة في بناء المجتمع ، تلك السياسة التي تقوم على الحب والرحمة بين الزوجين لا على القسوة والكره وأخيراً اعتمد على الوطنية وأن المرأة عضو في المجتمع ، ويجب أن يؤدي وظيفته ، وفي هذا خير الوطن .

كل ذلك ساقه الكاتب في أسلوب سهل قوى معتمد على الحجج والمنطق مستدلاً بما يناسب من ماثور القول .

وبكذا نجد أسلوب الكتابة الاجتماعية خالياً من الزخارف والتأنيق في الألفاظ بعيداً عن الخيال معتمداً على العبارة السليمة ، والمنطق القوي ، والتحليل الدقيق .

وبعض الكتاب الاجتماعيين في بعض المشكلات يمرض مقدمات تتصل بالموضوع ، ثم ينتقل إلى الموضوع .

الكتابة الصحفية

ظهرت الكتابة الصحفية في أول العصر على يد الشيخ الحشاش والشيخ العطار ، وإن كان أسلوبها في أول العصر فيه الكثير من الاصطلاحات التركية لأن (الوقائع) كانت جريدة رسمية تنشر الأوامر ولم تكن لغتها قوية ، وظلت كذلك حتى تطورت النهضة الأدبية فقويت الكتابة الصحفية على يد الشيخ محمد عبده حين أشرف على الكتابة في الصحف وصحح المقالات ، وكان ينشر أحياناً مقالة الكاتب بما فيها من عيوب ثم يكشف عن مواطن العيب فيها . ثم ظهر الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، وكان له أثر في نهضة أسلوب الصحافة ، وكان لهجرة الصحفيين السوريين وإصدارهم الأهرام ، والمقطم والمقتطف أثر بالغ في تطوير لغة الصحافة .

كما كان للأحزاب السياسية الأثر الكبير في نهضة الكتابة الصحفية حيث كان يحرر في الصحف الحزبية طائفة مختارة من كبار الأدباء والسياسة أمثال طه حسين ، والنفاد ، والملازني ، وتوفيق دياب ، وعبد القادر حمزة ، ومحمد صبري أبو علم ، ومكرم عبيد ، وأحمد ماهر ، وأحمد حافظ عوض وإلى جانبهم نخبة ممتازة من المثقفين يساعدهم مصححون امتازوا بالتمكن من اللغة ومعرفة الأساليب وضبط الشوارد .

(أ) الصحافة السياسية : تعتمد على نشر الأخبار السياسية في الداخل والخارج وتسجيل أعمال الحكومات ومشروعاتها وسياسة الدولة الصناعية والاجتماعية والثقافية والفنية والدعاية والإعلان وأخبار الهيئات والطوائف ويراعى في أسلوبها السهولة ، وعدم التأنق في اختيار الألفاظ ، وعدم الإغراب في التصوير والخيال حتى يفهم العام والخاص ما تهدف إليه الكتابة .

(ب) الصحافة الأدبية : تعنى بنشر المقالات والبحوث الأدبية والنقد وما يتصل بتراثنا الأدبي ، وأخبار الأدباء ، وآرائهم ، والقصائد الشعرية .

وأسلوبها يفتقد عليه اختيار الألفاظ والتراكيب ونحليتها بألوان التشبيه والاستعارة والأخيلة . ويراعى فيها السمو بالأسلوب لأنها مخاطبة خاصة المثقفين .

(ج) الصحافة العلمية والفنية : هي صحافة الهيئات والطوائف العلمية وتنتشر البحوث والمقالات التي تدور حول غرض الصحيفة ، وأسلوبها يختلف باختلافها ، وهي بعيدة عن التكلف والزخارف وحسبها ما يؤدى المقصود .

نموذج

١ - الشيخ عبدالعزيز جويش^(١) في جريدة اللواء تحت عنوان (مدرس اللغة العربية في بلاد الإنجليز) قال : نصح إلى المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد أن أقتدى بما أراه من الأخلاق النافذة في تلك الأمة العظيمة فإذا جرى . ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادنى تمكناً بديني ، ورأيتهم شديدى الحرص على لغتهم فزادنى حرصاً على لغتى ، أبصرتهم يتحانون في الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئوهم أو التصرف فى أموالهم ورقابهم فأخذت أحاكيمهم فى هذه البلاد السينة الحظ بالاحتلال وأشياعه ، رأيتهم يحبون الصراحة ولا يخشون معتبة ولا يتبهيرون متعبة مادام الحق لهم فأخذت أحاكيمهم فى تلك الفضائل .

التعليق :

تناول فى المقال عرض أخلاق الإنجليز وسياستهم وتمسكهم بدينهم وعبادتهم وأشار إلى أنه تلقى عنهم دروساً فى التسك بالدين والحرص على

(١) الشيخ عبد العزيز جويش تعلم أولافى الأزهر ثم كان فى طليعة المتخرجين فى دار العلوم وعرف بتمكنه من اللغة واشتغل مدرساً ثم اشتغل بالصحافة وكان من أعوان مصطفى كمال ومحمد فريد ومن دعاة الحزب الوطنى ومن الساسة الذين أبلوا أحسن البلاء فى فنية هذا الوطن .

اللغة العربية والتفاني في الدفاع عن الوطن والتمسك بالحق، وأسلوبه - سهل ليس فيه تأنيق في اختيار الكلمات والاهتمام بالحسنات إلا ما جاء غفو الخاطر كقولہ : معتبة ، متعبة ، من هذا الجناس .

٢ - يكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام مقالا صحفياً كل يوم من أيام الجمعة ، عنوانه : «بصراحة» . وهو مقال صحفي طويل يختار له في الغالب مناسبة قريبة ، فيحللها ، ويفصل وقائها ، وملابسها ، ويردها إلى جذور المشكلة التي يعالجها ، ويقترح العلاج الذي يترأى له أو يوحى به .

وفي غير يوم الجمعة قد تجد أحداث تدفعه دفعا إلى الكتابة «بصراحة» ، مثلما حدث يوم السبت السادس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٢ من هجوم القوات الإسرائيلية على جنوبي لبنان برا وجوا ، بغية تمزيق ما بين لبنان والمقاومة الفلسطينية من صلة ، ووقف لبنان وحده في مواجهة الإغصار والمقاومة الفلسطينية محاصرة وسط الحريق تقائل وتحاول الإفلات من شرك الدمار الإسرائيلي . ودعا هيكل مؤتمر عربي على مستوى القمة ، وشرح ثاني يوم (الأهرام يوم الاثنين ١٨/٩/١٩٧٢) وجهة نظره في الدعوة فقال :

لماذا اقترحت بالأمس توجيه الدعوة إلى مؤتمر عربي على مستوى القمة لمواجهة الهجوم الإسرائيلي على جنوب لبنان ؟

قد يكون مناسباً أن أشرح وجهة نظري ، ولعلني ألخصها سريعا فيما يلي :

١ - أن الأمة العربية يتجهتم عليها أن تتحرك وأن تثبت وجودها وفعلها في هذه المنطقة التي تعيش فيها من هذه الدنيا بحيث لا تبدو مثلما هي الآن كملاق في غيبوبة : الحجم هائل والتأثير غير محسوس .

٢ - أن هناك ضريقتين للحركة غالباً :

الحركة حول النفس : وهذا هو الطريق السهل ، يبدو معه أن الناس

يتحركون وهم في الحقيقة يدوزون في مكانهم ، بمعنى أنهم يريدون إيهام أنفسهم والناس أنهم يتحركون وأنهم باذلون قصارى جهدهم . وفي الأزمات فإن هذه الحركة حول النفس تتخذ شكل إصدار بيانات وإجراء اتصالات لا تعرف لنفسها هدفا محددا ولا غاية تقصدها بحيث تؤثر في الحوادث فعلا وتقدر على تغيير مجراها .

وهذا النوع من الحركة في الأزمات يكون في العادة - بقصد أو غير قصد موجها إلى الداخل كنوع من إبراء الذمة ، ولكنه في الخارج ضائع كدخان في الهواء ، لأن العالم الخارجي - وهذا حق - لا يجري حساباته على أساس رنين الكلمات ، وإنما يجريها على أساس قياس الطاقات . ومن هنا فإن أية كلمة لا تعبر عن طاقة قابلة للاستعمال قادرة على التأثير تضيق بغير صدق .

والذين يواجهون عواصف الأزمات يعرفون ذلك أكثر من غيرهم وربما كان ذلك هو السبب في أن لبنان أمس كان يمتد في وقف الهجوم الإسرائيلي على مساع تبذلها فرنسا وبريطانيا في صمت ولا يعتمد على كل الصخب العنيف الذي تعالى مع قدوم الليل في جنبات العالم العربي .

تعليق :

كان هم الكاتب أن يحدد الأسباب التي دعت إلى اقتراح الدعوة إلى مؤتمر عربي على مستوى القمة لمواجهة الغدر الإسرائيلي ، فأوضح أن كرامة الأمة العربية تحتم عليها أن تتحرك وتثبت وجودها ، ثم بين أن للحركة طريقتين : أولاها الحركة حول النفس بالصخب والتظاهر والبيانات وهي حركة ضائعة غير ذات جدوى اللهم إلا لإبراء الذم لدى الشعوب العربية محليا ، والطرق الأخرى للحركة لمواجهة الأزمات واتخاذها . ثم إن مواجهة الأزمات قد تم بطريقة غير محسوبة عليها الانفعال دون إدراك لدى انفعال

والاستعداد له ، وكثيراً ما تضر هذه الطريقة بأصحابها ، والطريقة الأخرى بالحركة المحسوبة التي يعرف أصحابها ما يريدون ووسائلهم إلى تحقيق إرادتهم وهذه هي الحركة المطلوبة ، ولا يمكن أن تضطلع بها دولة عربية واحدة ، وإنما تحتاج إلى تضافر القوى العربية كلها واجتماع كلمتها أو اتحاد إرادتها ، ومن هنا يتحتم اللقاء العربي على مستوى القمة .

ومن الواضح البين أن الكاتب عرض فكرته بأقرب الألفاظ والعبارات والإشارات ، وبسط رأيه ليتمكن السواد الأعظم من قرانه من فهمه ، واستغل المنطق في معالجة الموضوع ليقنع بوجهته ، وابتعد قدر الإمكان عن الانفعال في محاولة لاجتذاب فكر القارئ . وشجذ ذهنه لتقليب الرأي وحصر الموضوع بعد ذلك بحيث يبدو أن لا بديل من اقتراح الكاتب .

كتابة القصة

نشأتها .. تدرجها .. تنوعها .

كان أول ظهور القصة في عصرنا في بلاد الشام على يد الأدباء الذين تخرجوا في مدارس الدعاة ، وقرءوا القصص المترجمة ، وشاهدوا التمثيلات وقرءوا المقامات التي وضعت في العصر العباسي ، ثم حاكوا المقامات ، وكان هذا أول ظهور هذا اللون من الكتابة الخيالية ومقدمة لظهور القصة ، ومن هؤلاء نصيف اليازجي المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ .

ويعتبر عبد الله النديم من أوائل المصريين الذين أدركوا فائدة القصة وأثرها في توجيه الناس ، فعالجها في صحفه ، واتخذ منها وسيلة لتصوير العيوب الشائعة في عصره واقترح الحلول للخروج منها ، فكتب عدة حكايات وأفاميس بالفصحى وبالعامية ، ومنها : شهرة الانطاع ، وغفلة التقليد ، ومجلس طبي على مصاب بالفرنجي ، وفي هذه الأقصوصة الأخيرة حكاية شاب وجهه يحوطه أهله بالرعاية ، ثم يتسلل إليه شخص ما كره يتظاهر بالصلاح والتقوى والإخلاص ، فيخدعه ، ويستدرجه إلى الشر ، حتى أصيب بالزهري - ذلك المرض الخبيث - فقال لونه ، واجتمع العقلاء من أهله ، وانفقوا على جلب الأساة له ، لعلمهم بمجدون لدائه علاجاً ، وهذه الحكاية رمز لما أصاب البلاد من خراب على يد الخديو إسماعيل ، مما أوجب تدخل الأوروبيين في شؤون مصر وفرض الرقابة المالية الثنائية عليها وإنشاء صندوق الدين وما تبع ذلك من استعمال النفوذ الأجنبي ، مما جعل عقلاء الوطنيين يقشرون لإفقاذ الوطن وانتشاله من هذه الخراب الاستعمارية وتتوخ القصة إلى ما يأتي :

(١) من حيث موضوعها تنقسم إلى :

١ - تاريخية : وفيها يختار القاص وقائع قصته من التاريخ ولصقته لا يلتزم بجزئيات الأحداث كما وقعت فعلاً وبترتيبها ، كقصص قريش ، وصلاح الدين .

٢ - أسطورية : وموضوعها ينزعه القاص من الأساطير مثل (أبو الهول بطير) لمحمود تيمور .

٣ - اجتماعية : وموضوعها من واقع المجتمع وأحداثه ، ومنها القصص الغرامية التي تصور أحوال المحبين مثل سلامة القس لعلی أحمد با كثير ودعاء الكروان لطفه حسين .

(ب) من حيث نوعها تنقسم إلى :

١ - فاجعية (مأساة) : وهي تعالج موضوعات الخصومة والشفاء والتعاسة والعذاب والجريمة وسائر ألوان الفاجعات من مثل مقاتل الملوك ، وانهيار المروس ، وانتفاض الثورات ، ويتميز جوها بالرهبة وإبراز دور الحظ والقدرية .

٢ - هزلية (ملهاة) : وهي تعالج الأمراض الاجتماعية في ثوب هزلي ويتميز جوها بالصفح والمرح والبهجة وإبراز المنازعات .

٣ - الدراما الحديثة : تهدف إلى تصوير وقائع الحياة الإنسانية كما هي والحياة الإنسانية ليست فاجعات وليست هزلاً وإنما هي مزيج منها .

(ح) من حيث قالبها الفني تنقسم إلى :

١ - قصة أو قصصية : وتعتمد أساساً على السرد والحكاية يمكن أن تتضمن بعض الحوار لكن الحوار ليس أساسياً فيها . والقصة تملأ مجلداً مترسلاً ، والأقصصة حكاية سريعة تعتمد على التركيز .

(١٦ - أدب الأندلس)

٢ - مسرحية : وتعتمد أساساً على الحوار وتنشأ لتمثيلها على المسرح .

ثم ظهر في مصر محمد الميمني ، الكاتب القصص الذي حذق العربية والتركية وبعض اللغات الأوروبية التي أعانتة على قراءة القصص الأوربي فكتب حديث عيسى بن هشام ، وهذا بدء ظهور القصة في مصر .

وفي هذا الحين ترجم الأدب الأوربي إلى العربية وحظيت قصصه بعناية المترجمين فأقبل عليها أدباء مصر ، فقرءوها ، ولم يكن أسلوب الترجمة قد نضج أدياً ثم تفحمت القصص وظهرت في أسلوبها الأدبي .

ثم بدأ الأدباء يضعون القصة بعد قراءة ما ترجم .

ومن أشهر الكتاب الذين أبرزوا القصة المترجمة في أسلوب أدبي مع حسن العرض « المنفلوطي » ، في رواياته : مجولين ، والفضيلة . والشاعر ، وفي سبيل التاج .

وأخذت تركز القصة المترجمة في طريقها إلى أدبنا العربي ، ولقيت إقبالا شيع الأدباء على العناية بها ، وتسابقوا في الترجمة من الأدب الإنجليزي والفرنسي والألماني والروسي حتى ازدحمت المكتبة العربية بمئات القصص المترجمة ، وأوسعت لها الصحف صفحاتها لنشرها ، ومن أشهر مترجمي القصة محمود تيمور الذي ترجم عن كثير من اللغات ومحمد السباعي الذي ترجم عن الأدب الروسي .

وحينما تربى في أدبائنا الذوق القصصي ، والمملكة القادرة على نسج القصة جاء دور تأليف القصة ، وما أكثر الأدباء الذين نزلوا هذا الميدان وفي ظليعتهم طه حسين في الأيام ، ومحمود تيمور في كثير من رواياته التي زخرت بها المكتبة العربية .

واتجه بعض الأدباء إلى تغريب القصة بأخذ القصة الأجنبية وطبعها بالطابع العربي . وأكبر عامل على نهضة القصة وسموها في هذا العهد انتشار

المسارح ودور الحياة والاذاعة بما تقدمه من المسرحيات أو القصص القصيرة أو الطويلة .

وليس الهدف من القصة هو التسلية دائماً . وإنما معالجة مشكلات وأدواء المجتمع . فمى هذا تعمل على إصلاح المجتمع ، ورب قصة تفعل مالا يفعله وعظ الواعظين .

ومن ثم كان العبء كبيراً على كتاب القصة المصلحين . أما تجار القصص ومن لا أهداف لهم سوى علو الصيت تخليق بالآلة أن تقضى عليهم .

ومن كتاب المسرحيات نجيب الريحاني وبديع خيري . على أن الكاتب قد يكتبها بأسلوب عربي ، ثم يتولى المخرج وواضع الحوار وضعها في قالب العامى الدارج .

على أن أساليب القصص والمسرحيات تختلف قوة وضعفاً وبلاغة باختلاف الكتاب .

الخطابة

لم يكن للخطابة مظهر في صدر هذا العصر سوى مظهرها الديني فحسب وظلت كذلك حتى برزت النهضة الأدبية إلى الوجود ، فبدأت تظهر بعض أنواع الخطابة .

ولما كانت أنواع الخطابة مختلفة في بدء ظهورها وفي بواعث نهضتها كان لابد من تقسيم الخطابة وتبويب كل قسم مع ذكر بواعث نهضته :

١ - الخطابة الدينية :

نهض هذا النوع منذ جاء جمال الدين الأفغاني ، إلى مصر والتف حوله كثير من المصريين والأزهريين ، فأخذ يدرهم على القول ، ويعودهم النقاش فتفتحت أذهانهم ، وانطلقت ألسنتهم ، وبرز من بينهم الشيخ محمد عبده ، فكان أول خطيب يرتجل القول ويحيده

وانتقلت الخطابة الدينية من المساجد إلى الأندية والمجتمعات ، وظهرت طائفة من الشبان الغيورين على الدين المتخرجين في دار العلوم ، كالشيخ عبد العزيز جاويز ، و الشيخ عبد الوهاب النجار ، فاندفعت آفاق الخطابة الدينية في الوعظ والمحاضرات ودروس التفسير والحديث ، والموضوعات الخيرية ذات الصلة بالحياة في العقائد والعادات .

ثم أنشئ ، قسم الوعظ والإرشاد ، في الأزهر وتخرج فيه علماء لهم دراساتهم الدينية الراسخة ومرانهم على القول ، وقد تربت عند بعضهم ملكات خطابية مكنتهم من الارتجال ، وانتشر هؤلاء في المساجد والمجتمعات في المدن والقرى يؤدون واجبهم الديني .

وظهرت منذ جمال الدين الأفغاني ، الجمعيات الدينية ، ونهضت برسااتها في الأندية والمجتمعات ، كجمعية الخيرية الإسلامية ، و الهداية الإسلامية ،

و دسكارم الأخلاق ، و د أنصار السنة ، و د العشرة الحميدة ، و د الشبان المسلمين ، و د الجمعية الشرعية .

أسلوب الخطابة الدينية :

بدا أسلوبها بعد ظهورها يتجه إلى الترسل ويمتلئ بالحجج والاستشهاد بالآيات والأحاديث ومواقف الصحابة : ولم يزل يقوى حتى ظهرت روائع البيان وسلاسته وإحكامه ومماته في أسلوب كثير من الخطباء الدينيين .

بواعث نهضة الخطابة الدينية :

١ - ظهور الشيخ جمال الدين الأفغاني ، و د الشيخ محمد عبده ، و تمرين الطلاب على القول .

٢ - كثرة الجمعيات الدينية وقاعات المحاضرات

٣ - إنشاء جهاز الإشراف على شئون الوعظ والإرشاد

٤ - عناية حكومة الثورة بالتربية الدينية ، وبتجلى مظهر هذه العناية

في الأحاديث الدينية ودروس التفسير التي تأخذ مكانها في الإذاعة

٥ - ظهور المجلات الدينية كمجلة الأزهر و د نور الإسلام ، و د لواء

الإسلام ، و د الهداية الإسلامية ، و د هدى الإسلام ، و د الاعتصام ، و د منبر الإسلام .

نموذج من خطبة للشيخ محمد مصطفى المراغي

أما بعد فيقول الله تعالى : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من أتبع رضوانه

على هذا الأساس شب الإسلام عزيزاً لا يعرف النذل ، كريماً لا يقبل الضيم ، وسخياً كرام بررة ، رفحوا لواء عزه ، وشيدوا صرح مجده ، وظفروا به في الآفاق ، نافذ السلطان ، رفيع المكان ، ثم خلف من بعدهم خلف فتتوا بمرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات ، وضلوا السبل ،

حسبوا الأمر مغانم ، وأسلاباً توزع . ودنيا مملوءة بالذات ، فيها دعة وسكون
وترف ومجون ، وظال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن
الهدى الإلهي ، فسأت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه .

التعليق :

بدأت الخطبة بآية تناسب الموضوع الذي يتكلم فيه : « قد جاءكم من
الله نور... ثم تكلم عن نشأة الإسلام وأنها نشأة العزة والقوة الروحية
التي لا تغلب ، وأن الذين امتلأوا بهذه القوة كرام بررة رفعوا أوليتهم ،
وانطلقوا في الآفاق ، يحكم سلطانه كل سلطان ، ثم جاء بعدهم من فتنهم
الدنيا وشهواتها ، وتفرقت بهم السبل ، وحسبوا أمر الإسلام مغنماً ودنيا
لذات ، وظال الأمد وهم بين ما حسبوا ، فقست قلوبهم ، وسأت حالهم ،
واستذلوا ، وسكنت نفوسهم لحياة الذل .

الأسلوب : مرسل بعيد عن الصناعة إلا ما جاء غفو الخاطر يشتمل على
جمل قصيرة لها وقعها الموسيقي كقوله : رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صرح
مجده ، وظفروا به في الآفاق ، نافذ السلطان ، رفيع المكان .

وهنا تلبس السجعة الموانية . مثل فيها دعة وسكون ، وترف ومجون ،
وبين الخجل انساق وانسجام يتخللها بعض تراكيب قرآنية كقوله تعالى :
« وظال عليهم الأمد فقست قلوبهم » ،

أما المعاني فهي قوية حين يعرض صورة الإسلام الأول ومن حمله ،
ثم حين حمله أولئك الذين خلفوا .

وقد أغنته الحقائق القوية عن التحليق في أجواء الخيال .

١ - الخطابة السياسية :

ظهر هذا النوع حين أحس الناس ظلال الحرية في عهد إسماعيل وحين
بدأ جمال الدين يتقد سياسة الحكومة ، وتجلي ظهورها في الثورة المرابية

حين بدأ الثوار في المجتمعات والمساجد يحرضون الناس على سياسة توفيق ، وكان أعظم الخطباء السيد عبد الله النديم المتوفى الذهن الصافي العزيمة الواضح الدليل المحكم الأسلوب كما وصفه جمال الدين .

وحين احتل الإنجليز مصر فتر هذا النوع فجاء ، ثم نيقظ حين هب الشعب يطالب بحقوقه ، وكان أول ظهور الخطابة السياسية الثائرة على يد مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويز من زعماء الحزب الوطني .

وقامت ثورة سنة ١٩١٩ فأنجبت انشداند والأحداث مئات من الخطباء امتلأت بهم المساجد والكنائس والمجتمعات والأندية ينددون بسياسة البطش والقوة ، ويحضون على الثورة ، ويلهبون مشاعر هذه الأمة حتى امتلأت السجون والمعتقلات بألوف من المكافحين ، كما قد نفى بعض الزعماء ، ومن خطباء هذه الثورة سعد زغلول ، والشيخ مصطفى القاياتي ، والشيخ محمود أبو العيون ، ثم ظهرت الأحزاب السياسية ، وفتحت أندية للأمناء ، وزخرت ساحاتها بالخطباء ينددون بسياسة الأحزاب المعارضة .

ثم أعلن الدستور ، وبدأت الدعايات الانتخابية ، وقامت الخطابة تؤدي مهمتها في هذا الميدان ، ثم تلقف منبر (البرلمان) مئات الخطباء يترحون أو يؤيدون أو يعارضون .

كل هذا والإنجليز في مصر يلعبون بسياساتها وساستها ، وكان لابد لهذا الليل أن ينجلي فألغيت معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكان حريق القاهرة . وهبت الثورة التي أطاحت بعرش الأسرة العلوية ، وقام قوادها يعلنون للشعب سياستهم التي تستمد قوتها من الشعب ، وأنجبت هذه الثورة الكثير من الخطباء السياسيين ، وتنقلوا بين المدن والقرى يسمعون من الأمة ويسمعونها ، وكانت الخطوات الجبارة التي قامت بها الثورة من الجلاء وتأميم القناة ، ميادين للخطابة ، وكان العدوان الثلاثي مشعل ثورة للخطابة .

وكانت أندية التحرير ، ثم الاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكي العربى
ثم مجلس الشعب والمجالس الشعبية بمواضر المحافظات - كل هذه أصبحت
مبادين زاخرة بالخطابة .

وكانت سياسة مصر والبلاد العربية داخل الجامعة العربية وخارجها
وقضية فلسطين ، والجزائر ، وعمان واليمن ، وقضايا شعوب أفريقيا وآسيا
والمؤتمرات التى عقدت لذلك مثار خطابات سياسية .
بواعث نهضة الخطابة السياسية :

- ١ - الثورات العربية كثورة ١٩١٩ وما بعدها واثورة الأخيرة .
- ٢ - شعور الناس بالظلم ومطالبتهم بحقوقهم منذ بدأ الاحتلال .
- ٣ - ظهور الأحزاب السياسية فى فترة من تاريخ مصر .
- ٤ - الدعايات ، الانتخابية ومجالس شورى القوانين والنواب
والشيوخ ومجلس الأمة والشعب وهيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد
الاشتراكي العربى .
- ٥ - القضايا العربية والأفريقية والآسيوية والجامعة العربية .
- ٦ - كثرة الأندية والجمعيات .
- ٧ - انتشار الصحافة .

أسلوبها :

يتميز أسلوب الخطب السياسية بالإحكام وقوة المعاني ، وغزارتها
ودقة الألفاظ وجزالها ، والاعتماد على الحجة .

وبعض الخطباء لهم روعة بيانهم وجماله ، ولهم قدرة بلاغية على التلاعب
بالعبارات إلى جانب قوة المنطق وحن العرض ، ويوهب بعضهم قدرة على
التمثيل تمكنهم من إثارة مشاعر الجماهير . ومن خطباء مصر السياسيين السيد
عبد الله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاريش وسعد زغلول
والشيخ مصطفى القاياتى والشيخ محمود أبو الميoun والرئيس جمال عبد الناصر .

نماذج

١ - من خطبة مصطفى كامل في أول جهاده في الاسكندرية .
لاريب عندي في أنكم كلكم تودون مثلي أن تكون مصر بلاداً حرة
منتشرة في سائر أرجائها من الاسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم
والمعارف ، وتصبح كما كانت مهداً للقضاة والآداب مشرقاً لشمس المدنية
في كل بلاد الشرق مسرحاً للتنافس في الصناعة والتجارة .

ولاريب عندي أيضاً أنكم كلكم تحبون أن تنقبوا لمصر إذ يكون
هذا شأنها ، عندئذ يفخر كل منكم أن ينادى بأعلى صوته : أنا مصري .

٢ - من خطبة لسعد زغلول بعد قطع إحدى المناوضات .
نعم لم تتحقق أمانى البلاد في هذه المرة ولكن ما شعرت به من اتحادكم
وما أحسست به من حرارة حماسكم ، وما علمت به من تصميمكم على أن تصلوا
إلى حقكم شجعتني على أن أسير معكم إلى النهاية ، ومن ذا الذي لا يتشجع بهذه
العزائم الممقدة ، وهذه الأصوات المرتفعة من أعماق القلوب بهذه الحماسة
المتأججة في الصدور لما سيمتدود سعياً كريماً ، ذلك السعي الذي لم يتكلم بالنجاح
نعم عزائم تحملني على أن أستميت في الحصول على استقلالكم .

الأسلوب : سهل العبارة قوى الألفاظ والمعاني .

الخطابة الاجتماعية :

ظهرت الخطابة الاجتماعية منذ تقدم المجتمع من نحو نصف قرن وإن كان
أول ظهورها على يد رجال الدين ، حين أخذ ينقد المجتمع والأدواء التي فيه
وسياسة الحكومة حياتها . غير أن هذا اللون لم يأخذ سبيله إلى الوجود
حقاً إلا حين بدأ دقاسم أمين ، جملته الاجتماعية في تحرير المرأة .

فلما تقدم المجتمع وكثرت مشكلاته تقدمت الخطابة الاجتماعية ، وكان

أكثر تطورها منذ إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية وتنظيمها المحاضرات في المشكلات التعاونية والعمالية ومشكلات الأسرة والهيئات كمشكلات تعدد الزوجات والطلاق .

ومن أهم بواعث الخطابة الاجتماعية .

١ — عناية الحكومة بالمجتمع وبحيث مشكلاته ، وبخاصة المشكلات العمالية والنواحي التعاونية ومشكلات الأسرة

٢ — إنشاء معاهد للخدمة الاجتماعية تخرج فيها عدد كبير من المشرفين والإخصائيين الاجتماعيين ، ومهمتهم الأولى علاج المشكلات الاجتماعية وتوجيه الناس إلى السلوك الاجتماعي الأمثل .

٣ — اتساع دائرة القول في المسائل الاجتماعية في الصحافة والإذاعة ومنابر المساجد وقاعات الجمعيات والنوادي الثقافية .

أسلوبها :

يعتمد على عرض المشكلة وبحوثها وتحليلها ومدى خطورها ، ثم سق الأمثلة والبراهين في أسلوب واضح .

نموذج من خطبة للأستاذ إبراهيم رشاد

(مدير قسم التعاون)

الآن وقد تهيأت الظروف الملائمة للحركة التعاونية من نظام ديمقراطي مستقر ، وتضامن وثيق بين الأمة والحكومة ، واستتباب وطيد بعد المعاهدة والاستقلال ، فما الذي نحن فاعلوه نحو التعاون وتعظيمه ونشره ؟

إن العهد الحاضر من شأنه أن يحملنا تبعه أعمالنا ولا يدع لنا باباً للفرار من مسؤولياتنا ، فإذا ضعف التعاون بعد الآن أو جرد في مكانه ولم يتقدم فإن اللوم يوجه إلى الأمة والحكومة معاً ، وبلغت آخر يقبح الذنب على المصري وحده ، وهذه الحقيقة الواضحة جذيرة بأن تشحنه البلاد جميعاً

شعباً وحكومة ، وأن نحميها على بذل أقصى الجهد لتمكين النظام التعاوني ،
حتى ينتج آثاره الإصلاحية في الريف والحضر على السواء .
الأسلوب : سهل واضح ، اعتمد على عرض الحقائق في الألفاظ ،
أما المعاني فواضحة قوية .

٣ - شوقي

نسبه ومولده :

أحمد شوقي بن أحمد شوقي ، يتصل نسبه من أبيه بالأكراد وقد وفد
والده إلى مصر في عهد محمد علي ، يحمل إليه كتاباً من أحمد باشا الجزار
والى عكا ، فأدخله محمد علي ، في حاشيته ، وولد له أحمد شوقي ، بالقاهرة
نشأته وحياته :

كفلته في مهده جدته لأمه ، لأن أباه كان متلافاً ، فرعته جدته ، وكانت
وصيفة في قصر إسماعيل ، وقد دخلت هذه الجدة يوماً بشوقي على إسماعيل ،
فرأى أنه لا ينزل بصره إلى الأرض لاضطراب في أعصاب عينيه ، فأتى
الخويوي ببدرة من الذهب وثراها ، فأنزل شوقي بصره إلى الأرض وأخذ
يجمعها ، فقال إسماعيل لجدته : إصنعى به مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد
النظر إلى الأرض ، فقالت : هذا دواء لا يوجد إلا في صيدليتك يا مولاي ،
فقال : دجيتي به إلى متى شئت ،

هذه القصة مهدت لشوقي حياة في قصور إسماعيل ،

• • •

ولما بلغ الرابعة من عمره أدخل مكتب الشيخ صالح ، وانتقل من فرقة إلى
فرقة حتى انتهى من المرحلتين الابتدائية والثانوية ، ثم دخل الحقوق فدرس
عامين ، ثم التحق بقسم الترجمة بها ، ولبث عامين أحرز في نهايتهما الشهادة النهائية
فألحقه توفيق ، بحاشيته ، ثم أبعث به إلى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب

الفرنسية على نفقة الخديوى ، ومكث هنالك أربع سنوات ، ثم عاد إلى مصر
فى وظيفة البلاط ، ثم ندب ليحل مصر فى مؤتمر المستشرقين فى جنيف
وتدرج فى المناصب حتى عين رئيساً للقلم الأفرنجى فى البلاط .

ولما اشتعلت الحرب العالمية الأولى أبعد عن مصر إلى أسبانيا ،
وبقى هنالك مدة ، وكان سبب تقيده جهة الخديوى د عباس ، فحينما خلع
الإنجليز د عباس ، عن العرش أبعد شوقى عن مصر .

وقد عاد إلى مصر بعد استقرار السلام فى العالم وانتهاء الحرب .

رحلات شوقى :

أنتم د شوقى ، دراسته فى فرنسا ومثل مصر فى مؤتمر المستشرقين ،
بجنيف وأقام فى أسبانيا مدة تفيه ، وتردد كثيراً على الآستانة مقر الخلافة
العثمانية ، فلقى من بر الخلفاء والأمراء صنوفاً ، وحبيت إليه السياحة فى
الشرق والغرب وفى آخر حياته كثر تردده على سوريا ولبنان .

ولهذه الرحلات أثرها فى ثقافة شوقى .

إمارته للشعر :

فى سنة ١٩٢٧ عقد فى مصر مؤتمر لتكريم د شوقى ، اشتركت فيه
الدول العربية ، وفى هذا المؤتمر نودى بشوقى أميراً لشعراء العربية ،
وفى هذا الحفل قال حافظ :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وقال شوقى يحيى الوفد بقصيدة مطلعها :

مرحباً بالربيع فى ريعانه وبأنواره وطيباً زمانه

وتقلب شوقى بين أعطاف التميم حياته حتى وافته المنية سنة ١٩٣٢ .

أخلاقه وصفاته :

كان شوقى شديد الذكاء ، وادع النفس ، رقيق الحس ، كثير العطف على
الفقراء ، كثير الاعتداد بنفسه ومركزه ، يحب بلاده من قلبه ، فيقول :
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
وقوله :

أدير إليك قبل البيت وجهى إذا فئت الشهادة والمتابا
وكان يميل إلى الغناء ودور الخيالة (السينما) .

شاعرية شوقى :

وهبه الله شاعرية فذة ، لا يستصعب عليها قول ، تنطق فى الشارع وفى المقهى
وفى مجتمع الناس ، لم تنقيد بزمان أو مكان ، وهى مزيج من العواطف الحساسة
والوجدانات الصادقة ، انتهجت طريقة البارودى فى قوة اللفظ ، وصدق المعنى
وما لبثت أن تجاوزته فى إحكام الصياغة والابتكار فى الموضوعات والمعانى .
واعتاد شوقى أن يعرض شعره فى أول قرصه للشعر على د. إسماعيل
صبرى ، فيصحح له ما شاء حتى استقام له الشعر .

مدرسة شوقى :

كانت مدرسته دواوين الشعراء وكتب الأدب التى قرأها فى دقة ، وحفظ
ما رآه منها ، حفظ للمتنبى ، والبحتري ، وأبى نواس ، والبارودى ، فتأثر
بالمتنبى فى حكمه . وبالبحتري فى رقة ، وبأبى نواس فى غزله وخمسه .
وبالبارودى فى قوة لفظه ومثانة أسلوبه .

وكان لإجادته الفرنسية والسياحات التى قام بها والاتصال بأقطاب العالم
وأدبائه والتعميم الذى عاش فيه ، والبيئة الطبيعية الجميلة فى مصر وغيرها
من البلاد التى زارها آثار فى شاعريته ، وكل ذلك كان مدرسة له خلقت
منه أميراً للشعراء .

أغراض شعره :

قال شوقي في جميع أغراض الشعر في المدح والثناء والغزل والوصف والمراثي والتعازي والتهاني وفي آثار مصر وتاريخها وفي الشعر التمثيلي بل إن مسرحياته البخالدة كانت معجزة الشعر في هذا العصر وإليك أهم ما قال من أغراض .

الشعر التمثيلي :

ظهر هذا اللون في الشام أولاً ونقله إلى مصر الشيخ إبراهيم اليازجي ثم قال فيه شوقي ما لم تشهده العروبة ، وهو لون يحتاج لدراسة التاريخ السياسي للعصر الذي يكتب فيه ولدراسة أحوال المجتمع من خلال التاريخ . ثم دراسة شخصيات المسرحية وتحليلها . ثم يأتي دور الشاعر فيتمصص أرواح هذه الشخصيات جميعها ليترجم عنها وعن مشاعرها وكل ما يتصل بأدوارها ، وعلى ضوء هذا أخرج شوقي تلك المسرحيات العظيمة ، وبعضها تاريخي مثل كليوباترا وعلى السكبير وقميص ، وبعضها له صلة بتاريخ الأدب ، مثل عنزة من العصر الجاهلي ، ويحنون ليلى من العصر الأموي .

ولابداع شوقي في كل هذه المسرحيات يكشف عن قوة كأنما عاش في تاريخ كل رواية وتأثر بمجتمعها . . . وكان للمسرحيات التي شاهدها في أسبانيا الأثر في شعره التمثيلي .

معارضاته للشعراء :

عارض شوقي كثيراً من الشعراء فأدرك البعض وسبق البعض - عارض البوصيري في البردة فجاءت معارضته قوية في نسيبها ومعانيها ومطلعها :

ريم على القناع بين البان والعالم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
ربي القضاء بعيني جؤذر أسداً يأساكن القناع أدرك ساكن الاجرم
وفي نهج البردة عاطفة تجيش بالحلب لمحمد صلى الله عليه وسلم .
كما عارضه في الحمزية .

وعارض البحرى في وصفه لإيران كسرى في قصيدته التي مطلعها :

صنت نعى عما يدنس نعى

فقال شوقي :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وعارض المتنبي في قصيدته التى مطلعها :

لا الحلم جاد به ولا بمناله

فقال : الملك بين يديك فى إقباله عوذت ملكك بالنبي وآله
وعارض ابن سهل فى موشحته التى يقول فى مطلعها :

هل درى ظي الحى أن قد حى قلب صب حله عن مكس
فمرو فى حر وخفق مثلاً لعبت ربح الصبا بالقبس

فقال شوقي :

من لنصو يتنزي ألما برح الشوق به فى القلس
وعارض المصرى فى قصيدته التى مطلعها :

يا ليل الصب متى غده أقيام الناعة موعده

فقال شوقي : مضناك جفاه مرقده .

٣ - قال فى تاريخ العثمانيين وحروبهم وأساطيلهم ومدح خلفائهم وفى
مدح كمال أتانورك ، وكان شوقي نزاعاً إلى التغنى بأجداد قومه الأتراك ، ولهذا
حفل شعره بالحديث عنهم . قال فى الأسطول العثمانى ، قصيدة مطلعها :

هز اللواء بعزك الاسلام وعنت لقائهم سيفك الأيام
وحين سقطت الخلافة قال متوجعاً :

سل يلنذا ذات القصور هل جاءها نيا البسود
إلى قوله فى عبد الحميد :

دخلوا السرير عليك يحتكمون فى رب السرير
أعظم بهم من أسرى ن وبالخليفة من أسير
أسد هصور أنشب ۛ أظفار فى أسد هصور

قالوا اعزل قلت اعزنا ت الحكيم لله القدير
ثم استقبل كما أتانورك قائد الثورة التي أطاحت بالخلافة والخلع
العثمانيين بقصيدة مطلعها :

الله أكبركم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد الغرب
٤ - الشعر السياسي :

على الرغم من أن منصب شوقي في القصر يبعده عن السياسة والحوض
فيها ولكنه لم يحتجب عن مواقفها فقال في دنشواي :

يا دنشواي على ربك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام
وندد باختلاف الأحزاب في رثائه لمصطفى كامل فقال :

إلام الخلف يبنكمو إلأما وهدى الضجة الكبرى علما ؟
وأي القوز لا مصر استقرت على حال ولا الودان داما ؟
وفي الشوقيات ، الكثير من الشعر السياسي .

٥ - في الآثار المصرية :

تحدث شوقي حين حديثه عن الآثار المصرية عن حضارة مصر ووطنه
وفنونها وتقدمها العلمي فكان شعره السجل الحافل لتلك الآثار
قال في (أبي الهول) . قصيدة مطلعها .

أبا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر
وفي (توت عنخ آمون) قصيدة مطلعها :

ففي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون في الغابرينا
وفي قصر (أنس الوجود) . قصيدة مطلعها :

أيها المنتحي بأسران دارنا كالثريا تريد أن تنفضا

٦ - شعره الغنائى :

رق شعر شوقى قرأى المغنون والمغنيات فيه مادة طيبة لغنائهم ، ورأى فيه الموسيقيون إيقاعات عزت مشاعرهم فاهتز لها ألحانهم ، ومن هنا كثر الغناء فى شعره فيتغنى له بنبج البردة . (ريم على القاع ...) وبالحمزية (ولد الهدى فالكائنات ضياء) : (سلوا قلبى غداة سلا وتابا) ، (سلوا كئوس الطلائع لآسى فاه) و (أنا أنطونيوس) ، ردت الروح على المضى معك) ، (مضناك جفاه مرقده) .

٧ - شعره التاريخى :

لشوقى شعر تاريخى سوى ذلك اللون المسرحى الذى تكلمنا عنه ، ومنه الأرجوزة الطويلة التى تحدث فيها عن على وأخلاقه ، وموقعة صفين ، وعن أبى بكر وفتوحاته ، وعن عمر وفتوحاته قال فيها فى يوم صفين .
يا يوم صفين ، بمن قضاكا
عل أنصف الجمان إذ خاضاكا
فبك انتهى بالفتنة التراقي واعطدم الشام بالعراق
ثر شوقى :

قال شوقى ثراً ولكنه الشعر المنثور ، عمد فيه إلى قوة اللفظ وأناقته وحسن المعنى ودقته ، وبعد الخيال وسموه ، فهو ثر فى يدل على قوة فى التصوير والتعبير وله فيه كتاب (أسواق الذهب) .

نماذج من شعره

١ - تحية خاندى حين مروره على مصر فى طريقه إلى إنجلترا لمفاوضة الانجليز :

سلام شيبيل يا غندى وهذا الزهر من عندى
إلى : على إفریز (رجبوتسا ن) . تمثال من الجريد
شبه القول والفعل من المنتظر المهسى
ومنها : على المسائدة الخضراء . خذ حذرك يا غندى

دراق ورق السير وما في ورق المورد
وكن أبرع من يلا موب بالشرنج والنرد
وقل هاتوا أفاعيكم أنى الحاوى من الهند

٢ — فى الوصف : وقد جرى به ابن خناجة الأندلسى وأبدع :

وخمسلة فوق الجزيرة منها ذهب الأصل حواشياً ومتوناً
وقف الحيا من دونها مستأذناً ومشى النسيم بظلمها ماذوناً
وجرى عليها النيل يقذف فضة ثراً ويكسر مرمرأ مستوناً
يغرى جواربه بها فيجتها ويثيرهن بها فيستعلينا
ومن تصيدة دمشق فى الوصف :

أمنت بآفه واستنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خائلها الأرض دار لها الفيحاء بستان
دخلتها وحواشها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان

٣ — من أياته فى الحكم :

ولما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعزلاً
وليس بعامر بفسان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً

٤ — من شعره السياسى فى رثاء المرحوم مصطفى كامل ..

أبعد الفروة الوثقى وصف كأياب الغضنفر لن يرأما
أرى طيارهم أوفى علينا وحلق فوق أروشنا وحاماً
وأنظر جيشهم من نصف قرن على أبصارنا ضرب الخياما
فلا أماناً لنا تقصوه ربحاً ولا خواتنا زادوا حساماً

ونلقى الجور صاعقة ورعدا إذا (قصر الدبارة) فيه غاما
إذا انفجرت علينا الخيل منه ركبنا الصمت أو قدنا الكلاما
فابتنا بالتخاذل والتلاحي وآب بما ابتغى منا وراما

هـ - من شعره الاجتماعي :

(أ) بعد أن عارض جنبا د قاسم أمين ، عاد فقال في المرأة :

وهذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات ،
والعلم كان شريعة لنفائنه المتفقهات ،
ورضى النجارة والسياسة والشئون الأخريات ،

(ب) في العمال :

أيها العمال أفنوا له مر كذا واكتسابا
واعمروا الأرض فلولاً سميركم أمت يابا
أين أتم من جدود خلدوا هذا الترابا
قسلدوه الأثر المله جز والفن المعجبا
وكسوه أبد الدهر من الفخر الثيابا
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد اغتصبا
أرضيتم أن ترى مصر من الفن خرابا
بعد ما كانت سماه للصنعة ساعات وغابا

أزجال شوقي وموشحاته :

قال شوقي ، في الموشحات ، ومنها الموشحة الأندلسية وقال في الأزجال
ولكنها جاءت كشعره في الدقة وروعة التصوير وسمو الخيال . ومن أزجاله

الفجر شقيق وفاض على سواد الخيله
لمح كشح ثياب من العيون الكحيله
والليل سرح في الرياض أدم بقره جميله

تأثير شوقي في الأدب والأدباء وخصائص شعره :

تدين الأمة العربية لشوقي بالفضل حيث فتح أبواباً كثيرة للشعر
كالشعر التمثيلي والغنائي ، وقد ترك وراءه ديوان الشوقيات ، الذي يعتبر
مدرسة تربي فيها الكثير من الشعراء .

كما ترك المسرحيات الخالدة التي قدمنا الكلام عنها .

ويمتاز شعر شوقي بقوة النسيج وثقافة الأسلوب وروعة الالفاظ ودقة
المعاني ، وقد ابتكر في المعاني نتيجة لدراسته للأدب الغربي .

وأخيراً .. كان شوقي الممجزة التي ساقها الله لهذا العصر ، فهل ترى
مصر بعده معجزة أخرى ؟ ١٩ .

عبدالله التديم (خطيب الثورة العراقية)

نشأته :

ولد عبدالله في (كثر عسرى) بالإسكندرية في العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٦١ هـ (١٠ / ١٢ / ١٨٤٥ م) . وتعهده والده مصباح بن إبراهيم الإدريسي بالرعاية ، ولم يشأ أن يمتحن حرفته وهي صناعة الخبز ، وإنما دفع به إلى الكتاب ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم ألحقه بجامع الشيخ إبراهيم باشا في حي (المنشية) ، وسارت حياة عبدالله رغبة بتلقي العلم والدين على أشياخ وقته . ثم بداه أن يتعشق الأدب ، وينحرف عن خط تعليمه فدرس فن البرق والتلغراف ، ليوظف فيه ويصبح دأفندياء مرموقا ، وكانت الحاجة - في ذلك الوقت - ماسة إلى استخدامه واستخدام أمثاله في مكاتب البرق التي بدأت تنتشر في أنحاء البلاد ، وأتاحت له هذه الوظيفة الاتصال بكثير من الناس ، حتى اختير للعمل في القصر العالي بالقاهرة .

التديم :

قبل أن يغادر عبدالله الإسكندرية اشتغل أديبا هاويا في أزقة الثغر وشوارعها . يجرى قورا الزجالين . ويحاط الما جنين والمتماجنين ، ويقلد هؤلاء وهؤلاء ، حتى يذم ، وذاع صيته ، ومال كثير من الناس إليه ، ودعوه إلى مجالسهم وسهراتهم .

وأنسوا إلى سرعة عا طره وخفة روحه وطلاقة لسانه ، وفي القاهرة أتيح له أن يغشى الأندية والمجالس الخاصة في دور الكبراء ، وفيها تعرف إلى كثير من وجهاء مصر ووزرائها وأصحاب الثراء فيها ، ومن أشهر هذه الدور التي كان يغشاها دار المعاصر والوزير محمود سامي البارودي باب الخلق

وفي هذه الأندية والمجالس لقب عبد الله ، القديم ، وألف الناس هذا اللقب وبه اشتهر .

سياحة في الوجه البحري :

لم يستطع القديم أن يحتفظ بوظيفته ، لأن صراحته وسلطة لسانه جرت عليه المتاعب ، فطرده ، خليل أغا ، من القصر العالي ، وخرج القديم من القاهرة ومن ورائه وأمامه شهرة في رواية الأدب القديم وقدرة على إشاعة جو الفكاهة والمرح وإزاحة الملل والسأم ، ولهذا استقبله الموسرون استقبالا طيباً ، وحاول القديم أن يتكسب بالتجارة وبالفلاحة وبالتعليم ، فلم يفلح وبارت حرفه ، ولم يبق له إلا حديثه الشهي وفكاهته الحلوة ولسانه النرب ، وفي هذه السياحة زار طنطا ، في موسم المولد الاحدى سنة ١٢٩٤ هـ ونصب له شاهين باشا كنج ، سرادقا وأحضر له المشهورين من الرجالين و الأدباء ، ، ووقف القديم يناظرهم ويساجلهم مدة ثلاث ساعات حتى أخلمهم وأقروا له ، وازداد شهرة .

اشتغاله بالسياسة :

ومن هذه السياحة عاد القديم إلى الاسكندرية وقد سلخ من عمره خمسا وثلاثين سنة ، واتصل بأعضاء (جمعية مصر الفتاة) وكانت جمعية سرية تشغل بذاكرة الإصلاح السامى ومن أعضائها أديب إسحاق وسليم نقاش السوربان ، ولكن القديم فضل الخروج بالجمعية من السر إلى العلن ، فأنشأ (الجمعية الخيرية) بالاسكندرية ، وألحق بها مدرسة لتعليم الناشئة ، وأخلص القديم للجمعية وللدعوة ، وجعل منها مذبذبا للخطابة والتبليغ وإنشاء الشعر ، وفي هذه الأثناء كان يكتب الصحف التي تصدرها أديب إسحاق وسليم نقاش ، حتى أتبع له أن ينشئ لنفسه صحيفة خاصة باسم (التنكيك والتبكيك) جعلها ممرضا لأدبه وأفكاره .

صحافة النديم والثورة :

وعالج النديم في صحيفته الحياة الرخوة التي كان الشعب المصرى يحياها في تلك الايام ، وجعل من نفسه أستاذاً للتربية الوطنية ، فثلا نعى على أبناء مصر انخداعهم بالمدينة الزائفة ، وصور الموبقات الاجتماعية التي انتشرت في عهده ، وعاب المصريين الذين يرسلون أبناءهم إلى المدارس الأجنبية ، ودعا إلى إنشاء الجمعيات الاقتصادية . وحذو قيام القانون ، واستنفر الناس إلى العمل ، وأسهم في التمرير بالفلاح المصرى ودعا إلى تعليمه ، وحذر من تدخل الأجانب في شئون البلاد .

هذه الأفكار وأمثالها ساعدت دون شك على التهيؤ للتغيير وللثورة على الأوضاع القائمة ، فإذا قامت الثورة العرابية - وقد قامت سنة ١٨٨٢ م - كانت الأذهان مشحونة لا فارغة .

ووجد العرابيون في النديم - إلى جانب هذا - خطيباً ذلق اللسان ، ووطنياً ملتبياً بالمشاعر الوطنية ، فضموه إليهم ، وكان معهم كما أرادوا ، ووقف عليهم نفسه وقله ولسانه ، وغير عنوان صحيفته ، فأصبحت تسمى (الطائف) ، وصارت لسان الثورة ، وجعل هو يكتب المقالات المؤيدة لها وينشر أخبارها ، ويصب الثقمة على الأوروبيين تارة وعلى خديو مصر - الخديو توفيق - تارة أخرى . وبهذا أسهم النديم في إلهاب مشاعر المصريين وإدراكهم معاني الدستور والحرية والكرامة الوطنية ، التي كانت تنادى به ثورة عرابى في ذلك الوقت .

القرار والنقى :

وأخفقت الثورة العرابية - كعمل عسكري - واستسلم قائدوها عرابى ، ولكن النديم آثر أنه يصر .

وكان فراره مغامرة مليئة بمواقف الجراءة والشجاعة والحيلة ، واجه فيها وحده الاخضرار طيلة تسع سنوات ، والحكومة تبث عيونها ، وتحذر الناس أن يساعده ، وتعدم بألف جنيه إن عثروا أو دلوا عليه . وعلى الرغم من هذا كله آواه كثير من الناس وأكرموا لقاءه ، وكان هو من ذلاقة اللسان وسحر المقال بحيث يأسرهم ويستميلهم إلى جانبه . وأخيرا أمسكوا به في قرية الجميزة ، بالقرية . ونفوه إلى دياقا ، وهناك اتصل بأعيان الشام ، وودم ورودوه ، وزار المقدسات الدينية ، وظهرت نزعة الصوفية ، وبقي هناك حتى أعلن بالغفوة سنة ١٨٩٢ م .

خاتمة انطاف :

عاد النديم إلى أرض الوطن ، واستأنف نشاطه الصحفي والإدبي ، وأنشأ صحيفة ، الأستاذ ، ووقف إلى جانب الحديدي الشاب - عباس حلي الثاني - ولكن النديم عاود الحديث عن علل الشعب المصري وعلاجها ، فلم يعجب الإنجليز ، واتهمته صحيفة ، المتكلم ، بالحياة ، - وكانت لسان المحتل الغاصب - وحاول النديم أن يدفع عن نفسه ، ولكن الإنجليز أملوا على الحكومة الأمر بنفيه ، فاختار الذهاب إلى ، الأستاذ ، ، وقبل هناك وظيفة (مفتش للطبوعات) ، والتقى في الأستاذة بهمال الدين الأفغاني ، وكان هذا على خلاف مع أبي الهدى الصيادي ، ومن حظ الأفغاني أنه لا يعدم في أي مكان من بروج لأفكاره وينقل رأيه ، فاتخذ من النديم أداة لمحو الصيادي حتى ألق فيه وحده كتاباً سماه (المسامير) وهو هجوم مقدع ، لا يشرف المحامي والمهجر معاً .

ورافته المنية بالأستاذة ليلة الأحد الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣١٤ هـ .

(١١ / ١٠ / ١٨٩٦ م) .

شخصية النديم :

يطول الحديث عن شخصية النديم ونكتني بالإشارة إلى رموس المسائل التي كونت هذه الشخصية العجيبة وأثرت فيها .

(أ) شعبيته وانبساطه إلى الناس ورغبته في صداقتهم .

(ب) طبيعة الكفاح والنضال في نفسه . وهي طبيعة فيه ظهرت مبكرة وجعلت تنمو مع الأحداث .

(ج) تعدد مواهبه الأدبية .

(د) تنوع ثقافته . حفظ القرآن الكريم ، ودرس بعض المتون الأزهريّة ، وعرف منبشة القصور ، واشتغل بقراءة كتب الأديان والحكمة والتاريخ والأدب ، وأتمن أن تدريس الخطابة . والصحافة . وفوق هذا كله كانت الحياة هي مدرسته الحقيقية .

أهم مؤلفات النديم :

١ - مقالات ومحاورات وحكايات باللغة العربية وبالعامية في محفنه الثلاث (التنكيك والتبكيك - الطائف - الأستاذ)

٢ - كتاب سلافة النديم ، ويضم عدداً من مقالاته المختارة ورسائله الإخوانية .

٣ - مسرحية الوطن ، ومسرحية التعمان .

٤ - المذكرات السياسية .

٥ - السامير في هجاء أبي الهدى الصيادي .

٦ - أشعاره (وقيل إن له أربعة دواوين شعرية) وقد جمع الدكتور السعودي حو إلى ألف بيت من هذه الأشعار .

٧ - كتاب (ألف بالمطارحة الألبا) وهو كتاب في المطارحات الشعرية لم يتمه .

٨ - كتاب (كان ويكون) وهو عرض شامل للأديان والملل والنحل وتاريخ الشرق والغرب .

أدب النديم :

اتسع أدب النديم وتنوع ، حتى صار له في كل ألوان الأدب مجال . ولعل هذا الاتساع وهذا التنوع كانا محمودين في زمنه وقبل زمنه عندما كان مفهوم الأدب والثقافة هو الأخذ من كل فن بطرف . أما في عصرنا اليوم فقد صار التخصص رغبة وطلباً ، ابتغاء الإتقان والتعمق .

وأيا كان الأمر فليست لنا مندوحة عن تسجيل الواقع التاريخي لهذا الرجل الأعجوبة ، الذي شدا بالزجل ، وألف للسرحة ، وكتب القصة ، وديج المقامات ، وأنشأ الرسائل ، واشتغل بالخطابة ، وصاغ النقال ، واصطنع المحاورة ، وأنشد الشعر .

١ - الزجل :

والزجل أدب شعبي يصطنعه الأذكاء من أبناء الشعب ويمارسونه ، ولعله اللون الأول الذي عرفه النديم في أزقة الإسكندرية ومقاهيها . كما أشرنا - وسرعان ما برع فيه وعرف به حتى دعى إلى مسابقة الرجالين في طنطا ، وصال هو وجمال حتى انتزع الإعجاب بمثل قوله :

نفر مثلي في يمانه والقي يفخر بماله
والأدب أحسن صفاتي فالذكي حسنه كاله
والليب يظهر بعلمه والغلام مجده جماله
كل قول المرء يعني غير محمود المآثر

وتم يكثف النديم باصطناع الزجل للفساكة والنادرة ، وإنما اتجه به إلى شئون المجتمع وجعله في خدمة أفكاره . ومن ذلك قوله في بهرج المدينة

الذى خطف عيون المصريين فانكبوا على الموبقات الاجتماعية وجعلوا
ينفقون أموالهم على الخمر وما إليها مما يسهه الأجانب لهم لإبتزاز أموالهم
وإخماد الوطنية فيهم :

ضحكت أوروبا على عقولكم لجل تطولكم بالخمر والقول والنسوان
وراح صلاحكم ويفينكم بل راح دينكم لما استحلوا البيهتان
اسأل بئى جرجى وبئى مش تسألنى تلقى الفلوس راحت اليونان
ياميت خسارة وندامة والله غرامه نبيع بكاس خمره الأوطان
أدى المصائب ولا بلاش يا أوباش بتم لأوروبا عبدان

ومثل هذا كثير .

وعلى الرغم من موقفنا من العامية كأداة نجد النديم كان موفقاً في
استخدام الألفاظ الدارجة ترفيقاً كبيراً ، فقد كان ينتقى ما يصلح منها للتعبير
عما يحسه ويتأثر به .

٢ - المسرحية :

اشتغل النديم بشئون المسرح عندما كان معلماً ومديراً لمدرسة الجمعية
الخيرية . ويعتبر النديم من أوائل المصريين الذين كتبوا للمسرح ومارسوه
تمثيلاً ، وقد كتب مسرحيتين : إحداهما باسم « النعمان » فيها حديث عن
العرب ، وما أتوه من العجب ، ولم نعر عليها . والأخرى باسم « الوطن »
عرض فيها صورة حياة للمجتمع المصرى الذى تبدلت إرادته بفعل الاستبداد
فانصرف يعترض من حريته السلبية بتعاضى المسكرات وإدمان المخدرات
وتنويع السهرات ، كالمريض الذى يلجأ إلى المسكنات التى تؤجل الإحساس
بالداء ولا تتصله .

ولا نستطيع القول بأن هذه المسرحية كانت عملاً أدبياً فاضحاً ،

لأن بناءها لم يقم على أساس فني ، وإنما كان اجتهداً من التديم ، وهو اجتهد بحمد له في زمانه ، ويجعله من رواد التأليف المسرحي في مصر ، فهو أول مصري وضع مسرحية - باستثناء يعقوب بن صنوع - وهو أول من كون جمعية تمثيلية ، وهو أول من أدخل المسرح إلى المدرسة المصرية .

٢ - - القصة :

عالج التديم الأدب القصصى ، وانجه به انجاءً اجتماعياً ، واستغل أسلوب الحكاية باللغة العربية وبالدارجة ، مثل : سهرة الانطاع ، وغفلة التقليد ، وعربى تفرنج ، والجنون فتون ، ومجلس ضي على مصاب بالانفراجي والمرافقة الوضعية ، وبعض هذه الحكايات ، وصفي يسرد فيها وقائع مقصودة لذاتها ، وبعضها ومزى جعلها أفتية للحديث عن علل اجتماعية معينة مثل (مجلس ضي على مصاب بالانفراجي) وقد أشرنا إليها في موضع آخر من الكتاب .

وفي غفلة التقليد - كثال للحكاية الرصفية - يذكر أن واحداً من حمير الأموال بنى بيتاً وأتته بفاخر الأثاث والرياش ، ودعا الناس إليه فرأوا ما بهرم وأعجبهم ، وكان بينهم نبيه جعل يتفقد البيت حتى انتهى إلى خزانة كتب ، فجعل يسأل عنها وعما تضمه من الكتب وعن داعية اقتنائها ، وأجابته حمار المال بأنه لا يعرف القراءة والكتابة وأنه إنما دخل بيت الشيخ فلان والسيد فلان والحاج فلان . . . فرأى عند كل خزانة كتب وعليها ستارة خضراء ففهم أن هذا طرز جديد ^{سميت} دمودة ، في بناء البيوت . ففمنع منهم ليكون من المتدينين .

هذه خلاصة مركزة للحكاية . ويقصد التديم منها أن يحسم الجهالة التي تدعو الناس إلى أن يقلد بعضهم بعضاً دون مانتظر إلى المنفعة والفائدة ،

وكان التديم يخشى أن توسع دائرة التقليد الأعمى ، فتضيع الأقدار ، ويكون الانحلال ، وتلك آراء يقصد إليها التديم فعداً ، وإنما يتخذ الحكاية نكاة لمرضاها .

والميزة التي تميز أفاصب التديم طابعها الواقعي - بمعنى تصويرها للحياة الواقعة - وأسلوبها السهل الذي لا تفتق في الألفاظ والعبارات ، والإكثار من كلمات التهمك والسخرية ، واصطناع الرمز أحياناً ولكنه الرمز الذي يدركه عامة المثقفين . ومهما يكن الجهد الذي بذله التديم في أدب القصة قصيراً فقد وضعه في صف رواده من النصريين .

٤ — المقامات :

كان التدريب على الإنشاء ينظر إلى أسلوب المقامات في التسميق والزخرف اللفظي والصنعة البديعية . كذلك دمج التديم كتابه (المسامير) واصطنع فيه قالب المقامات المعروف . وهذا الكتاب في هجاء أبي الهدي الصيادي مفتي البلاط العثماني ، وقد أشرنا سابقاً إلى سر وقوع التديم فيه . ونذكر لك طرفاً من (المسمار الأول) :

حدث الشريف أبوهاشم . قال أُملي علينا العارف بالله أبو القاسم ، أنه نشأ في الطاعة ، على مذهب أهل السنة والجماعة ، واشتغل بالصلاة والصيام وذكر الله تعالى والناس نيام ، وتعليم العلوم الدينية ، والبراهين يقينية ، وإرشاد المريدين ، إلى نهج الراشدين . وكلما خطر له عمل بين الجوانح ، قامت في الحال الجوارح ، فقتضى أربعين سنة في العبادة ، والتلقين والإفادة ولم يخطر له وسواس ، من الخنة والناس ، فأخذه العجب من طهارة قلبه ، وانقطاعه لعبادة ربه : مع علمه أن إبليس اللعين : عدو للصالحين ، وبدا له أن يبحث عنه ، ويسأل عن عدم قربه منه ، فلبس ثياب الاستغفار ، وجاب

الغياثي والفقار ، ودخل البلدان ومسارحها ، وطاف مشارق الأرض ومغاربها حتى اجتمع بشيطان ، من أولاد الجان ... ،

والأملوب - كما ترى - أسلوب بديعي مصنوع ، والسجعات غير مكرهة على موضعها ، وقد يعمد فيه إلى التكرار وذكر المترادف ، وبضمنه آيات القرآن والأمثال والأشعار .

ولكننا نجد فرقا بين مقامات التديم والمقامات القديمة من :

(أ) المقامات القديمة أنشئت للتفاسيح بغرائب اللغة ، أما مقامات التديم فقد أنشئت مترابطة الفكرة لهجاء الصيادي ولهذا يمكن أن تدعى عملا قصصياً متابع الحلقات .

(ب) اشتركت في أن لها راوية محدثا وشيخا مرويا عنه ^(١) . وجملة القول فيها تروى على لسان شخص خيالي يتخيل حوادث والأشخاص ، ولكن مقامات التديم لدورانها حول حوادث الصيادي - وهو شخص حقيقي - حاولت أن توهمنا بحقيقة أمره .

(ح) الكدية طابع المقامات القديمة ، وقد نجت مقامات التديم منها .
هـ - الرسائل :

كتب التديم إلى كثير من أصدقائه . وخضع في كتابته سلطان اللفظ ، وجعل يتلصق البديع ، مقلدا للأقدمين ، ومتأثرا بالزى الأدبي في عصره . أقرأ له في رسالة كتبها إلى الشيخ محمد العشري في مناسبة نجاحه من حادث :

« سيدى ، وبجيرى ، ومؤيدى ، ونصيرى . يخلصك التحية ، غرس بستانك ، وغصن رقتك ، وزهر إحسانك ، وثمر دقتك ، الطيبة الشبية ، ويهدى ليدانك ، الرفيعة ، الشريفة ، ويعرض لسدتك ، المتعة ، المنبعة ،

(١) مقامات الحريرى ليس فيها راوية بل كان يبدؤها بقوله :

يا أبا القاسم .

سلام لسان، وجنان، ويميل لرأفتك، وعظيم فضلك، بل إلى رحمتك،
وعميم عدلك، ميل حيران، ولهان.

رى بالنسا وطول التناقى على أنه مخلص فى الوفا.
لعبت به الأشواق، فى مصارع العشاق، لعب الراح بالآرواح،
فى مجلس الأنس، وجرت به الأنواق، فى ميادين الأذواق، جرى السحاب
والآرواح، فى حومة الشمس.

وهى طويلة يتلاعب فيها ويفتن ويتنقل من يجمع إلى جناس وطباق
وتورية واستخدام وتضمن وإشارة وازدواج... الخ، ومثلها من رسائله
كثير. وهذا الاهتمام بالجانب اللغوى يستهلك فى الجملة المعانى ويضحى بالأفكار.
٦ - الخطابة :

أول ما اشتغل النديم بالخطابة فى الجمعية الخيرية ومدرستها، فقد رتب
ليلة الجمعة موعدا للخطابة والمباراة فيها، وكان يدرّب عليها تلاميذ المدرسة،
ويقفهم أمام الجمهور، ويعطيهم المثل من نفسه على مواجهة الحضور.
خطب النديم فى الأمور الاجتماعية، واتخذها منبرا لإيقاظ الشعب،
وكان أهم ما يشغله الفراغ الذهبى الذى يعيشه الشعب. حتى انخرط فى الثورة
العراية فتحوّل إلى فكرتها، ودعا لها، وجعل يندد بظلم الحكام، وعسف
المحتل، ويوقظ الأمة، ويحمس الجند، ويلهب المشاعر، ويدعو لعراي
وصحبه.

وقد رشحه الأزهريون - وهم أولو الكلام - لخطب فى الجامع الأزهر،
وكانوا يجتمعون حوله، ويتسمعون إليه.

٧ - المقال :

كتب النديم المقال فى المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية.
فى المجال الاجتماعى كتب فى شئون التربية والتعليم ودعا إلى خلط

التعليم الدينى والتعليم المدرسى ، ونادى بإصلاح الأزهر ونظمه التعليمية فى مقال طويل عنوانه (العلماء والتعليم) ، وطالب بتطبيق الدراسات العملية على النظريات ، وكتب فى شئون الحياة المصرية وحل عوامل التقدم عند الغربيين والتأخر عند الشرقيين .

وفى المجال السياسى كتب فى الحقوق الدستورية وفى دواعى الثورة وفى الجامعة الشرقية والمصرية والعربية ، وما كتبه عن الجامعة ثمريه فى مقال له بعنوان (الجامعة الوطنية والاختلاط العرقي) :

« علينا - معاشر المصريين والسوريين - أن نحى ما أماته اتخذاذل من مجد السابقين ، وشرف المتقدمين . فإن التاريخ يتلو علينا من فضلم آيات . ويؤكد لنا أنهم ما وصلوا إلى ذروة المجد بالمعارضات الدينية ولا بالمناكرات الجنسية ، وإنما ظهر مجدهم فى مصر ، وحيدا ، وصور ، وفوطاجنة . بالجاذبة السكر بائية المساء بالجامعة الوطنية والاختلاط العرقي . . .

وفى المجال الثقافى كتب النديم المقال فى شئون الخطابة ونشأته وقيمه وأبدى رأيه فى الصحافة ودورها ، وفى التمثيل وأدائه ، كما أبدى رأيا فى اللغة ، ونادى لإنشاء مجمع للغة العربية حدد مهامه .

وتتمثل مقالات النديم انتقال أسلوبه من البديع المزخرف إلى التعبير المرسل .

٨ - المحاوره :

أعجب النديم بهذا اللون من الأدب منذ صباه ، فكاتب مناظرة خيالية بين السفينة والقطار ، ثم نقله إلى حيث يودى عنه وظيفة اجتماعية يحمل آراءه بين قرائه . وموضوعاته - إذن - هى نقد المجتمع والاختلاف بناصره ، ومنها ما جعله ممرضا للذقاق عن نفسه يناقش خصومه ويستدرجهم إلى وجهته

٩ - الشعر :

تنوعت أعراس الشعر عنده بين الشعر الاجتماعي ، والديني ، والوصفي
وشعر المناسبات والمجاملات ، والهجاء والمخاطبة أو الحكمة . يقول في الغزل :
سلوه عن الأرواح في ملاحبه وكفوا إذا سل المهند حاجبه
وعودوا إذا نامت أراقم شره وولوا إذا دبت إليكم عقاربه
أراه بعيني والدموع تكاتبه ويحجب عن والفؤاد يراقبه
فهل حاجة تدني الحبيب لهبه سوى رغبة تضي الخشا وتجاذبه
ويقول في قطار البخار :

نظر الحكيم صفاته فتحميرا شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن إلى ديار أسره بحريد قلب الملهيب تسيرا
ويظل يسكن والدموع تزيد رجاء في انضاء استرا
تلقاه حال السير أفق تلتوى أو فارس الهيجا آثار التلوى
أو أكره أرسلتها ترى بها غرضا بجات أن ترى حال السرى
أو سبع غاب قد أحسن بصائد في غابه فعددا عليه وزجرا
فكانه المديون جاء غريمه فأنزل عنه وغاب عن تلك القرى
أو أنه شهب شوت من أنقها أو قبة المنطاد نبيذ بالعرا
لا عجب للزيران إذ يمضى بها فمن الظل تجرى النورى كى تحشرا

وقد عرضنا عليك أعراسه في أولهما - وهو الغزل - ينظر التديم
معاني الأقدمين وأصلوهم ، فهو لا يميز عن تجربة حب . وفي النموذج الثاني
يصف القطار ، وهو وصف جيد في جملة ، وضع فيه القطار في أكثر من
سرورة تكذب عن سرعته وأنى يتميل حسن هذه السرعة في البيتين الثاني
والثالث ، فالقطار غريب به حين وشرق إلى ربوعه ، والقطار محب يفضحه
بكاؤه فيجرب ليستر حبه ، وكذلك في البيت الأخير تعليل لطيف لاندفاع
القطار بالزيران استقاء من محشر الناس يوم القيامة .

نصوص العصر الحديث

١ - البارودي :

متى أنت عن أحقوة الغنى تازع
وفي الشيب للنفس الآية وازع ١
ألا إن في سبع وعشرين حجة
لكل أخى لحو عن اللهو رادع ٢
أمالك في الماضين قبلك زاجر
يكفك عن هذا بلى أنت طامع ٣
وهل يستفيق المرء من سكرة الصبا
إذا لم تهذب جانبيه الوقائع ٤
ألا إنما هذى الليالى عقارب
تذب وهذا الدهر ذئب مخادع

اللغة والصناعة والوجوه البلاغية :

(١) الاحقوة : أفعولة من الحق ، وهو وضع الشيء في غير موضعه ونزع
يوزع بالفتح والكسر نزوعاً كف وانتهى ، والآية الممتعة ، والوزع كف
النفس عن هواها . وبين تازع ، ووازع جناس ناقص .

(٢) أخو اللهو : الملازم للهو ، والردع : الكف .

(٣) الزجر : المنع والتهنى ، بلى . يجاب بها بعد النفي لإبطاله والاستفهام
في أمالك للترنيخ .

(٤) استناف وأتاني بمعنى واحد ، ويهذه تنقيح من الأيوب ، والوقائع
الدواهي والتنازلة المركبة والحرب والاستفهام في وهل يستفيق على معنى النفي .

فيا ربما بات الفتى وهو آمن
وأصبح قد سدت عليه المطالع ١
قيم اقتناء الدرع والسهم نافذ
وفيم ادغار المال والعمر ضائع
يود الفتى أن يجمع الأرض كلها
إليه ولما يلي ما الله صانع ٢
فقد يستحيل المال حثفاً لربه
وتأتى على أعقابهن المطامع ٣
ألا إنما الأيام تجري بحكمها
فيحرم ذو كد ويرزق وادع
فلو أن ما يعطى الفتى قدر نفسه
لما بات رثيال الثرى وهو جائع ٤
فلو علم الإنسان ما هو كأن
لما نام سمار ولا عب الحاجع ٥
وما هذه الأجسام إلا هياكل
مصرورة فيها النفوس ودائع :
فأين الملوك الأقدمون تسنموا
فلا ل العلاء فالأرض منهم بلاقع ؟

-
- (١) المطالع : جمع مطلع بكسر اللام .
(٢) الدرع : لبوس الحديد . والسهم واحد النبل .
(٣) استحال الثرى : تحول ، والحثف : الموت ، وتأتى على أعقابهن : تأخذ
في رجبها ولم تنتن ، والمطامع أرزاق الجند .
(٤) الرثيال : الأسد . والثرى : موضع التماسد (هـ) الحاجع : النائم ليلاً .
(٦) تسنموا : علوا ، والقلال جمع قلة : أعلى الشئ ، والبلاقع جمع
بلقع : المكان الخالي .

مضوا وأقام الدهر ، واتاب بعدهم
ملوك ، وبادوا ، واستهلك طلائع ١
أرى كل حي ذاهبا يد الردى
فهل أحد من ترحل راجع ؟
أنادى بأعلى الصوت أسأل عنهمو
فهل أنت يادمر الأعاجيب سامع ؟
فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة
وفي الدهر صرق جمة ومنافع ٢
أصبراً على مس ا وإن وأتم
عديد الخصى إني إلى الله راجع ٤
أرى أروماً قد أينعت لحصادها
فأين ولا أين السيوف القواطع ٥
فكفونا حصيداً خادعين أو انزعوا
إلى الحرب حتى يدفع الضم ٦

-
- (١) اتاب من تاب ينوبه ، وبادوا : هلكوا ، واستهلك : ظهرت والطلائع : الجماعات ، والمراد الملوك .
(٢) الأعاجيب جمع أعجوبة كأحدثة وأحاديث وهي ما يتعجب منه .
(٣) الطرق جمع طريق .
(٤) الاستفهام إنكارى والهوان الخزي .
(٥) أبيع النمر : نضج .
(٦) الحصيد : المحمود . والخامد من خمدت النار سكن فيها ومهدت والضم : الظلم .

أعيت فماد الصوت لم يقض حاجة

إلى ولباني الصدى وهو طائع ١

فلم أر أن الله صور قبلكم

تمائيل لم يخلقن لمن مسمع

فلا تدعوا هذى القلوب فإنها

قوارير يحيى عليها الاضالع ٢

وودتكوعا صاعدة منطقية

تقل شبا الأرماع وهي شوارع ٣

ألا إنها تلك المنى لو نزلت

على جبل أهوت به فهو خاشع ٤

الشرح والتعليق . هذه القصيدة للبارودي ، وتقدم التعرف به ، وهي في

موضوعات مختلفة ، وقد نحا فيها د البارودي ، منحي الشعراء القدماء ينتقلون

في القصيدة الواحدة من غرض إلى آخر ، وأتجه المجددون إلى وحدة

الموضوع في القصيدة .

ود البارودي ، يقدم أولا العظات والنصح ثم يسوق الترهيد في الدنيا

ثم يتحدث عن مضوا وبادوا ثم يدعو قومه إلى الحرب لدفع الضيم عنهم

ويتنهم بهم ثم يعود فيهب ويقول أن مشورته لهم هي المنى .

يقول : في أي زمان تكف عن ضلالك الطائش (وفي أحوقة النى)

لإضافة الصفة الموصوف ، وفي هذا الشيب الذي بدا كاف وزاجر النفس .

(١) الصدى : الصوت المتردد على النداء في الجبال والأماكن الفسيحة .

(٢) القوارير : جمع قارورة ما قر فيه الشيء من زجاج وغيره .

(٣) دونك الشيء . خذه ، والصاعدة القناة المستوية ومنطقية منسوبة إلى المنطق

وهو الكلام ، والشبا جمع شباة ، وهي حد السيف ، والرماع الشوارع المسددة
وتقل : تكسر .

(٤) الضمير في إنها للشورة والخاشع : الساكن الخاضع .

وفي النسخ والعشرين لمصاحب الله ما يردعه عن لوه ويذره عن
الركض في مباديته ، أو ليس في الماضين عبرة تزجرك فتكفك عن لوك
بل أنت طامع في الشهوات . وبلي جى بها لإبطال النقي السابق .
وهل الذى يعيس في سكرة صباه يفيق من غوايته إذا لم تنبهه المعارك
والدواهي ، بين يستفيق وسكر طباق وكفى بالجانيين عن النفس .
وهذه الليالي التي نعيشها كالعقارب تدب إلينا حاملة الشر بل الموت
وهذا الدهر كالذئب الذي يختال فرائه ، ثم يقتالها ، وفي البيت تشيهان
(والليالي كالعقارب والدهر كالذئب) .

فرب قتي بات ليله آمناً هائلاً ، ثم حان له الصباح فإذا آفاق الدنيا قد
سدت عليه . فلماذا تقف الدروع لتتقي بها الحادثات والمقدور نافذ وفي قوله
« والسهم نافذ » ، يجوز ، وفيه تدخر المال وتصونه والعمر ذاهب إلى غير
رجعة . وهاتان حكمتان تحملان النصيح . ودأب الإنسان جمع المال وصدق
الرسول عليه الصلاة والسلام إذ يقول : « منبهمان لا يشبعان طالب علم
وطالب مال » ، وقد يتحول هذا المال تقمة بل حتماً لصاحبه وتأتي المطامع
على أعقابها ، والضمير في أعقابهم راجع للمطامع وقد عاد على متأخر لنظا
لارتبة ، والمعنى وتأخذ أرزاق الجند في وجهها فلا تنثني .

وهذا حكم الأيام تجرية كما شامت ، فتعزم المكسود من ثمرة كده ،
وترزق الوداع الذي لا يكده ، فهو أن العطاء على قدر القوة والبأس لما بات الأسد
في عريته جانماً لا يملك شيئاً ، والشرط الثاني سيق مساق الدليل على الأول .
ولو علم الإنسان المقدور لحرص من قدر له الشر فلم ينم واسترسل في نومه
من قدر له الخير فلم يب من نومه . وأجسامنا هياكل مصورة أودعت فيها
النفوس وصاحب الأمر هو المصور المودع ، (ما الأجسام إلا هياكل) تصر .
وأي الجند القدامى الذين علوا ذرى الرفعة ، لقد خلت منهم الأرض
ومضوا ، وأقام الزمن بعدهم ملوكاً ثم فنوا . وهذه طلائع آخرين وسيبدون كباب

من قبلهم وأرى كل حتى في الوجود نذهب به الردى ، ومن رحل لا يعود
وأنا أصبح وأسأل عنهم فهل سمع الدهر صيحاتي (يد الردى) استعارة .
ثم حرص على النهوض للكفاح ، وانتهاز الفرص ، لأن في الزمن
سبلا كثيرة ومنافع متعددة ،

وكيف نصبرون على الظلم وأقم عديد الحصى ، سأرجع إلى الله لأشكو
هذا الاستخذاء والاستسلام ، وإنى لأرى رؤساً قد نهضت للحصاد ، هذا
من قول الحجاج : إنى لأرى رؤساً قد أينعت وحان قطافها ، وقد استعمل
أرؤس (جمع القلة) وهذا لا يناسب ما قاله في البيت السابق (عديد الحصى)
فإن السيوف القواطع ولا توجد السيوف القواطع ، فكونوا حصيداً
لا حركة فيكم ، وإلا فهبوا ، وافزعوا للمركة حتى يدفع الذل دافع منكم .
إنى أهبت وناديت لكل صوتاً يلبي ، ولكن عاد الصوت ولبي الصدى
وحده ، ولم يطعن غيره ، وإن هذه القلوب كالزجاج كسرها لا يشعب ، وقد
انحنت عليها الأضلع فلا تتركوها .

وخذوا سلاحكم من هذا المنطق فهو يكسر الأرماح ، وإن مشورتى
إليكم هي المنى التى لو نزلت على جبل الخشع .

التعليق والنقد :

في هذه القصيدة تلمس عاطفة دينية قوية دفعت البارودى إلى أن يزرع
نفسه عن هواها ويدعو إلى الزهد في الدنيا والتذكير بمن مضى ليتخذ الإنسان
منهم عبرة كما تلمس عاطفة وطنية تنادى بالحرب لدفع الضيم عن هذا الوطن .
وساق البارودى ، ألواناً من المعاني ، وإن لم تكن جديدة لأنه قد فيها
غيره ، ولكنها قوية ، وفيها الكثير من الدقة التى بها عد البارودى ، باعث
النهضة لدقة معانيه ، وعنايته بالمعنى أولاً . ولا نصرافه عن تكلف المحسنات
التي حفل بها شعر من قبله .

وأسلوب ، البارودي ، قوى وصين حتى لتكاد ترى في كثير من شعره
قوة لشعر العباسي ، أما الاخيلية فليست بعيدة ولا غريبة تلمسها في قوله :
(الليالى عقارب ، والدهر ذئب . هل أنت يادهر الاءاجيب سامع ، أرى
أروساً قد أبنت . لباقي الصدى) وترى الاستعارات كثيرة في أسلوبه .

٢ — اللغة العربية تنعى حظها

لشاعر النيل . حافظ إبراهيم ،

رجعت لنفسي فانهت حصاني^(١) وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم^(٢) في الشباب وليتني عقت فلم أجزع لقول عدائي
ولدت ولما لم أجد لعرائني رجالا وأكفاء وأدت بناتي
وسعت^(٣) كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صفائي
فيا ويحكم أيلي وتبلى نحاسي ومنكم وإن عز الدواء أسائي^(٤)
فلا تكلوني لزمان فإني أعاف عليهم أن تحين وفائي
أرى لرجال الغرب عزاً ومثمة وكم عزاً أقوام ربح لغات
أنوا أهلهم بالمعجزات تفننا فيآليتكم تأنون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب^(٥) ينادى بوأدى في ربيع حياتي

الغزة :

(١) الحصاة : العقل .

(٢) العقم : مرض في الرحم لا يقبل الولد .

(٣) وسعت كتاب الله : اتسعت له .

(٤) الأسلة : الأطباء .

(٥) النعيب : صياح الغرب ويقصد نذير الشر .

ولو تزجرون^(١) الطير يوما علمت
سقى الله في بطن الجزيرة أعظما
حفظان ودادى في البلى وحفظته
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق
أرى كل يوم بالجراند مزاقا^(٢)
وأسمع للكتاب في مصر ضجة
أهجرنى قومي عفا الله عنهم
سرت لوتة^(٣) الأفرنج فيها كما سرى
بجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
إلى معشر الكتاب واجمع حافل
فأما حياة تبعث الميت فى البلى
وإما ممات لا قيامة بعده

بما تحته من عشرة وشتات
يعز عليها أن تلين قناتى
لحن بقلب دائم الحشرات
حياء بتلك الأعظم التخرات^(٤)
من القبر تدننى بغير أناة^(٥)
فاعلم أن الصائحين نغاتي
إلى لغة لم تتصل برواة
لعاب الأفاعى فى ميل فرات
مشكلة الألوان مختلفات
بسطة رجائي بعد بسط شكاتي
وتنبت فى تلك الرموس^(٦) رفاقي^(٧)
مات لعمرى لم يقس بمات

مقدمة القصيدة :

هذه عبرة شاعر يبكى لغته حين رأى رياح الشر تعصف بها ، وعبر
عن فجيعته فيها بل أرسلها تبيكى نفسها ، وتنعى للنامس حياتها ، وأحر الرثاء
ما يرنى به الإنسان نفسه وهو يعالج سكرات الموت ، لقد تخيلها حافظ
تلفظ أتمها الأخيرة ، وتنعى نفسها وتندب للناس حياتها .

(١) زجر الطير . طيره . ونهره .

(٢) التخرات : الباليات .

(٣) المزلق : المسقط . (٤) الأناة : الحلم .

(٥) اللوتة : بضم اللام .

(٦) الرموس : القبرور .

(٧) الرفات : أشلاء الموتى .

الشرح :

لقد عدت لنفسى أناملها فاتهمت عقلى ، وأسأت ظنى فى قدرتى وكدت لا أصدق ماريت به من القصور ، وناديت من ينطقون بي ليعينوني فما سمعت تلبية ، ومن ثم ادخرت حباتى عند الله واحتسبتها ، رمونى فى شبابى بأنى لست ولوداً وليتقى عقيم حقاً ، إذنى لم تفزع عني أقوال العداة ، ولكن كم ولدت الألفاظ الحسنان ، والعبارات الجميلة ، ولم أجد من يهيم بها أو يصون قدرها فأنشأها حية وهى فى مستقبل حياتها ، وفى قوله : عرائسى وبناتى استعارة .

وقد اتسمت لكتاب الله فى ألفاظه وغاياته فكل ما أتى به القرآن من ألفاظ فهو معنى لأنه بلسان عربى مبين ، وكل غاية يهدف إليها كتاب الله من الهداية والإرشاد . وكل ما جاء به اتسمت له فلم أضق عن آياته أو عظاته التى فيه ، واشطر الثانى فى معنى الأول ساقه للتأكيد .

وإذا كنت اتسمت لألفاظ القرآن وغاياته فكيف أعجز وأضيق اليوم عن ذكر ما تتطلبه المخترعات من أسماء وأنا البحر الزاخر الذى تكمن الدرارى فى أعماقه فهل سألوا الباحثين المتقنين عن الأصداف التى يكمن فيها الدر قبل انهامى بالعجز . فى قوله أنا البحر تشبيه واستعارة الغواص للعالم ، وفى البيت كاه تصوير للغة العرب بالبحر المليء بالدر .

فيا ويحكم أيها الأبناء إننى أفتى ويقضى فى وجودكم حسنى ، وفيكم الأطباء الذين يستطيعون علاجى وإن غلا دوائى وعز ، وقد استعار (الأساة) للعلاء فلا تتركوا للزمن يلى قواى بل يعلن عجزى عن مسيرته فإنى أخاف عليكم أن يحين موتى فى عبدكم فيموت أعظم ما اعتز به العرب من ترات ، وللغريين عز وامتناع على الزمن ، ومرجعه إلى اعتزازهم بأجدادهم ، وكم من أم عزت فى دنياها بمن لغاتها ، وإنهم تفتتوا فاخترعوا ما أعجز العقول أنليس من المهازل أن يعجزكم وضع أسماء لما اخترعوه ؟

أيها الأبناء : هل أطربتكم أصوات الشؤم الناعبة من الغرب تنادى بدنى وأنا فى ربيع القوة والشباب . كان العرب يزجرون الطير فيرمونه بالحصى فيطير فان تيامن تفاءلوا خيراً ، وإن تياسر تشاءموا فلو استنبأتم الطير ففترتموه كما كان يفعل العرب لعلمتم مايسوقه عليكم دق من السقوط والاضمحلال ، ثم دعت اللغة بالسقيا لتلك الأعظم التى نامت نومتها الأبدية فى ثرى الجزيرة العربية تلك الأعظم التى يعز عليها ضعفى (كنى بلين القناة عن الضعف) لقد تركت هذه العظام وراءها فى الدنيا مايقوينى فكأنها بذلك حفظت ودى حين خلقت مؤلفات النحو والصرف واللغة والشعر والنثر ، وحفظت ذكر أصحابها بإبقة انى على تراثهم وصونى له وأنا متحسرة على فقدهم .

ووقفت أناخر بأثارهم فى العلم والأدب الغرب ، والشرق مطرق حياء منى لأنه لم يمن بحياتى ، وفى كل يوم أرى فى الصحف سقطات فى اللغة والتعبير تدفعنى إلى الموت فى غير هدوء (وكلة جريدة) التى استعملها الشاعر مبتذلة وإنى لاسمع صيحات الكتاب فى مصر وضجيجهم فأعلم أنهم ينعوننى ليهجرنى قوسى إلى لغة أخرى جديدة لم يأخذها الخلف عن السلف فى (عنى الله عنهم) اعتراض الدعاء - وتشير اللغة بذلك إلى إكثار كتاب العصر من الألفاظ الدخيلة فى كتابتهم ، وإكثار المتخاطبين من الألفاظ الدخيلة ، وقد سرى الدخيل سريان سم الأفعى فى الماء العذب (والثوثة عدم الإبانة) وجاءت لغتهم التى كتبوا بها أو تحدثوا كنوب مرقع حوى الأشكال والآلات . وإنى أبسط رجائى بعد شكواى للكتاب فى جمعهم الحافل أملا فى أن يبعثوا فى الحياة كما تبعث فى الميت أو أموت موتاً لا إقامة بعده ولا نشور

التعليق والنقد :

أسلوب القصيدة محكم قوى العبارة ، والألفاظ مناسبة لموضوع نعى اللغة لنفسها احتسبت حياتى وأدت بناتى . وفاتى ناعب ، حشرات ، ميت ، بلى

ديوس رفات ، وفيها معان دقيقة تكشف عن شاعرية تنقب عن دقة المعاني .
وفيها ألوان من الخيال : أنا البحر ، لو تزجرون الطير ، الشرق مطرق ،
كما سرى لحاب الأفاعى وهو تشبيه جميل .

وفى قواه جاءت كثوب ضم سبعين رقعة تشبيه بصوق اللغة التى كانت
تستعمل حينئذ وما أكثر الكلمات الدخيلة فيها .

٣ — الأزهري لشوقي

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا	واشر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر إن فصلته	فى مدحه خرز السماء النسيرا
واذكره بعد المسجدين ^(١) معظما	لمسجد الله الثلاثة مكبرا
واخشع ملياً واقض حق أئمة	طلعوا به زهراً وماجوا أجرا
كانوا أجل من الملوك جلالة	وأعز سلطاناً وأنقم مظهرا
ومن المخاوف كان فيه جنبهم	حرم الأمان وكان ظلمهم النرا ^(٢)
من كل بحر فى الشريعة زاهر	ويربك الخلق العظيم غضنفر
لا تحذ حذر عصاة مفتونة	يحدون كل قديم شئ منكرا
ولو استطاعوا فى الجامع أنكروا	من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض فى القديم وهدمه	وإذا تقدم للبتاية قصرا
وأنى الحضارة بالصناعة رنة	والعلم نرداً والبيان مدرأ
يا معهدا أفنى القرون جداره	وطوى الليالى وكنه الأعصرا
ومشى على بيس المشارق نوره	وأضاء أبيض لجها والأخرا
وأنى الزمان عليه يحمى سفة	ويذود عن نساك ويمنع مشعرا ^(٣)

اللفظة : (١) المسجدان . المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى .

(٢) ذرى الشئ : أعلاه والمقصود الملجأ .

(٣) النساك : العبادة والشعر : موضع مناسك الحج .

في الفاطميين انتهى ينبوعه عذب الأصول كجدهم متفجراً (١)
 عين من الفرقان (٢) فاض نعيمها وحيامن النصحي جرى وتحدراً (٣)
 ما ضرت أن ليس أفقك مطلعي وعلى كواكب تعلت السرى
 لا والذي وكل البيان إليك لم أك دون غايات البيان مقصراً
 لما جرى الإصلاح قت مؤنثاً باسم الحنيفة بالمزيد مبشراً (٤)
 نبأ سرى فكسى المنارة حبرة وزهى المصلى واستخف المنبراً (٥)
 وسما بأروقة الهدى فأحلبها فرع الثريا وهي في أصل الثرى
 ومشي إلى الحلقات فانفجرت له جلقا كهالات السماء منورا
 حتى ظننا الشافعي ومالكاً وأبا حنيفة وابن حنبل حضراً
 إن الذي جعل المتيق مثابة جعل الكتاني المبارك كثر (٦)
 العلم فيه مناهلاً ومجانياً يأتي لها النزاع ينفون القرى (٧)
 يا فتية المعمور (٨) سار حديثكم ندا بأفواه الركاب وعذبرا
 المعهد القدسي كان نديه قطباً لدائرة البلاد ومحوراً
 ولدت قضيتها على محرابه وحث به طفلاً وشبت معصراً (٩)

(١) جد الفاطميين : علي بن أبي طالب وكان بحراً في العلوم .

(٢) الفرقان : القرآن .

(٣) الحيا : المطر . والنصحي : اللغة العربية .

(٤) الحنيفة : الشريعة .

(٥) المنارة : المثانة والحبرة : السرور .

(٦) العتيق القديم ، ويقصد المسجد الحرام والمثابة بمجمع الزمر .

(٧) النزاع : القصاد ، والقرى الضيافة .

(٨) المعمور : الأزهر .

(٩) المعمر : الفتاة البالغة .

وتقدمت تزجي الصفوف كأنها

(جاندر ك^(١)) في يدها اللوآ مظفرأ

هروا القرى من كهفها وريقها أتم لعمر الله أعصاب القرى
دارح لشرقى فى التراجم .

مقدمة :

من إصلاح الأزهر شاعرية شرقى ، فانطلقت تحدث عن الأزهر ،
ونذير على الدنيا أبحاده ، وتذكرها بتاريخه ، وتكشف عن مكاته فى الأجيال
والهـمـور ، وكان لقصيدته هزة فى العالم العربى ، وهزات فى العالم الإسلامى
من المشاعر مددا فى الأندية والمجتمعات التى تعترف بأبأدى الأزهر التى
أسداها لتاريخ الإسلام ولغة العرب .

الشرح :

خاطب الشاعر نفسه حين أراد تحية الأزهر (على سبيل التجريد) ليقوم
فى فم الدنيا مرسلأ تحية فينبعث صوته من فمه مجلجلا يملأ الخافقين وينثر
تحية جواهر على سمع الزمان لا ألفاظاً وقوله فى فم الدنيا (وسمع الزمان)
استعارتان .

والفاصلة الخرزة بين الخرزتين تفصل بينهما ليم تنسيق العقد .

يقول : وإن شئت تنسيق مدحك فى الأزهر فاجعل مكان الدر الذى
تفصل به العقد المنظوم فى المدح خرز السماء كناية عن نجومها اللامعة فهى
التي تفصل بها عقود المدائح .

واذكر الأزهر تنظيمأه بعد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ثالث
الثلاثة وكلها تساهل إكبار المسلمين فالمسجد الأقصى قبلتهم الأولى والمسجد

(١) جاندر ك : فتاة قرنية أنقذت فرنسا يطولأها فى إحدى المارك .

الحرام قبلتهم الثانية ، والأزهر القبة الثالثة التى تتجه إليها عقول المسلمين وقلوبهم واخشع قليلاً لحق أئمة الأزهر عليك أن تخشع ، وتقضى حق أولئك الذين ظلموا فى آفاق الأزهر نجوما زاهرة تهدى وتوجه ، وماجوا بين جوانبه بحوراً نفيض وتروى بل تشقى .

وهكذا يكشف الشاعر عن مكانة العلماء فى العصور الغابرة (كانوا بحوراً) تشبيه ثم يكشف عن مكانهم بين الناس (كانوا أجلاً من الملوك) للملوك جلالة تقوم على الرهبة من سلطانهم ، والخوف من صولجانهم وللعلماء جلالة تقوم على الحب والتقدير لجلالة العلماء أجلاً من جلالة الملوك ، وفى تاريخ الممالك ومن بعدهم ما يحقق علو سيادة العلماء وسلطانهم على سيادة الملوك وبأسهم ، وحين نشد المخاوف وتلم بمصر الملمات كان جنابهم وأقنية دورهم الحى الآمن والحرم الذى لا يمس كما كانت ظلالهم الملجأ الذى يحتوى به ، وعهد الممالك وولادة العثمانيين ملىء بالصورة التى تشير إلى هذا الحى ، وكما كان بينهم من بحر زاخر من بحور الشريعة فيه الخير بل الحياة ، وإذا غضب الله فتكشف أخلاقه العظيمة أمام أصحاب السلطان عن أسد لا يفرع من سلطان ، هاتان صورتان جميلتان (أئمة بحور فى الشريعة وهم آساد) . ثم انتقل إلى الحديث عن أعداء الأزهر ، وكما له فى كل جيل من أعداء ، وكان أعداؤه حين إنشاء هذه القهصيدة أولئك الذين يكرهون القديم ويهتمونه بالجمود يريدون النيل من كل قديم ، وقد جاءوا الحضارة بالصناعة البالية والعلم القليل والبيان التافه الملتوى ، وإذا دعوا لبناء جديد تقاصرت همهم بل قصرت عزائمهم .

ثم هتف الشاعر بالمعهد العتيق الذى أفنى جداره العصور ، وطوى ركنه اللبالي والقرون ، ومشى على مشارق الأرض اليابسة نوره يهدى كما أضاء بحار العالم أيضاً وأخمرها ، وأتى عليه زمن كان حى البينة الحامى لها من تيارات القوضى ومن ظلمات البدع ، وذاد عن المناسك ، ومنع المشعر الجرام من كل عدوان . وقد اتقى ينبوع الأزهر الفياض إلى القاطمين ، ويشير إلى

منشأه ، وكان عذب الأصول حين بدأ الفاطميون فيه دراسة الفقه والشريعة فجاء كجدم على الذي عرف بمله .

وكان الأزهر عيناً من القرآن فاض سلطانها ، كما كان غيثاً من اللغة الفصيحة جرى فروى ونفع (هو عين من الفرقان - هو حياً) تشبيهاً .

ثم لوح الشاعر بالنخر بنفسه ولم يضربني أني لم أطلع من آفاقك ، وأن لم أنعم بالبحث والدرس على علمائك لا والله الذي وكل إليك أمر البيان ، إن لم أقصر في بلوغ الغاية ، وفي هذا اعتراف بمكانة الأزهر اللغوية ، فخر بمكانته في اللغة .

وانتقل إلى سبب إنشاء القصيدة وأنه قالها للهنئة وليبشر بالزيد من

الإصلاح ، وكان لبناء الإصلاح هزة في النفوس وقد اكتست بمشاهدة الأزهر

فرحة وازدهى المصلى واستخف الإصلاح المنبر ، فاهتز بالفرحة وعلا إلى

الأروقة ، فسما بها إلى الثريا كأن الأروقة شمتحت حتى بلغت السماء وهي على

الأرض ومشي الإصلاح إلى حلقات الدروس فانسدت له دوائر كمالات

السماء ، وفي هذا تشبيه .

وكان المجتهدون من العلماء يدرسون حتى حسبنا أن أئمة الشريعة هم الذين

يتولون الدرس ، وكأنا في فقه المالكية مالكا وفي الشافعية الشافعي وفي

الحنفية أبا حنيفة وفي الحنابلة ابن حنبل ، وكأنا أعاد هؤلاء ، عهد أولئك ،

وهذا يكشف عن تبحر علماء الجيل .

وإن الله الذي جعل البيت الحرام مثابة للناس يفزعون إليه ليظهر أرواحهم

من أدران دنياهم جعل الأزهر المبارك كالكوثر يفيض عذوبة وحياة ،

وجعل العلم فيه مناهل ومجاني للواردين ينهلون ويحشون . وينزعون إليه من

كل فج عميق يطلبون فيه غذاء عقولهم .

ثم نادى شباب الأزهر ، يا فتية الأزهر لقد انقصر حديثكم ، فاعرجوا

عاطرة تقروح بأفواه المسافرين ، فذكره عاطر في أفواه الغادين والرائحين .

وهذا المعهد القدسي كان ندية الذي يحشون فيه قطباً ومحوراً تدور حوله

البلاد ، وولدت قضية مصر على محرابه ، ودرجت به في أول نشأتها ، وشبت

في كنفه فتية . ثم تقدمت تسرى الصفوف وتنظمها كأنها تلك ثقاة الفرنسية

التي أنقذت سمعة فرنسا حين انطلقت كالصاعقة تشق صفوف الأعداء فانطلق وراءها الفرنسيون، واتصرت فرنسا على يدها (في ولدت استمارة) وحيث طفلاً وثبت معصراً استعارتان وفي كأنها ... الخ تشبه ثم جاء الإرشاد في صورة الأمر هزوا القرى ، والكهوف والأكوخ ، والجبال فأنتم لعمر الله عصب القرى الذي يمدّها بالإحساس والشغور ، وفي أنتم أعصاب القرى تشبه جميل .
التعليق والنقد :

كان « شوقي » معجزة الشعر وحبّة الله لمصر في قوة البيان والفصاحة وروعة الأسلوب وجمالها ، يتفجر بياناً حيث شاء في ألفاظ أرق من النسيم الندى ، وأنضر من الزهر : ومعانيه لا تلس فيها على طول نفسه ترجيحاً وهي غاية في الدقة والعمق .

وصوره وأخيلته شاسعة ، تراها في كثير من أبيات القصيدة مثل .
(قم في الدنيا) ، واشتر على سمع الزمان ، واجعل مكان النذر ، وخرز السماء ، وأئمة طلّعوا به زهراً ، وما جوا أبحراً ، وجنابهم حرم الأمان ، ظلمهم النذرا وعين من الفرقان ، حيامن الفصحى ، ولدت قضيتها ، وترجي الصفوف ، وأنتم أعصاب القرى) كل هذه أخيلة في غاية من الروعة والسمو ، وكيف لا وهي أخيلة معجزة العصر
٤ — الأرملة المرضعة

المعروف الرصافي (*)

لقيتها لبنى ما كنت ألقاها تمشى وقد أثقل الإملاق (١) بمشاهها

(هـ) معروف الرصافي شاعر عراقي ولد ببغداد سنة ١٨٧٥ وحفظ القرآن ودخل المدرسة الحربية العسكرية ثم فارقها إلى المدرسة الدينية فدرس العلوم الدينية والعربية وكان لصلته بالألوسي صاحب المدرسة أثر في توجيهه الوجهة الأدبية لأن الألوسي كان أديباً عالماً وسافر معروف إلى الأستانة ثم عاد إلى العراق وشغل منصب رئيس لجنة التأليف والترجمة ، واشتغل بالصحافة ثم بالتدريس وانتخب نائب المجلس النيابي ثم ترك الوظائف ومات سنة ١٩٤٤ وبرز في شعره النواحي الاجتماعية .

(١) الإملاق : الشعر .

بكت من الفقر فاحترت مدامها
 مات الذي كان يحميا ويسعدا
 كر الجديدين^(١) قد أبلى عمامها
 حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفا
 ما أنس لا أنس أنى كنت أسمها
 تقول يارب لا تترك بلا ابن
 يارب ما حيلنى فيها وقد ذبلت
 ويح ابنتى إن ريب الدهر روعها
 كانت مصيبتها بالفقر واحدة
 وقلت يا أخت مهلا إبنى رجل
 هل تسمح الأخت لى أن أشاخرها
 فأرسلت نظرة وعشاء راجفة
 وأجهشت^(٢) ثم قالت وهى باكية
 نوعم فى الناس حس مثل حسك لى
 أو كان فى الناس إنصاف ومرحمة
 واصفر كالورس^(٣) من جوع يحياها
 فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
 فانشق أسفها وانشق أعلاها
 كالضن فى الريح واضطكت ثناياها
 تشكو إلى ربها أوصاب^(٤) دنياها
 هذى الرمنية وارحمى وإياها
 كزهرة الروض فقد الغيث أطماها
 بالفقر وثليت آها منها آها
 وموت والدها باليتم ثناها
 أشارك الناس غرا فى بلاياها
 ما فى يدى الآن أسترضى به الله
 ترمى أنسها وقلبي من رماياها
 وأما مثلك من ذى رقة وأما
 ماتاه فى ففوات الفقر من ناها
 لم تشك أرملة ضنكا^(٥) بدنياها

الشرح :

لنى الشاعر الأرملة فمنى عدم لقائها ، لأنها أضافت إلى الصور الحزينة
 التى تملى بها خواطره صورة أخرى مليئة بالآلام ، وأما تدب فى خطي أنقلها

(١) الورس : نبات كالسمسم يستعمل فى الصباغة .

(٢) الجديدان : الليل والنهار .

(٣) الأوصاب : جمع وصب . المرض .

(٤) الإجهاش : رفع الصوت بالكلام .

(٥) الضنك . الشدة .

الفقر - وما أنقله - ورأها تبكي من شدة وطأته دموعاً تفرحت معها ما أقيا
فاستحالت دموعها حمره ، وكى الجوع وجها صفرة كالورس - مات
رجلها الذي كان يحمىها من سطوة الليالى ، ويضئ على حياتها السعادة فالدهر
أشقاها بعده فن لها ؟

مضى الليل والنهار أبلى عباة فانشقت من أسفلها وأعلاها فظهرها يتم
عن الإملاق ، وجسمها يرتش من شدة البرد كما يرتجف الغصن بين
الرياح ، وتضاربت ثناياها لأنها لم تجد ما يدرك عنها غوائل البرد ، وهذه
صورة تشبيهية :

وإذا قدر لى أن أنسى أشياء فليست بناس أبدا رنة شكواها الصاعدة
إلى ربها من أمراض دنياها التى اتقاها : إنها لم تشك من أجل نفسها ، ولكن
من أجل نفس أخرى علمت على الحياة فاصطدمت بقسوتها ، إنها ابتها
الرضيعة لم تجد لبناً تفتت به فأمرها تطلب الرحمة لها ولايتها ، وبهذا انتقل
الشاعر من صورة الأم إلى صورة الطفلة الجائعة اليئسة - تستصرخ الأم
بربها ما حيلتى فيها ؟ وأنا أراها تنبل بين شئى حين فقدت غذاءها ، ففى
كالزهرة أعظمها فقد انغث (وهذه صورة تشبه) الطفلة التى فقدت اللبن
كالزهرة التى فقدت النخيل .

وقد اجتمعت عليها مصيبتان . الفقر واليتم ، ولما فرغ الشاعر من صورة
الطفلة انتقل إلى صورة شاعر رقيق الحس ينادى : يا أختى وفى هذا النداء
كل معنى للرحمة . هؤلاء إثنى رجل دأبى شاركه الناس فى مصائبها فبل
تسمحن لى أن أقاسمك ما فى يدي ، فنظرت نظرتها المرتشعة التى رمت
بسماها فأصاب ما أصابت ، وعلا بكاءها ثم قالت ، وقد امتزجت كلماتها
بدموعها (واهأ لملك من رجل رقيق - إنها تتوجع من مجتمعا القاسى . وقد
رأت فيه رجلاً رقيقاً . وقالت : لو كان فى الناس مثل هذا الحس ما ضل بين

مناجات الفقير ضال ، ولو كان في دنيا الناس عدل ورحمة لما شكت أرملة
مثل شدة تدمها في دنياها .

التعليق والنقد :

قصيدة مليئة بالعواطف والمشاعر ، تنقل بها الشاعر فيها بين الإملاق
والدموع والكفاء وغرائل البرد والعري والطفلة الجائعة واليتم ، كل ذلك
في أسلوب رقيق يستدر الرحمة برقته وحسن سبك ، وهي مليئة بالمعاني
الدقيقة أوحى الآلام والدموع . وفيها أخيلة رائنة أثقل الإملاق بمشاهها ،
كزهرة الروض ، نظرة رعشاء .. الخ

والرصافي شاعر اجتماعي مرهف الحس يتجاوب مع الفقراء في أناتهم
فعواطفه مرآة لروحه ، وشعره مرآة لمجتمعهم وعنوان القصيدة ، الأرملة
المرضعة ، ، يشير إلى مآلهم من آلام ، ومن أقدر على تصوير الآلام سوى
الشاعر الرقيق .

٥ - رعاية العميان

الشاعر المرحوم على الجارم

ألقيت في حفل أقامته ، جمعيته رعاية العميان ، بالأوبرا

من يجزى من حالكات^(١) الليالي نوب الدهر مالكن ومالى ؟
 قد طواني الظلام حتى كانى فى دياجى^(٢) الوجود طيف خيال
 كل ليل له زوال وليلى دق أطنابه^(٣) لتغير زوال
 لا أرى حيناً أرى غير حظى حالك اللون عابس الآمال
 هو جب أعيش فيها حزناً كاسف^(٤) البال دأثم الببال^(٥)
 مارات بسمه الشمس زواياه ولا داعيت شعاع الخلال
 فإذا نمت فالظلام أمانى أو تيقظت فالسواد حىالى
 وأحسن الهواء فهو دلى عن يمينى أسير أو عن شمالى
 عبثاً أرسل الأنين من الجب إلى ساكنى القصور العوالى
 من لهاو^(٦) فى لجة هى دنياه وأيام يؤسه المتوالى
 ظلم بعضاً يزاحم بعضاً كليل كررن إثر لىال
 والرياح الرياح تعصف بالمسك بين عصف الأيام بالآجال
 يسمع السفن حوله ماخرات من يالى بمثله من يالى ؟
 شغل القوم عند بالقصف والهو وهاموا بحب بنت الدوالى^(٧)

اللقنة :

- | | |
|---------------------------|------------------------------|
| (١) الحالكه : المظلة . | (٢) الدياجى : الظلمات . |
| (٣) الاطناب : التبال . | (٤) كاسف البال : سيم الحال . |
| (٥) الببال : شدة الحم . | (٦) الهاوى : الساقط . |
| (٧) بنت الدوالى : الخمر . | |

ما لهم والصرير في غمرة الحج يصد الأهوال بالأهوال
 ما رأى الرضى في مآزره الخضر يباهي بحسنه ويفتالي
 ما رأى قضة الضحى في سناها أو تملى بعسجد الآصال (١)
 ما رأى النيل في الخاتل يحتمل بأذياله العراض الطوال
 فدعوه يشهد جلالا من الإحسان إن فاته شهود الجمال
 ودعوه يصير ذبالا من الرحمة إن عقه ضياء الذبال (٢)
 أيها الأغنياء أين نداءكم بلغ السيل عاليات القلال (٣)
 ثم عيال الرحمن ماذا رأيتم أو صنعتم لهؤلاء العيال ؟
 رب أعمى له بصيرة كشف نفذت من غياهب الأسدال (٤)
 يلج الخطرة الخفية للنفس لها في الصدور دب النفال
 كان شيخ المرة الكوكب الساكن في ظلة القرون الخوالي
 أنقذوا العاجز الفقير وصونوا وجهه عن مذلة وابتدال (٥)
 علموه فالهم مصباح دنياه ولا تكتفوا بصنع السلال (٦)
 إن جفاه الزمان والآل والصحف فكونوا لمثله خير آل
 بالأيادي الحسان محي دجى اليأس من وتسمو الشعوب نحو الكمال
 يذهب الفقر والثراء ويبقى ما بنى الخيرون من أعمال

(١) المسجد ، الذهب ، والآصال جميع أصيل : قيل الغروب .

(٢) الذبال : القليل .

(٣) القلال : أعلى الجبال .

(٤) الغياهب : الظلمات ، والأسدال : الستائر .

(٥) الابتدال : المباداة .

(٦) السلال : جمع سلة معروفة .

الشرح : تقدم التعريف بالشاعر :

فقد الشاعر إلى روح الأسمى فلس آلامه وجراحه وأنته الباكية ،
ومشاعره الدامية فترجم عن ذلك في عبارات لا عبارات ، وكأنما استحال
في صدر القصيدة إلى أسمى ، وليس عذا استفهاماً ، بل استحال معنى اللفظ
إلى استرحام لعل هذا أسمى فتنقذه من ظلمات لانهار لها ، وجسم له خياله النوب
وكانها تسمع وترسم فتأدى نوب الأحرار ، ما تكن ومالي ، وقد لفتني الظلمات
الأبدية فكانت بيننا طيف يسرى ، وامتصت المحوم سنى كل آثار الحياة ،
وكل ليل لا يرى في نوب ظلمة إلا ليل الأسمى فتشد حباله الإقامة ، وإذا رأى
شيئاً فهو حظه الأسود الذي عبت أماله (استنارة مكينة) وحظي كالجب
في عمقه وضيقه وسواده أميش بينه حزناً شديداً ألهم لا يخرج إلى مناهم تر
زواياه بسمه الشمس (من إضافة الصفة للوصف) وفيه مكينة أو كنى
بذلك عن السواد الدائم ، ولاداعبت إلح . استنارة أو كناية عن دوام الخلقة
فلا هو في النهار يرى فخره شمس ، ولا في الليل يرى لمة الحلال ، وهنا
يؤخذ على الشاعر مداعبة زوايا الجلب لشعاع الحلال حيث لا يعرف للبال
شعاع ، والمعرف أن الشعاع من الذي يداعب ، لأنه يتحرك ، أما الزوايا
المستقرة فلا توصف بالداعبة . فإذا نام قامت حشود الظلام المأمة : وإذا
يقظ طاف الصراخ به .

هذه حقائق وليكنها باكية لا يرى ، ولكنه يحس الهواء فهو قائمه ،
ودليله يوجهه حيث يسير .

ومن البعث أن يرسل من هذا الجب العميق آياته ليهزها أصابع سكان
التصور العالية ، فجبه ، وغل في أعماق الأرض ، وقصورهم شائعة في أجواز
الفضاء فكيف تستمع أناته .

وعد الشاعر بأن يستعطف هذا الساقط في لجة من المحوم والظلمات

هى كل دنياه ، وهى أيام بؤسه ، وكأنها أمواج من الظلم تتراحم كأنها ليلة كرت إثر ليلة أو ليال تجمعت ظلماتها فى إثر ليال كذلك .

وقد اجتمعت هموم الظلمات إلى هموم الآلات العاصفة التى تحتاج أمامها كما تحتاج الأيام الآجال (هذا تشبيه رائع) .

لأنه يسمع سفن الحياة تمخر عباب الحياة وتحمل الناس ، وليس بينهم من يبالى بمن يتخط فى لجته ، وقد شغل الناس عنه بدنيا اللهو والبث ، وماهاموا بمعروف أو إحسان ، ولكن هيامهم بالخير التى تضيف إلى نشوتهم بدنيام نشوات فما لهم يشغلون أنفسهم بهذا الصريح فى أعماق لجته ، وبين همومه تدفعه أمورها . . ؟

وقد حرمت الحياة رؤية كل جميل فلم ير الروض وقد ارتدى مآزره الخضراء فتاه بها وغالى بحسته (استعارة) .

ولم ير النيل يختال بين أنحاثل يجداوله وغدراناه كالعروس تجر أذيال العجب ، وفى اختيال النيل . استعارة ، ولم تر الضحى الفضى فى لمعانه ، أو ملاء عينه من ذهب الأصيل . وفضة الضحى وعسجد الأصال تشبهان أضيف فيهما كل من المشبه به المشبه .

أيها الأغنياء إذا كان قد حرم من رؤية الجمال فلا تحرموه من رؤية جمال الإحسان لعله يروض مآقاته من جمال الألوان ، وأروه من إحسانكم قليلا يشع قليلا من الرحمة إن كان قد جحد وجوده ضوء القليل الحقيقى . فى (عفه) استعارة مكنية .

وبعد كل هذا أين أنتم أيها الأغنياء فقد بلغ السيل القنن ، وتجاوزت الجعوم الحد . ولم تعد هنالك طاقة لتحمل (بالغ السيل) من المثل العربى (بلغ السيل الزبى) . وهؤلاء عيال الرحمن ماذا فعلتم بهم ، هذا هتاف يستدر البمع والمال ، ثم انتقل الشاعر إلى الكشفت عما بين العميان من عباقرة تحترق

عقوباتهم الظلمات ، وتنفذ من الحجب ، ورب أعشى يرى الفكرة التي تمر
بالخاطر ، وتدب في الصدور بما وهبه الله من بصيرة نقاذة تكشف
ما لا تكشفه المجاهر ، وأروع مثل لذلك شيخ المعرة وتصريحه بشيخ المعرة
يزيل ماعسى أن يفهم من أن يقصد معاصراً كله حسين .

ثم أهاب بالأغنياء أن ينقذوا ذلك العاجز ويصونوه من الذل وأصاب
هم أن يعلوه العلوم الحقيقية لا الصناعات التافهة كصناعة اللال ، وأن
يكونوا له خير أهل إذا أنكره أهله وأصحابه ، وإن النعم التي تمنح ل هؤلاء
تمحو عنهم ظلام البؤس ومن شأنها أن ترفع قدر الشعوب ، وسيذهب الفقر
والغنى ويبقى ما شاده المحسنون من العمل .

التعليق :

هذا شاعر رقيق العاطفة حساس المشاعر خفاق بأحنحة خياله في آفاق
متراصة فاخترق بخياله أعماق الأرض ليرى جب الأعشى الذي يعبش فيه
محروماً من نور الشمس ولمعة الهلال ، ويكشف الظلمات المحيطة به ، ثم
يصعد بخياله إلى سكان القصور وقد عاشوا في القصف والهم ثم يمر بين
المرئيات الجميلة التي حرم منها الأعشى ثم يعود إلى البقريين من العميان :
والقصيدة غنية بالآخيلة والمعاني القوية التي تندفق في أساليب سهلة وألفاظ
رقيقة تهز برقتها القلوب .

نصوص من نثر العصر الحاضر

١ - من رسالة طويشة للسيد عبد الله النديم (١)

لا حرج ولا قوة إلا بالله اشبهه لذرأته بالآلاء (٢) واستبدل الخلق بالمرء ،
وقدم الرقيق على الحر ، وبيع النثر بالحرف (٣) والخز بالخشف (٤) وأظهر
كل لثيم كبره ، وإن في ذلك لعبرة ، فالوشاة وإن سعوا لا يعقلوا ويوحجون أن
يحمدوا بما لم يفتلوا .

فكيف تنة ون منهم القار (٥) في صفة النمر ، وقد بدت الغضاض من
أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، كيف تسمع الأحياء لمن نهى منهم وزجر
وقد جاءهم من الإنباء ما فيه من دجر ، عجب لهم وقد دخلوا دارنا فخرج منها
معرضون ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون (٦) .

(٥) السيد عبد الله النديم خطيب كاتب شاعر ولد بالإسكندرية ونشأ بها وحفظ
القرآن والتحق بالمعهد الندي ، وجامع الشيوخ لإراعيه باشا فدرس العلوم بالدينية
والعربية ، ومال إلى الأدب فاطلع على تراث الندامى وحفظ عاراق من شعرهم ونثرهم
وحكمهم وأشعارهم ، ثم بدأ يكتب في الصحف ، ثم رأى صناعة الأدب كاستد فترك
الكتابة في الصحف واشتغل بالتعريف ، بالمنصورة ، ثم بالتجارة بها ولم يبقه
ذلك عن الاطلاع ، ثم عاد إلى الإسكندرية واشتغل بالصحافة ، ثم ألف الجمعية الخيرية
المصرية وبدأ يدرب النش على الخطابة والكتابة ثم وثى به إلى الحكومة ففصل
من الجمعية ومن ثم أنشأ جريدة التنكيت ، وكتب فيها بأسلوب ظاهره هزل وباطنه
الجد ، ولما دبث الثورة العراقية اشترك فيها بأساته وقله ، ثم اتهم مع من اتهموا
ولكنه فر ، واختفى بمصر سبع سنوات ثم قبض عليه وحبس ، ثم أطلق سراحه ونفى
إلى سوريا ، وهناك التقى بالشيخ محمد عبده ثم عاد إلى مصر وأنشأ جريدة الاستاذ
واسمته نهر ، واستخدم أساليب القز في كتابته نمر إلى أن استأنف حيث كان (٦)
جمال الدين الأفغاني ومات في الإسكندرية سنة ١٩٨٦ . ويعتبر خطيب الثورة العراقية
وشاعرها وكتبتها كما يعتبر من أجرة الكتاب السياسيين في عهدهم .

- اللفظ : (١) الآلاء : آلاهي .
- (٢) الخوف : الطين .
- (٣) الخشف : الصوف الخشن .
- (٤) القار : الوقت .
- (٥) الركض : الجري .

شرح القطعة :

هذا جزء من رسالة السيد عبد الله القديم : له فيها غمزات ، فهو يحوقل لأنه اشتبه أمر من يراقب الله بمن يلهو ، ويحوقل لأنه في زمن انقلبت فيه الأوضاع فتقدم الأرقاء على الأحرار ، وبيع الدر بالطين ، والحرير بالصوف الخشن ، ولا يقصد الدر ولا الحرير وليكنه يقصد أن مقائيد الأمور في يد كل حقير لئيم متظاهر بالكبرياء : تلك سياسة إذلال الأعزاء بالأذلاء وتقديمهم عليهم ، سياسة بيع الغالى العظيم من الساسة وأصحاب الرأى بالرخيص التافه ، ثم غطرسة هؤلاء الثام ، وإن في ذلك لبرة ... اقتباس .

ثم قال : سمعاً هؤلاء الوشاة يسمعون بوشاياتهم وهم لا يعقلون شيئاً ، ويجنون أن يمدحهم من يمدح الأمر في مصر ما لم يفعلوا ، ولعله بهذا يعرض بالإنجليز بوشاياتهم ودسائسهم بين أصحاب الرأى وبين القصر .

ثم يعرض بالخاكين : وكيف تشترون منهم الفار ... فهل هؤلاء يدعون أنهم يقدمون لكم الطبيب والخير وليس فيما يقدمونه من خير ، لأن هؤلاء أظهروا البغضاء من أفواههم للصريين وما تخفى صدورهم أكبر مما أظهروا .

إلى أن يقول : عجبت لمؤلا الإنجليز وقد دخلوا دارنا ...
 ، إن قلوبهم امتلأت بالحسد ولا يعرف مدى عمق الحسد في هذه القلوب
 ولو عرفت حقيقتهم لفررت منهم

التعليق : أبرز ما في هذه الرسالة الاقتباس : فهو يختم الفقرات بالآية ..
 والزام السجع ، وهو الغالب على كتابة هذا العهد وفيه جناس (مر ، حر)
 (خرف ، خشف) ، (كبره ، عبره) (منلولا ، مسؤلوا) وفيه تعريض
 وغمز ليأس المحاكات والسجون : وعلى الرغم من هذا فقد كان في ظليمة
 المهمين .

والفاظه قوية ومعانيه كذلك ، وقد برزت الماخفة الوطنية في هذه الكلمات والأسلوب عظيم وإن غلبت عليه الصناعة .

٢ . من كتاب الشيخ محمد عبده

يصف كتاب نهج البلاغة للإمام علي

قال : أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة ، صفة بلا تعمل أصبته على تغير حال وتبديل^(١) بال ، وتزاحم أشغال ، وعطلة من أعمال ، فحسبه للتسلية وجعلته للتخيلة ، فتصفح بعض صفحاته وتأملت جملا من عباراته من مواضع مختلفات ومواضيع متفرقات ، وكان يخل لي في كل مقام أن حرويا شبت ، وغارات شنت^(٢) ، وأن للبلاغة دولة ، وللصاحبة صولة ، وأن مديرة تلك الدولة ، وبأسل تلك الصولة هو حامل لواثها الغالب ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهد ، وتحول المعاهد ، فتارة كنت أجدني في عالم يغمره من المعاني أرواح عالية في حل من العبارات زاهية ، تطرف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية ، توحى إليها رشادها ، وتقوم منادها^(٣) ، وتنقر بها عن مداحض^(٤) المزال إلى جواد^(٥) الفضل والكمال ... وطورا كانت تكشف لي الجمل عن وجوه بأسرة^(٦) وأنياب كاسرة ، وأرواح في أشباح القمور ومخالب النور ، وقد تحفزت لأوثوب ثم انقضت للاختلاب^(٧) .

(١) القعة : التبديل : الإضطراب .

(٢) شنت : صبت .

(٣) المناد : المروج .

(٤) المداحض : المساقط .

(٥) الجواد : الطرق البعيدة .

(٦) الباسرة : العابسة .

(٧) الاختلاب : الأخذ بالخطب .

نقلت القلوب عن هراها وأخذت الخواطر دون مرماها ... وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقاً جسدانيا. فصل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني نخلعه عن غاشيات^(١) الطبيعة وسمى به إلى الملكوت الأعلى ، ونمى به إلى مشهد النور الأجل .

الموضوع :

يقول هيأ لي القدر دون تفكير الاطلاع على كتاب نهج البلاغة ، وأنا مضطرب فقرأته لأنسى به ، وتأملت في عباراته ، وكان يحيل لي أنى في معارك حربية وأن للبلاغة دولة ورجلها العظيم على بن أبى طالب . وكنت أتقل من موضوع إلى آخر فأرى مشاهد ومعاهد فتارة أجول بين عالم المعاني في حلل من العبارات تطوف بها النفوس وتهدى القلوب وتقوم معوجها ، وظوراً أحس في الجمل القوة العنيفة ، وكأنما تكشف لي عن حدة الموضوع وعنفه ، وأحياناً أرى أن عقلا من النور انفصل عن موكب الألوهية واتصل بالروح الإنساني نخلعه عن طبيعته وسما به إلى عوالم أخرى .

التعليق :

هذا النص يمثل الطور الوسط من كتابة الشيخ محمد عبده ، وكان الأول تكلف المحسنات والعناية بها ، أما الثالث فقد اتجه إلى الاسترسال والعناية بالمعنى وحده .

وهذا الذى بين يدينا نموذج يكشف عن الميل إلى السجع ، ولكنه السجع القصير الفقرات المحكم الأجزاء مثل تبلبل بال ، تراحم أشغال ، للبلاغة دولة ، وللصاحبة صولة ، كما ترى الجناس فى مثل (للتسليه للتخليه) (دولة ، صولة) (معاهد ، مشاهد) (وسما ، ونما) .

وألفاظه فيها إبراز شئ من الغريب محاكاة منه لكتاب نهج البلاغة فى أسلوبه مثل : تبلبل ، مداحض ، جواد ، مناد .

(١) الغاشية من النساء . وهو النطاء .

والمعانى عظيمة يتخلل بعضها بعض العمق . أشهد أن له عقلاً نواتياً .
وفى النص بعض صور مثل يخيل لى فى كل مقام أن حروباً شت
وغارات شت ، وفى عالم يغمره من المعانى .
وهكذا نرى أسلوب الشيخ ، محمد عبده ، قويا على الرغم من المحسنات .
وفد أخطأ الشيخ فى استعمال كلمة (صدقة) فى أول الموضوع والصواب
(مصادقة) .

٢٠ من موضوع الرحمة :

للرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى ، (١)

أيها الإنسان . . .

أرحم الأرملة التى مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار
ودمرع غرار ، أرحمها قبل أن ينال اليأس منها . ويعيث الهم بقلبها ، فتؤثر
الموت على الحياة .

أرحم المرأة الشائقة ، لا تزين لها خللاها . ولا تشتت منها عرضها ،
علها تعجز أن نجد مساوماً يساومها . فتعود به سالماً إلى كسر بيتها .
أرحم الزوجة أم ولدك ، وقعيدة بيتك و امرأة نفسك لأنها ضئيفة ،
ولأن الله وكل أمرها إليك وما كان أن تكذب ففته بك .

(١) مصطفى لطفى المنفلوطى ولد بمنفلوط بمديرية أسيوط ، وحفظ بها القرآن ثم
رحل إلى الأزهر ، ودرس العلوم الدينية والعربية ، ثم عكف على دراسة دواوين
الشعراء . وكتابة الكتاب ، واتصل بالشيخ محمد عبده وتلقى عنه ثم بدأ بكتابة كتاب
صيته ، واستعان به سعد زغلول فى تنقيح الكتابة الديوانية فى وزارة المعارف ثم
فى وزارة الحفانية — ويعتبر المنفلوطى من ربي الجيل فى الكتابة الادبية ، وله
روايات كثيرة منها الفضيلة والاشاعر وما جدولين وله النظرات ومختارات فى
المحفوظات — وناج الكثير من الموضوعات الاجتماعية . . وكان يمزج فى كل
موضوع بشاعره وأحاسيسه ولهذا نجح فى كتابته وأثر فى القراء جميعاً .

أرحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتله أو أشقته فكنت أظلم أنظالمين .

أرحم الجاهل ، لا تتخذ فرصة عجزه والانتصار لنفسه ، فتجمع عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه لتكون من الخاسرين .

أرحم الحيوان ، لأنه يحس كما تحس ، ويتألم كما تتألم ، ويكي بغير دموع ويتوجع ، ولا يتكاد يبين ، أرحمه وكذب من يقول : إن الإنسان طبع على ضرائب تؤم ، أقفا أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يد إليه يداً .

أرحم الطير لا تخبسها في أقفاصها ، ودعها تهم في فضاءها حيث تشاء ، وتقع حيث يحلب لها التغريد والتشجير ، إن الله وهبها فضاءً لا نهاية له ، فلا تقتصبها حقها فتضنها في محبس لا يسع من جناحها ، أطلق سمك وبصرك وراها لتسمع تغريدها فوق الأشجار ، وفي الغابات ، وعلى شواطئ الأنهار وتري منظرها وهي حائرة في جوار السماء فيخيل إليك أنها أجمل من منظر التملك الدائر والكوكب السيار .

أيها السعداء : أحسنوا إلى البائسين ، واسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من في الأرض برحمتكم من السماء .

الشرح :

هذا جزء من موضوع الرحمة ، ينادى فيه الإنسان أن يرحم الأرملة التي مات زوجها ونفها للألم والدمع ، لقد تضعف عن احتمال الأعباء فتقتل نفسها وتتخلص من حياتها .

ويرحم الساقطة فلا يعينها على السقوط حين يقدم لها ثمناً لعرضا ، فإنها إن عجزت عن وجرد المشتري عادت بعرضا دون أن يخذش .

ويرحم الزوجة ، لأنها مذبذبة شئون بيته . ولأنها أمانة في يده .

ويرحم ابنه فيربي جسمه ، لأنه إن تركه بلا تربية أشقاه وظله .

ويرحم الجاهل فلا يتهمه عجزه فيجمع عليه الجهل والظلم .

ويرحم الحيوان لأنه يحس ويتوجع بغير حروف ويكي بغير دموع .
ويرحم الطير ، فيتركها في الفضاء ، ويطلق معها سمعه وبصره يسمع
أغاريدها ، ويتمتع بتنقلها بين الغابات والأشجار ، ورؤيتها فجئى في الأجواء
أجل من الأفلاك والكواكب ، ثم نادى السعداء ، أن يرحموا كل ذلك
ليرحمهم من في السماء .

التعليق :

هذا الأسلوب الذى عذبت عبارته ، وسهلت تراكيبه . وأحكم نسجه
يعالج الكاتب موضوع الرحمة ، والرحمة تناسب رقة الالفاظ ، وحسن
الآداء ، وقد لاهم الكاتب بين الموضوع والآداء فلم يغرب في ألفاظه : ولم
يهم في أسلوبه ، والعاطفة الحساسة تتدفق مع الأسلوب ، فتحمله الدمع
والآلم والأتين واليكام ، ولا نجد في أسلوب الكاتب صناعة أو تكلفاً ،
ولأنما هو استرسال وبعد عن القيود ، اللهم إلا ما واثق عفو الخاطر مثل صية
صغار ، دموع غزار ، وفوق الأشجار ، وعلى شواطئ الأنهار .

وقد عرف المنفلوطى ، بأخيلته الواسعة وتصويره البارع ،

٤ - من موضوع « اليمامتان »

للأستاذ د. الراجحي ،

قال : جاء في تاريخ الواقدي أن « المقوقس » ، عظيم القبط في مصر زوج ابنته « أرمانوسة » ، من « قسطنطين بن هرقل » ، وجعلها بأموالها وحشمتها لتسير إليه حتى ينشئ عليها في مدينة قيسارية ، فخرجت إلى « بلبس » ، وأقامت بها ، وجاء عمرو بن العاص إلى بلبس فحاصرها حصاراً شديداً ، وقاتل من بها وتل منهم زهاء ألف فارس ، وانهمز من بقي إلى المقوقس ، وأخذت « أرمانوسة » ، وجميع مالها ، وأخذت كل ما كان للقبط في بلبس ، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس ، فسير إليه ابنته « ميكرمة » ، في جميع مالها مع « قيس ابن أبي العاصي السهمي » ، فسر بقدمها ، ،

هذا ما أثبتته « الواقدي » ، في روايته ، ولم يكن معنياً إلا بأخبار المغازي والفتوح ، فكان يقتصر عليها في الرواية ، أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن :

كان « لأرمانوسة » ، وصيفة مولدة تسمى « مصرية » ، ذات جمال يرواني أمته مصر ، ومسخته بسحرها فزاد جمالها ، على أن يكون « مصرياً » ، ونقص الجمال اليوناني أن يكونه ، فهو أجمل منهما ، وأعز طبيعة خاصة في الحسن فهي قد تحمل شيئاً في جمال نساءها أو تشفت منه ، وقد لا توفيه جهد محاسنها ، ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبي أفرغت فيه سحرها لإفراغا ، وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه ، وجعلته آية في المقابلة بينه في طابعها المصري وبين أصله في طبيعة أرحه كائنه ما كانت تثار على سحرها أن يكون إلا الأعلى

وكانت « مصرية » ، هذه مسيحية قوية العقل والدين اتخذها « المقوقس » ، كنيسة حبة لابنته ، وهو كان والياً على مصر من قبل « هرقل » ، وكان من (٢٠ - أدب الأندلس)

عجائب صنع الله أن الفتح الإسلامى جاء فى عهده ، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطى ، فلم تكن أبوابهم تدافع إلا بمقدار ما تدفع ، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة وراءها نحو مائة ألف رومى يقاتلون المعجزة الإسلامية التى جاءت من بلاد العرب أول ما جاءت فى أربعة آلاف رجل لا يقاتلون بقوة الإنسان ، بل بقوة الروح الدينية التى جعلها الإسلام مادة متفجرة تشبه الديناميت ، قبل أن يعرف الديناميت ..

ولما نزل عمرو بجيشه على دبلبيس ، جزعت دمارية ، جزعاً شديداً ، إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياح ينفضهم الجذب على البلاد تقض الرمال على الأعين فى الريح العاصف ، وأنهم جراد إنسانى لا يفرو إلا لبطنه ، وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزاراً فى الجاهلية ، فأتدعه روح الجزائر ، ولا طبيعته ، وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذاذهم ، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش ، وتوهمت دمارية ، أوهاها وكان لها خيال مشبوب متوقد يشعرها كل عاطفة أكبر عما هى . ومن ذلك استطير قلب دمارية ، فجعلت تندب نفسها ، وصنعت فى ذلك شعراً هذه ترجمته :

جاءك أربعة آلاف جزار أينما الشاة المسكينة
ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحى
جاءك أربعة آلاف خاطف أينما الغدراء المسكينة
ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت

قولى يا إلهى لإغمد فى صدورى سكيناً يرد عنى الجزارين .
يا إلهى قو هذه الغدراء لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربى ... الخ
وذبحت تلو شعرها على دأرمانوسة ، فى صوت حزين يتوجع ، فضحكك هذه وقالت :

أنت واهبة يا مارية ، أنسيت أن أبى قد أغدى إلى نبيهم بنت (أنسنا)
فكانت عنده في ملكه بعضها السماء وبعضها القلب ، وأنها أنقذت إليه دسباً
يعلمهم أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذى سيضع في العالم تميزه بين الحق
والباطل ، وأن نبيهم أظهر من السجابة في سمائها ، وأنهم جميعاً ينبعثون من
حدود دينهم وفضائله ، لامن حدود أنفسهم وشهواتها ، وإذا سلوا التيف
بأمره بقانون ، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون ، ويكاد الضمير الإنسانى في
الرجل منهم يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته .

وقال أبى : إن هذا الدين سينفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصاة الحية
في الشجرة الجرداء ، طبيعة تعمل في طبيعة ، فليس يمضى غير بعيد حتى
تخضر الدنيا وترف ظلالتها .

فاستروحت مارية ، وأطمأنت نياط ضمئها .

قال الراوى : وانهم الرقيم عن بلبيس ، فلما أراد عمرو بن العاص
توجيه «أرمانوسة» إلى أبيها ، وانهى ذلك إلى مارية ، قالت لها : لا يحمل
بمن كان مثلك في شرفها أن تكون كالأخيدة ، والرأى أن تبدئى هذا القائد
قبل أن يبدأك ، فأرسل إلى الله فأعلمه أنك راجعة إلى أبيك ، وإساليه أن
يصحبك بعض رجاله فتكرونى الأمرة حتى فى الأمر .

قالت «أرمانوسة» ، فلا أجد لذلك خيراً منك فى لسانك ودهانك
فاذهبي إليه وخذى الراهب (شطا) وخذى معك أيضاً كوكبة من فرساننا
قالت مارية ، وهى تقص على سيدتها :

لقد أديت إليهم رسالتك فقال كيف ظننا بنا ؟ قلت : ظننا بفعل رجل كريم
بأمره إثنان كرمه ودينه فقال : أبلغها أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال :
استوصوا بالقبط خيراً فإن فيكم صبراً ودفعة وأعلمها أننا لسنا على غلظة
نغيرها بل على نفوس نغيرها قالت : فصغى لى يا مارية قالت .

كان آتياً في جماعة من فرسانه على خيولهم العرب كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر ، فلما صار بحيث أتيتنه أوماً إليه الترجان وهو (وردان) مولاه فنظرت ، فإذا هو على فرس كيت أحمر قالت أرمانوسة : ما سألتك صفة جواده قالت : رأيته قصير القامة علامة قوة وصلابة ، وافر الهامة علامة عقل وإرادة ، أدعج العينين فضحكت أرمانوسة وقالت : علامة ماذا ؟

وتخرجت وجنتادا فكان ذلك حديثاً بينها وبين عيني أرمانوسة .
ورجعت بنت المقوقس إلى أبيها في صحبة قيس فلما كانوا في الطريق وجبت الظهر ، فنزل قيس يصلي بمن معه والفتاة تنظر ، فلما صاحوا : الله أكبر .. ارتعش قلب مارية ، وسألت الراهب شطاً : ماذا يقولون قال : إن هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم كأنما يخاطبون بها الزمن أنهم الساعة في وقت ليس منه ، ولا من دنياهم كأنهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود فإذا أعلنوا انصرافهم من الوقت ، ونزاع الوقت ، وشهوات الوقت فذلك هو دخولهم في الصلاة كأنما يحجون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة .
ومحرها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها .

وانفلت قيس من الصلاة وفتحت مصر صلحاً بين عمرو والقبط ، وولى الروم مصعبين إلى الاسكندرية ، وكانت مارية في ذلك تستقرى أخبار الفاتح تطوف منها على أطلال من شخص بعيد .

وشجب لونها وزقت لها أرمانوسة ، وكانت هي أيضاً تتعلق فقي رومانياً فلما أعجبها وقع إليهما أن عمرو قد سار إلى الاسكندرية لقتال الروم ، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاه فأخبروه فقال : قد تجرمت في جوارنا أقرؤا الفسطاط حتى تطير فإخها فأقروه ، ولم يمتض غير عويل حتى قصت مارية نجحها ، وحفظت عنها أرمانوسة نشيد اليمامة :

على فسطاط الأمير يمامة جائئة تحضن بيدها
 تركها الأمير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت
 هي كأسد امرأة ترى وتلس أحلامها
 إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض
 حقائق صغيرة كهذا البيض
 أيتها اليمامة لم تعرفي الأمير وترك لك فسطاطه
 هكذا الحظ عدل مضاعف في ناحية وظلم

مضاعف في ناحية أخرى

أحمدى الله أيتها اليمامة أن ليس عندكم لغات ،
 وأديان عندكم فقط الحب والطبيعة والحياة
 على فسطاط الأمير يمامة جائئة تحضن بيدها
 يمامة سعيدة ستكون في التاريخ كهدد سليمان
 نسب الهدد إلى سليمان وستنسب اليمامة إلى عمرو
 وأما لك يا عمرو ماض لو عرفت اليمامة الأخرى

الموضوع :

بعد أن قدم الرافعي ما أثبتته الواقدي في تاريخه راح يفصل القصة فتحدث
 عن مارية وصيفة أرماتوسة ، وجاها اليوناني الذي مسحته مصر بسحرها
 ففارق الجمال المصري وحده واليوناني وحده لأن طبيعة مصر إذا نشأ فيها
 جمال أجنبي أضفت عليه سحرها حتى يغلب الجمال الآخر في طبيعته الأصلية
 فهي تغار على جهاها إلا أن يكون الأعلى . . . ومارية مسيحية عاقلة عمالقة
 اتخذها المقوقس لهداية ابنته ، والمقوقس وإلى مصر من قبل هرقل ملك الروم
 وقد هداه الله للإسلام وأصر الخير إذ كان الفتح في عهده لأنه لم يدافع
 للعرب كثيراً .

أما الروم وعددهم مائة ألف فقد عجزت قواهم أمام المعجزة التي جاءتهم على يد أربعة آلاف مقاتل لهم قواهم الديناميتية قبل أن يعرف الديناميت . وعاد الكاتب يبدأ القصة من بليس ، وفيها أرمانوسة حيث كانت في طريقها إلى عربسها ابن هرقل . وتحدث عن جزع مارية حين اشتد الحصار على بليس ، وخونها لما أذيع عن العرب من جوعهم ، وأنهم كالجراد ، وأن قائدهم كان جزارا في الجاهلية ، وقد جاء بأربعة آلاف ساحل من الشذاذ .

ومارية كانت شاعرة تخيل الأشياء أكبر مما هي فصنعت في ذلك شعراً ألقته في عبارات مختلفة ، وعبارات مرسله : جاءك أربعة آلاف جزار الخ ، وضحكت أرمانوسة ، وأعلمتها بخبر مارية زوجة الرسول ﷺ التي أهداها له المتوكل لتخبره بخبر هذا النبي ، وأنها أرسلت إلى المقوقس بأن المسلمين هم العقل الجديد وأن نبيهم أظهر من السحابة الخ .

وأشارت على أرمانوسة حين علمت بأن عمراً سيرسلها إلى أبيها بأن تبحث إليه لتطلب منه أن يرسل معها من يصحبها في سفرها حتى لا تسير كالأسيرة وأرسلتها أرمانوسة إلى عمرو ، وعادت تصفه ، وفي وصفها ما يدل على إعجابها به وأنه وقع في قلبها ، ورجعت أرمانوسة إلى مصر في صحة قيس ، ولما كان الظاهر نزل يصلي فسمعت مارية تكبيرة الصلاة ، فارتعش قلبها فأخبرها شطا أن هذه الكلمة يخاطبون بها الزمن .

وفتحت مصر وفر الروم إلى الإسكندرية وتبعهم عمرو : وأمر بتقويض فسطاطه فأرأوا إيماة باضت عليه فأخبروا عمراً ، فقال قد تحرمت في جوارنا فدعوها حتى تطير فراخها ، وشاع خبر الإيماة ، ولم تمض أيام حتى ماتت مارية ، وترك ورامها نشيداً يحمل سر حبها هو نشيد الإيماة .

التعليق والنقد :

د. الراقمي ، كاتب من أعظم كتاب البصر ، اتسمت كتابته بطابع كان فريداً فيه وسيظل هذا الطابع له لا يتألفه فيه مقلد ، وتستطيع بعد أن تقرأ كثيراً

من كتاباته وتذوقها أن تدرك تفرد هذا الطابع ، فهو الكاتب الوحيد من كتاب عصرنا الذي يميل إلى عميق المعاني بحيث لا يتوصل إليها القارئ إلا بعد كد وغوص وراءها .

ولو وقف الأمر عند عمق المعاني لسهل الإدراك زعاما ، ولكن وراء ذلك الإعداد في الخيال حتى إن القارئ ليخلق وراءه في الآفاق التي يطير فيها ثم هو قد يدرك خيال الراقى ، وكثيراً ما يعيا خيال القارئ دون أن يلحق بخياله ، وهذا ما أضفى على كتابته الكثير من الغرابة ، وأسلوبه طوع خياله ومعانيه ، فهو يحتاج إلى دقة في التفكير حتى يتوصل إلى فهمه ، وإن القارئ القام لأسلوبه يشعر بجمال هذا الأسلوب بل بسعوه البالغ دون أن يستطيع تخيل كتابته وانتهاج طريقته .

وليس في أسلوبه أثر للسجع أو الصناعة .

أما تصويره وبعد أن خيلته فتلها في القطعة في :

١ — تصويره للجمال الأجنبي الذي ينشأ في مصر .

٢ — تصويره لقوة أرواح الدينية ، وأن الإسلام في العرب قوة تشبه الديناميت .

٣ — حكاية مارية ، عن العرب بأنهم قوم جياح ينفضهم الجذب على البلاد وأنهم جراد إنسانى .

٤ — ما حكته أرمانوسة ، عن أبيها بأن المسلمين هم العقل الجديد .

٥ — حكاية المقوقس عن هذا الدين بأنه سيندفع بأخلاقه في العالم لنقاذ العصاة الحية في الشجرة الجرداء .

٦ — حكاية مارية ، عن إقبال المسلمين على خيول عراب كأنها شياطين تحمل شياطين .

هذه بعض الصور والأخيلة التي مررت في الموضوع وفيها كثير غير مذكور .

وليس في الألفاظ التي استعملها ، الرافعي ، شيء من الغريب ، وهو لا يفتع اللفظ إلا في وضعه الذي يتطلبه النسيج ، فكل لفظ له موضعه من التركيب ومعناه الذي يؤديه فيه .

هـ - من كلمات السيد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

العرب أمة واحدة

هذه حقيقة مؤكدة لا تنقصها دعوة مدع في الشرق ولا في الغرب فالغربي في مصر آخر العرقي في نجد وفي صنعاء وفي بغداد وفي دمشق وفي بيروت وفي الدار البيضاء من أقصى المغرب ، أبونا واحد وإن زعم من زعم أننا آلاباء ، ووطننا واحد وإن حاول الاستعمار بوسائله أن يجعله أوطاناً ، وهدفنا في الحياة واحد وإن جهل باحث في الشرق أو الغرب وعي أو تعامى عن الحقيقة الواضحة .

على أن وحدتنا لو لم تكن وحدة جنس ولا وطن ولا هدف لكانت وحدة آلام فإن أخوة الشعور بالآلم لتربطنا قلباً إلى قلب من شاطئ الخليج الفارسي إلى شاطئ الأطلسى ، فإيكاد عربي يشكو ألماً حتى يتداعى له سائر العرب من قريب ومن بعيد بالسهر وأخى .

وإني لأعجب كيف عشنا نحن العرب قروناً غافلين عن هذه الحقيقة الصريحة فأتحمنا للأجنبي الدخيل بينما أن يغلب ويتسلط ويتوزع بلادنا مناطق نفوذ ويجعلنا في سوق السياسة تجارة ، وفي أتون الحرب وقوداً .

أكان ذلك لأن طائفة من ساداتنا وكبرائنا في عهد مضى أغواهم القرف وخدروهم النعمة ففسدوا وضلوا وركبوا إلى الباطل كل مركب فحقت عليهم كلمة الله وحقت علينا وأظلمت أمتنا لا تصيب الذين ظللوا خاصة ؟

إننا نلك من أسباب القوة ما يحقق لنا السيادة الكاملة وقوة التوجيه للسياسة العالمية العامة وإن في أرضنا وسمائنا وبحرنا وبرنا قوى ضخمة لم نزل أهم كثيرة في الشرق والغرب تلمس الأسباب للظفر بيدها فلا تنهأ لها ،

فلماذا لا نحاول بما نملك من أسباب هذه القوى أن يكون لنا الرأى والتوجيه فى العالم ليحقق بنا الخير للإنسانية .

وإننا نملك من قوة الروح ومن الإيمان بالله ومن الشعور بمعانى الأخوة الإنسانية بين البشر ما يمكن أن يصنع بنا فى العالم تاريخاً إنسانياً جديداً مثل التاريخ الذى صنعه أسلافنا منذ ألف وثلثمائة سنة ، فلماذا لا نشرف على العالم مرة أخرى برسالة السلام والرحمة وثاموس الأخوة والمساواة ، لنمحو ما ران من ظلمات الباطل على عقول وقلوب لا تؤمن إلا بالمادة !
ولن نستكمل أسباب الإيمان حتى تؤمن ابتداءً بأننا دأمة واحدة . .

الموضوع :

تناول حديث الرئيس ، حقيقة وحدة الأمة العربية ، وأنها حقيقة لا يمكن أن تعارض ، فالعربى أخو العربى فى أى بلد من بلاد العرب .
أبوتنا واحدة على الرغم من زعم الزاعمين ، ووطننا واحد على الرغم من الحدود المصطنعة وإن لم تكن وحدتنا وحدة جنس أو وطن ، فهى وحدة الشعور بالألم ، ذلك الشعور الذى ربط بين بلاد العرب جميعها ، كالجلسد الواحد ز اقتباس من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام) .
وكيف عاش العرب وهم فى غفلة عن هذه الحقيقة حتى أتاحوا للأعداء أن يقسموا الوطن الكبير إلى مناطق ويجعلونا تجارة فى أسواقهم ووقودا لحروبهم وكان ذلك لأن محترفى السياسة خدعهم النعمة ، فحقت عليهم الكلمة وأصابتنا معهم الفتنة .

ثم بين الرئيس ، ما نملك من القوة البحرية والبرية والجوية التى تتمناها أمم كثيرة . وإلى جانب ذلك نملك قوة روحية وشعوراً بمعانى الأخوة الإنسانية ثم بين أننا بهذه القوى نستطيع أن ننضع لأنفسنا تاريخاً ، وأن فرجع فنشرف على الدنيا كما أشرف عليها أسلافنا برسالة السلام والرحمة .
ولن تستكمل قوتنا إلا إذا آمنا بالله وآمنا بهذه الوحدة .

٦ - من الميثاق :

جذور النضال المصري

قال السيد الرئيس :

منذ زمان في الماضي لم تكن هناك سدود بين بلاد المنطقة التي تعيش فيها الأمة العربية .

وكانت تيارات التاريخ التي تهب عليها واحدة كما كانت مساهمتها الإيجابية في التأثير على هذا التاريخ مشتركة .

ومصر بالذات لم تعيش في حياتها في عزلة عن المنطقة المحيطة بها . بل كانت دائماً بالوعى وباللاوعى في بعض الأحيان تؤثر فيها حولها وتتأثر به كما يتفاعل الجزء مع الكل وتلك حقيقة ثابتة تظهرها دراسة التاريخ الفرعوني صانع الحضارة المصرية والإنسانية الأولى . كما تؤكدنا بعد ذلك وقائع عصور السيطرة الرومانية والإغريقية .

وكان النتح الإسلامي ضوءاً أبرز هذه الحقيقة وأثار معالمها وصنع لها ثوباً جديداً من التفكير والوجدان الروحي .

وفي إطار التاريخ الإسلامي وعلى هدى رسالة محمد ﷺ قام الشعب المصري بأعظم الأدوار دفاعاً عن الحضارة والإنسانية .

وقبل أن ينزل ظلام الغزو العثماني على المنطقة بأسرها كان شعب مصر قد تحمل ببسالة منقطعة النظير مسؤوليات حامية لصالح المنطقة كلها .

كان قد تحمل المسؤولية المادية والعسكرية في صد أول موجات الاستعمار الأوروبي التي جاءت مستترة وراء صليب المسيح وهي أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم .

وكان قد تحمل المسؤولية المادية والعسكرية في رد غزوات التتار الذين اجتاحتوا سهول الشرق واجتازوا جباله حاملين الخراب معهم والدمار .

ثم كان قد تحمل المسؤولية الأدبية في حفظ التراث الحضارى العربى
وذخائره الحافلة وجعل من أزهره الشريف حصناً للمقاومة ضد عوامل
الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعماراً ورجعية بإسم الدين
والدين منها براء .

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هى الـ
صنعت اليقظة فى ذلك الوقت كما يقول بعض المؤرخين فإن الحملة الفرنسية
حين جاءت الى مصر وجدت الأزهر يروج بديارات جديدة تتعدى جدرانها
الى الحياة فى مصر كلها كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعمار
العثمانى المتنوع بإسم الخلافة .

ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة وبرغم أن هذه المقاومة العنيفة
والتمرد المستمر قد كلما شعب مصر غالباً فى ثروته الوطنية وفى حيويته فإن
الشعب المصرى كان صامداً ثابت الإيمان .

ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية هى القوة الدافعة وراء عهد محمد على .
وإذا كان هناك شبه إجماع على أن محمد على مؤسس الدولة الحديثة فى مصر
فإن المأساة فى هذا العهد هى أن محمد على لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت
لحكم مصر إلا بوصفها نقطة وثوب الى مطامعه .

ولقد عاشت مصر فى هذه الفترة تجربة مروعة استنزفت فيها كل
إمكانات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية ومصالحة عدد من المغامرين
الأجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء أسرة محمد على .
إن روح هذا الشعب لم تسلم وإنما استطاعت تحت المحن العنيفة فى
هذه الفترة أن تخزن طاقات تحفزت لإطلاقها فى اللحظة المناسبة .
وكانت هذه الطاقة هى العلم الذى حصل عليه آلاف من شباب مصر

الرواد من أرسلوا أيام الصخرة التي سبقت النكسة من حكم محمد علي إلى أوروبا فإن هؤلاء استطاعوا بعد عودتهم إلى الوطن أن يجلبوا معهم بذوراً صالحة ما لبثت القرية النورية الخصبة لمصر أن احتضنتها لتخرج منها بشائر نبث ثقافى جديد راح ينشر ألواناً رائعة من الأزهار على ضفاف النيل الخالد .

وليس صدفة أن هذه الزهور المتفتحة على ضفاف وادى النيل كانت بمثابة الرمضات اللامعة التي لفتت أنظار العناصر المتطلعة إلى التقدم في المنطقة كلها نحو مصر وجعلت منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر منبراً للفكر العربي كله ومسرحةً لقنونه وملقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والمودعة .

واقف أحست الاحتكارات الاستعمارية الطامعة في المنطقة بالأمل الجديد يستجمع قواد ويتحفز ، وكانت بريطانيا بالذات لا تحول أنظارها عن مصر بحكم اهتمامها بالطريق إلى الهند ، ومن ثم ألقت بثقلها كله في المعركة الثورية التي لاحت مقدماتها بين القوى الشعبية وبين أسرة محمد علي الدخيلة المغامرة ، وكانت ثورة عرابي هي قمة رد الفعل الثورى ضد النكسة .

إن وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية في مواجهة هذا الإرهاب المتحكم التي تسنده قوى الإحتلال الأجنبي والمصالح الدولية الاستعمارية . إن أصدااء المدافع التي ضربت الإسكندرية وأصداء القتال بالاسل النوى ضمن من الخلف في البل الكبير لم تكذب تخفت حتى انطلقت أصوات جديدة تعبر عن إزادة الحياة التي لا تموت لهذا الشعب الباس وعن حركة البطلة التي لم تقهرها المصائب والمصاعب .

لقد سك أحمد عرابي لكن صوت مصطفى كامل بدأ يجلجل في آفاق مصر ، ومن عجيب أن هذه الفترة التي ظن فيها الاستعمار والمعاورون معه أنها

فترة الخلود كانت من أخصب الفترات في تاريخ مصر بحثاً في أعماق النفس
وتجسباً لطاقت الانطلاق من جديد ،

لقد ارتفع صوت محمد عبده في هذه الفترة ينادى بالإصلاح الدينى
وارتفع صوت لطفى السيد ينادى بأن تكون مصر للبصريين .

وارتفع صوت قاسم أمين ينادى بتحرير المرأة .

وكانت تلك كلها مقدمة موجهة ثورية جديدة ما لبثت أن انفجرت
سنة ١٩١٩ .

وركب سعد زغلول قمة الموجة الثورية الجديدة يقود النضال الشعبى
العديد الذى وجهت إليه المضربات المتلاحقة أكثر من مائة عام متواصلة
دون أن يستسلم أو ينهزم .

عرض الموضوع

تحدث الرئيس عن مكانة مصر فى المنطقة التى تعيش فيها وتأثيرها بما فيها
وتأثير فيها حولها ، وأنها لم تكن فى عزلة عنها فى ماضيها القرونى ، ولا فى
ماضيها بعد الفتح الإسلامى .

كما تحدث عن المسؤوليات المادية والعسكرية التى تحملها الشعب من ود
غزو انتار والاستعمار المتستر وراء الصليب .

ثم تحدث عن مسئولية الشعب الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى
وأن الأزهر عاش حياته حصناً لهذا التراث وللمقاومة ضد عوامل
الضعف والتفتت .

وأنكر الرئيس ما يزعمه بعض المؤرخين من أن الحملة الفرنسية هى التى
صنعت يقظة مصر ، ثم بين أن يقظة الشعب هى القوة التى دفعت محمد على
إلى تأسيس الدولة الحديثة فى مصر ، وإن كان محمد على لم يؤمن بتلك الحركة

إلا بأنها نقطة وثوب إلى مظلمة ثم بين الرئيس سيطرة أسرة محمد على والأجانب على الثروة الوطنية كما كشف عن روح الشعب المناضلة ، وأنه لم يستسلم على الرغم من المحن التي عاشها والأحداث التي ألمت به .

ثم تكلم عن طاقات هذا الشعب التي طالما حفزته للانطلاق في اللحظات المناسبة ، وبين أن تلك الطاقات إنما هي العلم الذي جتاه أو لاولئك الرواد الذين بعثوا إلى أوروبا في عهد محمد علي فإن هؤلاء كما بينا في موضوع البعثات والترجمة جلبوا معهم من ألوان الثقافة والمعرفة ما أعاد لمصر كيائها الحضارى بعد فترة الركود التي خيمت عليها حيناً .

ولأنه لتصوير جميل تصوير العلوم والمعارف التي لقيت في مصر العقول المستعدة بالبذور الصالحة التي صادفت تربة خصيبة احتضنتها فأخرجت بشائر من الأزهار على شطآن النيل الخالد .

ولم يزل الرئيس تفتح الأزهار على ضفاف النيل لمجرد الصدفة بل إن شعب مصر العريق في حضارته فيه طاقات موروثة من العلم والحضارة تمتد عروقها وجذورها في أعماق الزمن البعيد ، ولقد كان تفتح أزهار المعرفة في هذا العصر بمثابة ومضات لفتت أنظار المتطلعين إلى التقدم في المنطقة إلى مصر ، وجعلت فيها مناراً للتفكير العربي الحادى ومصححاً للفنون ، ومثابة للثوار الذين تقور مشاعرهم وراء الحدود المصطنعة الموهومة .

وقد أحس الاستعمار بالأمل العربي الزاحف ، وكانت بريطانيا أكثر الدول الاستعمارية إحساساً بالخطر وخوفاً على طريقها إلى الهند (ضيقها في الشرق) ولهذا ألقت بريطانيا كل قواها في المعركة الثورية التي بدأت بين الشعب وأسرة محمد علي ، وكانت ثورة عرابي هي قمة ذلك الاندفاع الثوري . ثم تحدث عن الانطلاقات الثورية التي واجهت الإرهاب والاحتلال والاستغلال . وبين أن تلك الطاقات عاشت تدبر عن إرادة الحياة التي

لا نموت لهذا الشعب الباسل ، وأن تلك الإرادة لم تستلم للدافع التي ضربت الإسكندرية ولا للقتال المنيف الذي كانت مسارحه في التل الكبير . فلم يسكت صوت عرابي حتى انطلق صوت مصطفى كامل .

وكانت تلك الفترة أخصب فترات تجميع الطاقات للانطلاق ، وتابعت الموجات الثورية تخيف وترزعع أمر الاستعمار ، وكانت أعماها ثورة سنة ١٩١٩ التي قاد النضال فيها سعد زغلول .

التعليق :

بهذا التحليل الدقيق العميق لنضال هذا الشعب قدم الرئيس هذا الجزء من الباب الثالث من الميثاق وفي أسلوب سهل اللفظ مترابط الأفكار زاخر بالمعاني قدم صورة حية لتاريخ النضال المصرى ولطاقات هذا الشعب وبثوراته ، وكان لانفعال الرئيس بالموجات الثورية المنطلقة عبر التاريخ أثر في تعبيره وتصويره .

والقطعة التي قدمناها من الموضوع غنية بالجمال الفني الذى نلنسه في :

١ - تقديم صورة الوعي الذى قاده الأزهر وحرك تيارات أمواجه فتعدت جدرانها ، وانطلقت تؤثر في الحياة المصرية كلها .

٢ - تصوير العلوم التي جلبها العلماء من الخارج بالبذور الصالحة .

٣ - تصوير العقول التي نلت تلك العلوم بالتربة الخصيبة .

٤ - تصوير الفكر المصرى الجديد بالنبت الثقافى (وفى ذلك الإسناد جمال) .

٥ - تصوير العقول بالأزهار المتفتحة .

٦ - تصوير الأزهار المتفتحة بالومضات التي لفت أنظار المنطقة إلى مصر .

٧ - تصوير ثورة عراقى بأنها قمة العمل الثورى .

٨ - ثم فى إسناده الحصوبة للزمن فى قوله : (من أخصب الفترات)
لون من الجمال .

وعكذا تبدى تلك القطعة فى ثوب أدبى إلى جانب أنها تحمل موجات
من الانفعالات ، وتيارات من الحس الصادق والإيمان العميق بطاقات هذا
الشعب ، فلنعش بين عباراتها وفقراتها وانفعالاتها لتزود ما يطيب للعقول
والمشاعر وكلها طيب لمن يبغي .

مسرحة السلطان الخار

لتوفيق الحكيم

يجدر بنا - قبل أن نتناول هذه المسرحية بالتحليل والنقد - أن نتعرف أولاً على الأسس العامة لدراسة المسرحية - أي مسرحية - وأن نلم ثانياً بكتاب هذه المسرحية .

الأسس العامة لدراسة المسرحية :

- ١ - أن المسرحية إنما تنشأ لتمثل - وليست للقراءة - فحسب - وهذا يقتضى الكاتب أن يستحضر المسرح بتفصيلاته عندما ينشئ مسرحيته .
- ٢ - إن المسرحية تضم عدداً من الشخصيات ، فينبغى أن يراعى الكاتب صلة ما بينهم ولا يتعامل معهم فرادى .
- ٣ - أن المسرحية تعتمد على الحوار - لا على السرد - والحوار الجيد هو الذى ينطق عن الشخصية فى دقة وفى وضوح ، بحيث يفصل مستوى الشخصية الفكرى والاجتماعى .
- ٤ - أن الحركة المسرحية مرتبطة بالحوار . وهذا يستدعى تحديد معالم الشخصيات القائمة بأدوارها بحيث يمكن أن تؤديها على المسرح .
- ٥ - أن يختص المؤلف بأوائل مسرحيته بالكشف عن الشخصيات أو معظمهم ، والتعرف على زمان المسرحية ومكانها .
- ٦ - أن يكون المؤلف قديراً على خلق الأزمان فى مسرحيته وقادراً على حلها فى الوقت المناسب ، وذلك يضمن له والمسرحية الرغبة فى متابعتها .
- ٧ - منذ القديم ألزم كتاب المسرح بما يسمى (قانون الوحدات الثلاث) ويعنون به وحدات الموضوع والزمان والمكان ، وتعنى وحدة الموضوع (٢١ - أدب الاندلس)

أن تكون العقدة التي تدور حولها أحداث المسرحية واحدة وموقف الأبطال والممثلين تجاه هذه العقدة موقفاً متوحداً غير مفكك .

وتعني وحدة الزمان أن الوقت الذي يستغرقه التمثيل يناسب طول الزمن الذي استغرقته الأحداث في عالم الواقع .

وتعني وحدة المكان استمرار المشاهد من خلال المسرحية في مكان واحد أو في أمكنة متقاربة يمكن الانتقال بينها في الزمن المحدد .

ولكن أمكن التغلب على هذا القانون عن طريق الحيل المسرحية التي يلجأ إليها المخرجون ، وبهذا لم يلتزم المؤلف الخاضع لقانون الوحدات الثلاث خضوعاً مطلقاً .

٨ - وأنواع المسرحية :

(أ) المأساة : وتهتم بموضوعات السعادة والتعاسة ، ومحورها صراع الإنسان مع القوى الخفية أو مع ذوى البطولة الحارقة من البشر .

(ب) الملهاة : وتهتم بموضوعات الحياة العادية ، ومحورها نقد الصور الاجتماعية وعرض الأنماط السلوكية بطريقة تثير المرح والبهجة ،

(ج) المسرحية الحديثة : وهي مسرحية واقع الحياة ، وفيها يمكن أن تمتزج الملهاة والمأساة ، وأن تعالج أمور الناس كما يرونها رأى العين ومرتبطة في الوقت ذاته بما تمليه الروحانيات ويفرضه القضاء والقدر .

٩ - وأكثر ما تكتب المسرحيات تكتب ثراً ، لأن فيه مقبلاً للإقاضة ورسم الأبعاد وأحاديث النفس دون قيود ، ولقد تكتب المسرحيات شعراً ، فلا يكتبها إلا شاعر قدير على تطريح لغته وفنه لتلقيود العروض ، ولكنه لا يلتزم بمجرا واحدا ولا روياء واحدا ، وإنما ينتقل بين بحر وبحر وبين روى وروى : ومن أمثلة هذه المسرحيات الشعرية ما كتبه للشاعر أحمد شوقي والشاعر عزيز أباظة .

توفيق الحكيم :

ولد توفيق الحكيم سنة ١٨٩٨ م من أب مصري وأم تركية ، وقد رعاه والده - الذى كان من رجال القضاء - رعاية خاصة ، حتى نال إجازة مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٥ م ، ورغب إليه أبوه فى استكمال دراسته القانونية فأرسله إلى باريس لهذا الغرض ، ولكن توفيق رغب عن القانون وانصرف إلى الأدب والفن ، وكان قبل أن يسافر إلى باريس قد شغل نفسه بتأليف بعض المسرحيات التى مثلتها (فرقة عكاشة) مثل المرأة الجديدة وغانم سليمان وعلى بابا ، وكان وجوده فى باريس فرصة ذهبية له لاستكمال مقومات فنه ، فعاد إلى مصر واشتغل بكتابة القصص والمسرحيات حتى أصبح فيهما عالماً . وأظهر مسرحيته (أهل الكهف) سنة ١٩٣٣ م ، وأحدث ظهورها دويماً فى الأوساط الأدبية والفنية ، ومنها بدأت شهرته ، فأخذ يؤلف للمسرح ويثريه بالمسرحيات الذهنية والاجتماعية . مثل أهل الكهف ، وشهر زاد والسلطان الحائر (من المسرحيات الذهنية) وحياة تحطمت ، ورصاصة فى القلب ومجموعة مسرح المجتمع (من المسرحيات الاجتماعية) .

مسرحة السلطان الحائر

على ضوء ما قدمناه تناول المسرحية بالتحليل والنقد بادئين بتلخيصها
لمن لا يقرأ نصها الأصلي :

الحادث

الفصل الأول :

تنفج الستارة في الفصل الأول عن ساحة في المدينة ، في عصر سلاطين
المماليك ، والفجر يكاد يبرغ ، والسكون قد خيم ، وفي وسط الساحة عمود
شد إليه رجل محكوم بإعدامه ، وجلاد يجلس قريباً منه ، يجاهد في
مقاومة الدعاس .

المحكوم بإعدامه (ونعرف فيما بعد أنه نخاس ثرى كهل) يحاول أن
يعرف من جلاده : متى ينفذ فيه حكم الإعدام ، والجلاد ينهاء عن الثرثرة ،
ويخبره أن مواعده أذان الفجر ، ويرى النخاس أنه لم يقدم إلى محاكمة ،
وأنه لم يرتكب جرماً يستحق إصابته مقتله ، ويرد الجلاد بأن هذا ليس
من شأنه .

وعندما يقرب النخاس من الحديث عن جريمته - أو عما اعتبر جريمته -
يخرسه الجلاد في الحال ، وينهيه أنه (أى النخاس) يعرف أنه (أى الجلاد)
مأذون له في قطع رقبته إذا نبس بحرف عن جريمته ، أو عند أذان الفجر
أيهما أقرب .

ثم يقوم الجلاد بإفخاخ النخاس أن من صالحه أن يتركه (أى يترك الجلاد)
يبدأ بالنزول الحادى ، وأنى على النخاس أن يرفع من روحه المغنوية ، حتى
إذا حان موعد الضرب كانت يده ثابتة ، ونفسه هادئة ، فيطيح برأس النخاس

بضربة واحدة ، لاتدع له وقتاً للإحساس بالألم ، ويقع الشخص فريسة هذا الإغراء ، ويستسلم ، فيشتري للجلاد ثراباً ، ثم يدفعه الجلاد دفعاً إلى استجداء غنائه ، واستجاءته ، وبعد تمنع ينفه الجلاد أغنية زهرة عمرها ليلة) ، يرفع في غنائها عقيرته ، وهو يظن أنه يرفه عن صحته ، وهو يصور زهرة يقطفها البستاني عند الفجر .

ويحدثان جلبة ، وتطل خادم في بيت غانية من شبا کہا تستنكر هذه الجلبة . ويسبها الجلاد ويسب سميتها ، التي ما تلبث أن تظهر ، وتنفه درسا في أدب الجيرة ، مما اضطره إلى أن يعتذر ، وتأمر الغانية له بالشراب ، وتعرف إلى الشخص ، ويشرح لها حاله ، ويبين لها أنه لم يحاكم ، وأنه أرسل ظلامه إلى السلطان ، يسأله حقه في المثل بين يدي قاضي القضاة ، ولكن الوقت يمر ، ويتخذ معه سميره .

وأعلنت الغانية حيلة ، أخرت بها أذان القجر عن مواعده . وأصبح الصباح ، وامتلات الساحة بالوزير وحاشيته ، وأبأ الوزير الشخص أن ظلامته وصلت السلطان تأمر قاضي القضاة بالتحقيق فيها ، وأن السلطان نفسه سيحضر المحاكمة ، وما هو إلا قليل حتى نصبت المحكمة ، وعرف أن الشخص يلوك في السوق أن السلطان ما يزال عبداً رقيقاً . منذ قام الشخص ببيعته - وهو صبي - إلى السلطان الراحل ، الذي لم يعتقه حتى مات ، ولهذا لا يجوز له (أي السلطان الحالي) أن يحكم شعباً حراً .

وحاول الشخص أن ينفي عن نفسه التهمة ، وبلغ المقال على الناس جريماً وحاول السلطان - بالنسبة لعبوديته السابقة - أن يفخر بأنه واحد من سلاطين الماليك ، الذين جلبوا منذ نعومة أظفارهم إلى القصور حيث نشروا تنشئة قوية وقوية ، تؤهلهم للحكم والقيادة ، وبالنسبة لدعوى استمرار عبوديته رفض السلطان هذه الدعوى ، ووسمها بالاختلاق الذي لا يستقيم معه

عقل أو منطق ، ودعا قاضيه ووزيره أن ينشرا على الناس نص الوثيقة التي مبرها السلطان الراحل بعثته

وبدا على الوزير بعض الاضطراب ، فأشار بإبعاد الناس عن ساحة المحكمة واتحى السلطان والوزير والقاضي ناحية يتدبرون ، فأعلن الوزير - في نعمة أسى واعتذار - أن الموت فاجأ السلطان الراحل ، مما لم يستطع معه الوزير إعداد وثيقة المتق ، وأنه ما دار في خلدته أن الشعب سيلغظ في هذا الأمر ، واقترح قطع السنة المتقولين بحمد السيف ، وتقديم رقبة النحاس قرباناً ، وأخذ يدافع طويلاً عن رأيه في سفك الدماء ، وقطع الرقاب ، وإخراص الألسنة .

وكان للقاضي رأى آخر ، فالسيف عنده لا يحل المشكلة ، فسيظل السلطان - دون أن ينال حريمه - حاكماً على شعب حر طليق ، وقدم القاضي أدلته وبراهينه ، وأغرق في نصوص فقهية : شرعية وقانونية ، محورها أن السلطان ليس سوى عبد رقيق ، وهو فائد - إذن - أهلية التعاقد ، وهو متاع يتصرف فيه ، ولما كان السلطان الراحل لم يخرج من هذه الصفة - صفة المتاع - إلى صفة الإنسانية بالمتق قبل الوفاة فقد صار جزءاً من ميراثه ، ووارثه . هو الوحيد الذي يملك حق التصرف فيه ، وليس للسلطان الراحل وريث من الناس ، إذن تحول تركته إلى بيت المال ، لا يستطيع أن يعثقه دون مقابل ، ولا يستطيع أن يحتفظ به ، لأن بيت المال لا يحتفظ إلا بالأمته التي تدرغلة على العامة ، وليس السلطان من هذه الأمته ، وإنما هو متاع عقيم ، يجب أن يتخلص منه بيت المال ببيع كسائر الأمته العقيمة ، وبيت المال لا يبيع أمثته إلا في المزاد العلني ، حتى يحصل على أغلى عائد ، وإذن يجب أن يباع السلطان في المزاد العلني .

وحاول الوزير والسلطان إثناء القاضي عن رأيه ، أو عن الجهر به ، ورغب إليه الوزير في أن يشتري السلطان ويعتقه في السر ، ورفض القاضي

بدعوى أن القانون لا يعترف بالتصرفات السرية ، وأصر على أن يباع السلطان في المزاد العلني ، وزاد من عنده شرطاً ، هو أن من يرسو عليه شراء السلطان يعتقه في الحال ، وهذا يفيد بيت المال ولا يضار ، ويظفر السلطان بعقده وتحريره .

وعاود الوزير إيضاح رأيه في أعمال السيف ، ورفض القاضي أن يشاركه في إعدام حرمة القانون والشرع . وعيل صبر السلطان فلوح بسيفه در للقاضي نفسه . وجعل السلطان يسترجع أبحاثه الحرية وتقدرته القتالية . ويسفه إرادة القاضي التي تظهر سلطانه في هذا المظهر المزري المبهين . وخشى الوزير أن يذهب القاضي شهيداً على الرغم منه .

وحاولاً إقحام القاضي أن الصفقة خاسرة لمن يشتري السلطان ، فاحتسب القاضي بالوطنية . وادعى أن الذين يشتدون حرية السلطان بأموالهم غير قليل وأن من علامات المجد أن يخضع السلطان للقانون ، مثلاً يخضع له سائر الناس وأعطى السلطان فرصة الاختيار (الأولى) بين السيف الذي يفرضه على الناس ولكنه يعرضه للخطر ، والقانون الذي يتحدى السلطان ورغباته ولكنه يحمي حقوقه . . . وبعد برهة طويلة من التفكير أعلن السلطان أنه اختار . . . اختيار حكم القانون .

الفصل الثاني :

في الفصل الثاني نرى الساحة عينها ، ونشاهد حركة الحراس وهم ينظمون صفوف الشعب حول منصة نصبت .

ويدور حوار بين حمار وإسكاف حول المزاد العجيب ، الذي يجري بعد قليل في هذه الساحة ، وجملاً يمينان نفسيهما بمشهد فريد ، ويتحدثان فيما يصنع كلامهما بالسلطان لو أتيح له أن يحتازه ، وانفق على أن يشتركا في احتيازه

فيكون لدى أولهما ليلاً يقص على الندمان معاركه ، ويحكى عن طرائفه وأسفاره : ويكون لدى الإسكاف نهارة ، يجلس أمام حافوته على مقعد مزيج وقد ألبس حذاءً جديداً ليعرضه .

ويجتمع الناس ، ويتحدث الجوع من رجال ونساء وأطفال في أمر السلطان المعروض . ويدخل الجلاد والمؤذن (اللذان عرفناهما في الفصل الأول) في نقاش حول الفجر الذي لم يؤذن . ثم يظهر موكب السلطان ، يمشي فيه قاضي القضاة ، والوزير ، والنخاس الذي جاء هذه المرة ، ليتولى إشهار المزاد .

وقدم النخاس القاضي ، فأعلن القاضي شروط البيع . وتحدث الوزير عن الحدث الفذ الضخم ، وعن السلطان المجيد الذي يطلب حرّيته عن طريق القانون ، فهو يلجأ إلى شعبه ، بدلاً من أن يلجأ إلى سيفه المشهود له بالنصر في معارك المغول . وأن هذا اليوم فيه اختبار لوطنية أفراد الشعب ، حين يتنافسون في تقدير السلطان وتحريره .

وسارت إجراءات المزاد سيرها المعروفة ، ورسا المزاد على رجل مجهول بثلاثين ألف دينار ، وقدم إليه سكك البيع فأمله ووقعه ، وقدم إليه سكك العتق فرفض إملاله وتوقيعه ، بدعوى أنه ماذون له في الشراء فقط . وبأنه لم يشتر السلطان لنفسه ، وبذلك محاولات لسانية ومادية للحل على توقيع سكك العتق وهو يائي ، ونوفس في أمر موكله ، فأبان طرفاً من نعمته لا يكشف عن شخصه . . . وتقد صبر الوزير ، فأمر بإرسال الرجل إلى حيث يعذب وهو يتوسل إليهم أن يتركوه وبينما الحراس يحيطون به إذا انفتح باب دار الغانية ، ودعته أن يتركوه ، وقدمت أكياس المال ثمناً للصفقة التي أبرمها وكيلاها عنها ، وسط دهشة الجمهور وصياحه في وجهها : العاهرة . . . العاهرة .

وحاول الوزير والقاضى أن ترفع الغاية صك العتق . فأبوت ودخلت مع القاضى فى سجال ، احتكمت فيه إلى منطق القانون الذى يحميه القاضى نفسه ، فالشراء هو امتلاك شيء فى نظير ثمن ، والعتق التخلي عن الشيء دون مقابل ، والقاضى جعل العتق شرطاً للشراء ، أى جعل ملك الشيء مشروطاً بالتخلي عنه ، فلكى تملك يجب أن تتخلى ، بعبارة أخرى : لى تملك يجب ألا تملك .

وأسقط فى يد القاضى ، ولم يستطع قرع حجتها بحجة ، فوسمها بالخدعة والغش والتحايل ، وحاول أن يؤلب عليها الجمهور باسم الأخلاق ، لا باسم القانون الذى رآه السلطان حكماً يجب على القاضى أن يرضخ إليه . ولم يقد تدخل الوزير وتلويحه بسيفه . . وكان على السلطان أن يختار (للمرة الثانية) فاختار أن يمضى فى طريق القانون ، مهما صادفه فيه أو حال .

وهال الوزير أن تنصّر الغاية ، فأثار عليها الشعب ، وانقسم الشعب على نفسه : بعض يطلب موتها ، وبعض يرفضه ، والمرأة تصيح فى الجموع ، تدافع عن موقفها ، وتنفى أن لها ذنباً أو جريرة . . ويحسم السلطان الفتنة بإعلان أنه لا مبرر لقتل المرأة ، إلا أن يكون الوزير يريد اللجوء إلى تبرير شبه قانونى لاستخدام السيف . . وكان على السلطان أن يختار (للمرة الثالثة) بين الوحل والدم . . فاختار . . اختار الوحل ، أو — كما قال — اختار أن يمضى قدماً إلى الأمام فى خط مستقيم .

وحادث السلطان الغاية منفردين ، فأقرت له بأنه السلطان ، وبأن عمله الحكم ، وأبدت موافقتها على أن تعيره إلى الدولة نهائياً ، حتى إذا حل المساء عاد إليها : وبادلتها السلطان فى صلاح رأيها ، فعرضت عليه حجرة فى بيتها منفردة حادثة ، يمكنه أن يصرف فيها أمره مع رجال دولته . وكاشفها السلطان بما يقوله الناس عنها ، فأعرفت له بأن وخز الناس لم يعد يؤلمها . . وأحست لطف حديثه ، فعدلت من صلابة حديثها ، وتراخى منطقها ، وهى

تسمى أن تدخل السرور على قلبه ، لكنها تريد أن تشعر أنه هو لها وحدها وأن يبق مع ذلك سلطاناً ، وأقدها بتعارض الإرادتين ، وبأنه لابد من تضحية ... فإما أن يتخلى هو عن عرته في سبيل إرادة الأولى ، وإما أن يتخلى هي عن ملكه في سبيل الإرادة الثانية : وفي الأولى استمرار رقة وعبوديته ، وفي الأخيرة حريته وسيادته . وكان على الغاية أن تختار ، وكان مؤلماً أن تتركه من يدها فتفقدته إلى الأبد . ولكن كان مؤلماً أيضاً أن تفقد البلاد سلطاناً في مثل عدله وشجاعته . . . واختارت . . . اختارت أن توقع صك العتق بشرط ، هو أن يمنحها السلطان ليلة واحدة في حياتها .

الفصل الثالث :

في الساحة التي رأيناها في الفصلين السابقين يظهر الوزير آخراً الجنود أن يطردوا الناس عن الساحة ، والجوع ترفض ، ويدافع الإسكاف والخارج عن حقهما في البقاء . ويعلمان للوزير أنهما وسائر الناس لن تغمر جفونهم وهم يعرفون أن مصير سلطانهم في ميزان الأهواء المتقلبة ، وأنهما — ومثلهما كثير — عقداً ومهاناً حول وفاة الغاية برعدها أو إخلافه واستشاط الوزير غيظاً ، ودبر مع الجلاد أمراً يطيح برأس الغاية إن أخلفت وعدها ، واتفقا على اتهامها بالخيانة الوطنية وأنها جاسوسة للفقول .

هذا في الساحة بينما يطل عليها من بيت الغاية جانب من المشهد ، يمثل حجرة الاستقبال في هذا البيت ، حيث نراها مع السلطان . . . ونسمع السلطان يطير في زحمة ، وإذا جالسة عند قدميه ، تشرح له حكاية زوجها . الذي كان من أغنياء التجار ، وكانت هي إحدى حواريه ، وكان له ذوق يولع بالشعر والغناء والعزف : فتشأها على حب الفن ، وكان يحضرها ولأثمه ، ويسمح لها بمحادثة أضيافه من الشعراء والمفكرين وأصحاب الظرف والفكر ، فسهرت معه ومعهم الليالي الطوال ، دون أن تحصى . أو تنبذل ، حتى اعتنقها مولداً

وتزوجها وسمح له بشهود بحالسه من وراء حجاب ، فلما مات لم تستطع التخلي عن عاداتها ، فاستقبلت أضيافه على الصورة التي تركها زوجها عليها ، ولما لاک الناس سيرتها لم تجد معنى للمضى في الاحتجاب خلف الأستار : وجعلت من نفسها قاضياً على تصرفاتها ، مادام حكم الناس قد أدانها .

وطابت إلى السلطان أن يقبض عليها ، فتألم لهذا ، وتصور وضعه وإياها هو وضع دهر يار ، و د شهر زاد ، معكوساً ، ففرت عنه ، ورقصت له ، واعترفت له بأن حجة الرجال تحلو لها ، من أجل الفن والشعر والغناء والطرب من أجل أرواحهم ، لا من أجل أجسادهم ، وأنها عازمة ألا تغير عاداتها ولو امتلأ طريقها بما يظنه الناس وحلاً . وتحادثا فيما كان من أمر النهار وذكرت إعجابها بهدوته ورباطة جأشه وثقته بنفسه وصراحته واحترامه شروط اللعب في أمانة وإخلاص ، وظنها تتملقه في وقت كان الواجب الاجتماعي يدعوه إلى إطرانها .

وسأله عن الحب ، فاعترف أن شواغله لا تسمح له بوقت ينفقه في الحب وسأله : أيعود إليها بعد أن تعتقه أم ينساها ؟ وأجابها إجابة لبقه : إنه لن يمحوها من ذاكرته كلية ، أما أن يعود إليها فتوال . . عسير الجواب . ودعته إلى تناول العشاء داخل المنزل ، وشاهدنا إطفاء نور الحجرة وعدنا إلى الساحة نشاهد الإسكاف والخمار يتحدثان عن رهنهما ، والوزير يستمع إلى جلاده وهو ينهى إليه ما يغلط فيه الناس ، بسبب قضاء السلطان أيلاته في بيت داعر ليرضيها ، ويحامي الوزير عن السلطان ، ويثم ثناس بأنهم لم يفهموا إلا الجانب التافه عن المسألة ، ناسين ما مسمى السلطان من مقصد نبيل وهدف سام .

وجاء القاضي ولاك مع الوزير ما يقوله الناس . . واستطال الزمن ، وخطرت للقاضي خاطرة ، وهو أن يدعو المؤذن لصلاة الفجر قبل موعده وعلى عهدته

هو (عهدة المؤذن) .. وقد فعل . وكان جدياً غريباً ، هاج الناس له وددشوا واحتجوا عليه ، وسخطوا ، وكادوا يطشون بالمؤذن المسكين .

وأضاء بيت الغانية ، وأظلم منه مع السلطان ، وددشما للأذان كما دهش الناس ، ثم حاول القاضي أن يبرهن للغانية أن الذي سمعت هو صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر ، وأن - إذن - أن تبر بوعدها ، فإن حلول الفجر لا دخل له في الموضوع وحاول السلطان - وهو يكشف احتمال القاضي والوزير على اتقانون - أن يثبتهما عن مثل هذا العبث ، واحتج القاضي بأنه ينقذ السلطان من امرأة كذبه ، فصرخ السلطان في وجهه ، مسمماً على إنقاذ الشرط .. وهنا أعلنت الغانية أنها ليست أقل من القاضي إخلاصاً للسلطان ، ولهذا .. تعلن عتقه .

وأثنى القاضي على طيبة المرأة أفاضر السلطان لها بالاحترام ، ودعا الوزير إلى أن يصدر عتقه أمر للرعية باحترامها ، ووجه إليها الشكر ورجاها أن تقبل مثل مادفعته من حاله الخاص ، فاستغفرت من قبول رجائه ، وهي تقدم ما صنعتته شيئاً زهيداً أسهت به في حدث عظيم ، وإنه كفأها الذكري الجميلة ، التي ستعيش عليها طول حياتها .. ورأى السلطان أن يتوج هذه الذكري ، فأهداها ياقوته الفريدة .. وغادرها مودعاً ، وهي تبكي .. من الفرح .

الفكرة والهدف

قدم ، توفيق الحكيم ، مسرحيته بأنها قد كتبت في خريف عام ١٩٥٩م باللغة الفرنسية . بعموان (اخترت) ، ونشرت في « باريس » . وقال : إن الذي أوحى إليه بمسرحيته إنما هو سؤال يتفكر دائماً أمامه حائراً وهو هل حل مشكلات العالم يكون في الاحتكام إلى السيف أو إلى القانون ؟ ، والملاحظ أن أصحاب السلطان - من يملكون تقرير مصير البشر -

حائرون بين الالتجاء إلى القوة والإلتجاء إلى المبدأ ، ففي جانب يملكون القبلة الذرية أو الميديروجنية وطفواعة الصاروخية ، وفي جانب يقف القانون أو المبادئ ، وهيئة الأمم المتحدة ، وإنهم حائرون بين الجانبين . أو إنهم لا يجرؤون على إتخاذ القرار الحاسم : أى الجانبين يطرحون وأيهما يستبقون ؟ . وهذا الموقف الحائر أو الخائف من تبعات الاختيار النهائي بين السيف والقانون قد جر العالم كله إلى حيرة شاملة واضطراب عام . والمؤلف قد وضع هذا السؤال وهذا الموقف في إطار شرقي قديم .

دارت المسرحية - إذن - حول فكرة وحيدة ضخمة ، ولم تثر مشكلات فكرية كثيرة وهذه الفكرة الوحيدة الضخمة هي : ماذا يجب أن يحتكم إليه العالم في حل مشكلاته أ إلى السيف أم إلى القانون . وهذه الفكرة تمثل قطاعاً من الفكر العام ، وتوفيق الحكيم ، وهو البحث عن المصير الإنساني ، وهو بحث يشغل به ، الحكيم ، نفسه ،

وقد حاول المؤلف في مسرحيته أن يعرض فكرته في قطاع جزئي من الحياة ، وهو قطاع الحكم والسلطان ، ولجأ في الوقت نفسه إلى الإطار الشرقي القديم ، الذي يعتبر الحكيم ، أقدر على استيعابه وأكعب بمآذنه : بعد ما ألف فيه كثيراً ، من مثل د. شهرزاد ، وأهل الكهف ، وسليمان الحكيم ، : ولجأ المؤلف إلى الخرافة الأسطورية ، ولم يكن له سند من الواقع الأسطوري - إذا صح أن للأساطير واقعاً - واخترع المؤلف بخياله الخلاق خرافته ورسم أبعاده ، وألبسها ثوب المظاهر التاريخية ، إذ ما عرف تاريخ الممالك هذه الظاهرة ولا شيئا بها ، وقدرة المؤلف على أن تنتصب خرافته له بشراً سوياً من الفن ، وكانت قد عاشت في ضميره كما تعيش الأساطير في ضمائر الناس ، فصدقها وتقلبنا إلى مسرحيته ، ولكنها كانت واضحة الرؤية له ، فلم تنقو عليه وسارت في مجال الإطار الشرقي الذي قلنا : إنه ارتضاه ،

فشاهدنا الأوضاع المقلوبة (التي سنذكرها فيما بعد) وسعدنا أكثر من مرة حديثاً عن الرق والرقيق ونشئة العبيد والجواري والغناء والتسرى .

وعليها أن تأخذ في الاعتبار أن الحكيم ، أثبت مسرحيته باللغة الفرنسية وأن المسرح الفرنسي قد عرضها ، وقالت استعبدان جمهوره هنالك ، وذلك لأن الشعب الفرنسي شغوب مولع بالحقوق ، يقدسها ، ويعلى أمرها ، ويعدها محور النجاح في السياسة والاقتصاد ، وأساس الروابط الاجتماعية والإنسانية والدينية .

وعليها أن تأخذ في الاعتبار أيضاً أن الحكيم ، تخصص في القانون وعاش فترة نشأته وشبابه في ظله ، إذ كان أبوه قاضياً مرموقاً ، ثم عمل المؤلف من أجل القانون مدة ، أملت عليه (يوميات نائب في الأرياف) ثم (ذكريات النتن والقضاء) وإذا كان النتن قد غمره وبجرفه واستغرقه ، ولم يقاومه الحكيم ، بل استسلم له ، ورضع منه - وانغمس فيه ، ورأى فيه مثاله - لا يعدم هذا النتن أن يجد في معارفه سمججه متنفساً ، وفي أطواره مدداً .

وكل من هذين الاعتبارين كفيل بإنجاح مسرحية (السلطان الحائر) في وقت أيقن فيه العالم الحر أن سلاح القوة لا يحل مشكلات العالم بقدر ما يحلها التفاهم ، ومن هنا تبرز أهمية القانون في إحلال هذا التفاهم وإرسائه في النفوس والأرواح .

الآزمة

نستطيع أن نقول : إن الحدث نما حتى قرب نهاية الفصل الأول ، حيث شهدنا السلطان يشهد - كما دته أو على سبيل المصداقة ، لا ندري - محاكمة يعطين فيها أنه (أي السلطان) عبد ، بحكم شعباً حراً ، وكان لابد أن تصحح

الأوضاع ، ويطمئن السلطان على رقبته محررة ، ويطمئن الشعب على حاكمه حراً ، وبذل السلطان جهداً كبيراً - وكذلك الوذير - في سبيل الوصول إلى حل ، ولكن قاضى القضاة جبههما ، ولم تلن قنانه ، وواجه السلطان موقف عسير ، وتصلبت الأزيمة ، وكان عليه - وحده - أن يختار إما الحق والقانون ، وإما القوة والسيف ، وأخيراً أعلن في نهاية الفصل الأول انحيازه إلى جانب الحق والقانون .

وعلى هذا يأتى الفصلان الثانى والثالث وعاد ، ينضج فيه المؤلف مزايا الحق ، ومزايا الانحياز إليه ، وأبعاد السير المستقيم الذى يحمى كل من يسير في طريق القانون ، وتكون المفارقات اللطيفة التى اطلعنا عليها في هذين مادة جملة وخصبة لاطالة المسرحية وتلوين الفكركة ، لا أكثر ولا أقل .

ونستطيع أن نزع أن توفيق الحكيم ، أتى في هذه المسرحية أمراً جديداً لم نعهده من قبل ، وذلك أنه لم يكتب بأزمة وحيدة ، فأضاف عليها أزميتين اثنتين أخريين ، وفي كل فصل من فصول المسرحية الثلاثة أزمة يحل عقدها في نهايته .

الأزمة الأولى في الفصل الأول ، وقد كشفناها .

والأزمة الثانية في الفصل الثانى ، فلنا أن تصور - بعد اختيار السلطان الانحياز إلى جانب القانون - أن العقدة لم تحل ، فإذا نحن أمام (مزاد) يرسو على غانية ، لها الحق في أن تحكم أهواها فيما تملكه وفيمن تملكه ولقد سعت في سبيل احتياز السلطان ، ودافعت عن أهليتها في النصرف ، ورفضت أن توقع صك العتق ، وواجهت المحاولات العديدة لإثباتها عن رأيها وصرفها عن المضى فيما هى بصده ، ولم تلن ، وثبتت في موقف صعب ، وكان على السلطان أن يواجه - مثلها - موقفاً مماثلاً ، فرأى أن القانون في صف المرأة ثم رأت هى الشعب يثار ضدها ويتنادى برأسها ، فتقابلته جريئة شجاعة ، وهى

في أعماق نفسها تدبر ، ثم انتصرت ، وأحس الزهور . . . وهما نصاعدت
الآزمة ، فرأت المرأة أن تحل عقدتها بإعلان شرطها وهو أن يبيت السلطان
في دارها ليلة ضيفاً ، حتى يؤذن الفجر .

. والآزمة الثالثة في الفصل الثالث ، فلما أن تصور . بعد أن امتلكت الغاية
السلطان وأمسى رهينة دارها ومشيتها . أن تنفذ الآزمة من جديد ، ومحورها
هذه المرة الخوف من أن تخلف الغاية وعددها ، والدلائل كلها أمام أفراد
الشعب تنطق بهذا ، فالشعب ينجو ويهدر ، ولا يقر له قرار حتى يطعن على
سلطانة إذ كيف يبيت السلطان في دار داعر ، والسلطان نفسه مشدود إلى
مثل رية الناس في ماله كته ، وقد أوقعه في يدها سوء حظها أو انجيازها إلى
القانون . ونحاول المرأة أن تكشف حقيقة ما واقعها ، ويحاول السلطان أن
يصدق ما يسمعه منها ، فإذا أفصل له من التكذيب ، وأدعى إلى إطمئنانه .
ويغلي الشعب والحكام في خارج الدار غلياناً ، ويدبر الوزير خطة لنفس
المرأة ويحتمل القاضي على إنفاذ الشرط بتعجيل الأذان ، وينضب السلطان لهذا
العبث ، ويظن الجميع أن المرأة ستواجه العبث بعث مثله ، ويتأزم الموقف ،
وتفوز الأمدة . . فإذا المرأة تحل العقدة . . وتعلن عتق السلطان .

الصدفة

لم يتوفر عنصر الصدفة في هذه المسرحية ، والمصادفات إذا امتلأت بها
المسرحية - أي مسرحية - أشعرتنا بتخلعها أو تلقيقها ، وهذا مما يحاول
والحكيم ، أن يبتعد عنه ، وقد يكون عدد قليل من المصادفات مقبولاً
ونذكر مثالين كان يمكن أن يظهر في مسرحية (السلطان الحائر) على
سبيل الصدفة ، وليكن المؤلف لم يشأ ذلك ، استكمالاً منه للفن المسرحي .
المثال الأول : عدم إعانة السلطان الراحل لسلطان المسرحية ، أرجعه
المؤلف إلى سوء تقدير الوزير حيث يقول :

(إني مستحق الموت . . أعرف ذلك ؛ فهذا جرم لا يفتخر ، إن السلطان
الراحل ما كان يستطيع أن يفكر في كل شيء ، أو يذكر كل شيء . . إنه
لمن صميم على أنا أن أفكر له ، وأن أذكره بالخطير من الأمور . . كان
من واجبي أنا حقاً أن أعرض عليه موضح العتق بما له من أهمية خاصة ،
وأن أعد ما يقتضيه من إجراءات شرعية . . ولكن مقامك العالي
- يا مولاي - ونفوذك وهيبتك ومزلتك العظيمة في النفوس ، كل تلك
الصفات في سمرها جعلتنا ندهو عن حالة الرق والعبودية بالنسبة إليك .
وعن حاجة من كان في مثل ارتفاعك إلى مثل هذه الخبيج والوثائق . .
ما فطنت - والله - لهذا الأمر إلا فيما بعد ، عندما جلست - يا مولاي -
على العرش . عندما اتضح لي الموقف بأكمله ، وتملكني الطمع ، وكدت
أجن . . لولا أني شدأت من روعي ، وتماسكت : معللاً النفس بأن هذا
الموضوع لن يتاح له يوماً أن يفتح ، أو يثار . .)

المثال الآخر : شراء الغاية للسلطان كان يمكن أن يأتي صدقة ، فمن
يدفع أكثر يمكن هو انشأرى . ولكن المؤلف أبان عن إحياء الآثار
عن الإسهام في مثل هذا العمل الوطني الجليل ، لأن الصدقة خاسرة مجارياً ،
ولما دخل وكين الغاية في المزايدة على الثراء دخلها بتصميم واضح ومستمر ،
فانهمه الناس - والمزايدين الآخرون خاصة - بالهزل والمجون ، ولكن
التصميم كان منبعثاً من انغاية نفسها ، التي كانت ترى أن الموقف للجد
لا الهزل . إقرأ هذا الحوار :

الإسكاف : يا للهول ! . . من يكون هذا الرجل !

الخمار : شخص ما جن من طرازك ولا شك !

الإسكاف : ومن طرازك أنت أيضاً :

الخمار : بخيل إلى أن رأيت هذا الرجل في مكان ما ! ..
الإسكاف : (ملتفتاً إلى نافذة الغاية) : أنظر .. ها هي ذى في نافذتها ..
تبرق في أتم زينة وبهرج . كأنها عروس من الحلوى ! ..
(يصيح بها) أنت أيتها المليحة في عليائك ، .. ألسنت مواطنة
مخلصة أنت الأخرى ! ؟

الغاية : إخرس أيها الإسكاف ! .. إني لست بمن يهزل في مثل هذا
الطرف ! .. والله إن لم تكف لأبلغن عنك ، وعندئذ توضع
في الحبس ! ..

الإسكاف : (هامساً للخمار) أجادون هم في كل هذا ! ؟ . هؤلاء ! ؟ ..
الخمار : الظاهر ..

الخماس : تسعة وعشرين .. تسعة وعشرين ألف دينار : تسعة وعشرين
المجهول : (صائحاً) ثلاثين ! .. بمبلغ ثلاثين ! .. ثلاثين ألف دينار .
الخماس : ثلاثين ! .. بمبلغ ثلاثين ! .. ثلاثين ألف دينار .
الإسكاف : (هامساً) ثلاثين ألف دينار .. يلقي بها في البحر ! .. بالجنون ! ..

السلطان : (للوزير) هذا هو الحد الأقصى للتقدير الوطني النبيل ! ..
الوزير : يا مولاي ! .. إن الحاضرين هنا المزايدة هم في الأغلب من
مخلاء التجار والموسرين ، ممن ركبت فيهم طبيعة الشح ، والرغبة
في الربح ، والاضن بالمال في سبيل هدف أسمى .

الخماس : تقدم أيها الفائز ! .. وتقبل التهنة على حظك السعيد ! ..
(الجماهير تهتف له)
الوزير : أهنتك أيها المواضع الصالح ، وأحييك . (هتاف من الجماهير)

النخاس : (صانحاً) : السكوت . . . السكوت . . .
 الوزير : (مستطرداً) أحبك أيها المواطن الصالح بإسم الوطن ، وإياهم
 هذا الشعب المخلص الأمين الذي نعت منه ! لتشتري وتفقدى
 حرية سلطاننا المعظم . . . إن عملك النبيل هذا سوف ينقش
 أبد الدهر على صفحات تاريخ هذه الأمة الكريمة . . .

الأشخاص وتحليل شخصياتها

في مسرحية (السلطان الحائر) أربعة أشخاص يقومون بالأدوار
 الأساسية الرئيسية وهم — بحسب ظهورهم على مسرح الأحداث — :
 الغانية ، والوزير ، والسلطان ، وقاضي القضاة .

ومن عدا هؤلاء الأربعة شخصيات (جاهزة) ، لم يسهموا في تكوين
 الحدث أو تنميته ، وإن ساعدوا — بعلاقاتهم مع الآخرين — في سير
 الحدث في المجال الذي أعده ، ومن هؤلاء :

الجلاد : فإنه يؤدي عمله كما فرص عليه ، وكما يفهم هو منه ، فهو تابع
 للوزير ، وذيل له ، يأتمر بأمره ، وينتهي بنهيه .
 والحامد : فإنها ظل سيدتها .

والنخاس : صناعته الدلالة في سوق الجوارى والعبيد ، وهو يمارس هذه
 الصناعة في المسرحية مثلاً يمارسها في الحياة ، أما أثرته التي
 جرت عليه هذه المصيبة التي وقع فيها فهي ملازمة له وصدى
 لصنفته ، على أن معرفته السابقة بأحوال السلطان في صباه كانت
 مادة جيدة لهذه الثروة ، وهو يتباهى على نظرائه بها ، وكانت
 أيضاً تكأة للموظف ليستدعي بها المحكمة .

وقد وفق المؤلف — في الفصل الأول — في إبراز النمط الذي ينتمي

إليه كل من الأشخاص الأربعة ، ومن ثم جعل كل منهم يحى شخصيته من خلال نمو الحدث والحوار والمواقف التى وضع فيها .

فالفانية :

بدأ من أول الأمر أنها مترفة ذات نفوذ ، فقد سمعت فى إنقاذ النحاس من المصير الذى كان ينتظره مع الفجر ، ولم يستطع الجلاد أن ينثنها عن سعيها ولم يقاوم المؤذن دعوتها برغم قربها من سمت الصلاح . ثم دخلت (المزد) — عن طريق وكيلها — جادة لا هزيمة كالآخرين ، وقد اتوت فى نفسها أمراً لم يتكشف لنا إلا فى الفصل الثالث ، وهو أن تشجب مطاعن الناس فيها ، وترد مكايدهم فى نحورهم ومن هنا تفسير تسميدها على احتياز السلطان ، بإغلاء سرود تنجية المزايدى الآخرين على شرائه ، وباحتها العنيدة للقاضى . ووقوفها فى وجه الوزير وبجائتها لقوته وسلطته وتآليب الجموع عليها ، وعدم استسلامها لرجاء السلطان أن تتركه وشعبه إلا أن يمنحها ليلة . وفى هذه الليلة استطاعت أن تعطف السلطان عليها من مركز القوة لا من مركز الضعف ، وأن تتزع منه إعجابه بجرائها وثباته على عقبتها ، مما كان له عدى فى نهاية المسرحية ، حين أمر باحترامها ، وعدعا من فضليات النساء .

والوزير :

محور شخصيته السياسة ، والسياسة منطق متقلب ، تارة يميل به إلى البطش والعنف ، وتارة يتردد به إلى الملاينة والمصانعة .

كان الوزير باضاً متعسفاً ، حين أمر بسفك دم النحاس دون مساومة ، وحين أشار على السلطان بالشفقة مع الناس ، وحين دخل وكيل الفانية إلى أيدى الحراس ، وحين ألب الجموع على الفانية ، وحين دبر لها مكيدة تظهرها فى منظر الجاسوسة الخائنة .

وكان الوزير مصانعة داهية ، حين اعترف بخطئه وتقصيره في عدم عتق
سلطانة ، وحين حاول إنشاء اتفاق من رأيه في التصرف في السلطان أو عن
الجهر به ، وحين ظهر بمشاعر الولاء للسلطان في دعوته القاضي أن يتدبرا سرا
أمر بيع السلطان وشعبه ، وحين استل نخيصة السلطان وهو يرفع السيف على
التقاضي ، فادعى الوزير أن القاضي ينال بهذا شرف الشهادة دون استحقاق .

والسلطان :

المحور الذي تدور عليه شخصيته هو الحرية ، التي كان يخلصه عنها عقله
مضحياً بالاعتبارات العاطفية .

فهو — أولاً — حائر بين رقه وحرية . فهو يعترف بالرق ويفخر به
ولكنه يرفض أن يبي رقيقاً يوكل إليه أمر هذا الشعب الحر ، وهو يزعم
أنه لا بد أعتق ، ولكن صك العتق مضيق ، فليهم أن يبحثوا عنه ، ويبنشروا
على الناس نفسه .

وهو — ثانياً — حائر بين السيف والقانون ، فهذا وزيره يطرد مزاي
السيف ، الذي خلق لقتل لا لأزينة . والسلطان له من ماضيه في الحروب
وأبجاده في قتال أنغول ما يقنعه بقوة السيف وصلاحه في الإملاء والقهر
والغلب وهذا قاضيه يحتمى بالشرع والقانون ، ويتشجع في إبداء رأيه
ويهدد تهديداً مقنعاً بإعلان القضية على الملأ ، وحين تتبدد محاولات الوزير
والسلطان معه . لا يجد السلطان مفراً من قطع الحيرة فيختار القانون ،
وما يزال تغلى في أعماقه مراحل الغضب .

وهو ثالثاً — حائر بين الوحل والدم ، فهذه امرأة ساقطة تشتريه ،
وترفض إماء شرط العتق ، وتحتاج قاضيه فتنتصر عليه ، وتواجه وزيره
بمثل حماقة ، وتقف من السلطان نفسه موقف عناد على الرغم من ملاينته
ويسقط في يد الجميع — ماعداً الغاية — فلا يجد السلطان مفراً من الاختيار

بين الوحل والدم : الوحل الذى يقتضيه إنفاذ القانون والتسليم للرقابة بحقها
فى احتيازه ، وألزم الذى يوشك الرذير أن يجربه أنهارا .

وقاضى القضاة :

احتمت شخصيته ورام (حرفية) القانون لا روحه بأكثر من وجه .
فعمده أن الشرع يحتم تحرير العبد بملك يصدر عن يملكه ، وهو لا يرضى
عن المشاركة فى تزيف مثل هذا الصك . وعمده أن القانون يحتم بيع متاع
الدولة ، وهو لا يقبل أن يتم التصرف فى هذا المتاع على وجه آخر ولو كان
فى صالح سلطانه وشعبه . وعمده أن القانون يحتم أن يكون هذا البيع فى
(مزاو) على ، وهو لا يقبل أن يتم البيع سرا ، ولو كان فى هذا ما ينيله
الشرف الوطنى ويحقق العائدة على بيت المال .

وباسم القانون يتحايل القاضى ، حين يضع شرطا فى إعلان البيع ، يلزم
به من يتناع السلطان أن يمضى عنقه فى الحال ، والقاضى قد سمح لنفسه بإملاء
هذا الشرط تحت وهم أنه يساير منطق القانون ، وخفى عنه أنه شرط هادم
فطنت إليه غانية من العوام لم تترس بالقانون ولم تضطلع به يوما .

وفى سبيل إنفاذ القانون يتناول القاضى على الشرع ، فقد شرطت الغانية
على نفسها أن تعمق السلطان عندما تسمع المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ، وتمخض
عبقريه القاضى عن التعجيل بالأذان ، ويبتد سماء حكما بينه وبين الغانية
ويجادل فى شرعية الأذان ولا يجادل فى قانونيته ، ومن ثم يصل إلى مأربه
الذى نرى مثله على الغانية من قبل أقرأ هذه الفقرة :

القاضى ... إن ما تقوله هذه المرأة ليس إلا سفسطة . . .

السلطان : شرطك هو السفسطة . . فالبيع هو البيع . . هذا شىء بدى

أما الباقي فلا يلزم أحدا .

القاضي : أجل يا مولاي .. ولكن هذه المرأة قد تقدمت إلى المزار ، وهي على بينة من طبيعته ، وتعلم تمام العلم ما ينطوي عليه من معنى وهدف .. فتصرفها بعد ذلك على هذا النحو إن هو إلا خديعة وغش وتحايل .. !

السلطان : إذا كنت تريد الآن أن نلقاها درساً في الأخلاق فهذا شأنك أما القانون فلم يعد له هنا محل .. عليك أن تكف عن التحدث باسمه .

وفي مكان آخر من المسرحية :

القاضي : .. هل سمعت أو لم تسمعي صوت المؤذن ؟
الغانية : سمعت .. ولكن .. ما دام الفجر لم يزل بعيداً .
القاضي : لم يكن الفجر ذاته في الموضوع .. ولكن الوعد انصب على صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة الفجر .. فإذا أخطأ المؤذن في التقدير أو التجريف فهو مسئول عن خطئه .. فهذا شأنه هو .. ولكنه ليس شأننا نحن .. أفهمت ؟ !

الغانية : فهمت .. لا بأس بها من حيلة ! ..
القاضي : إن المؤذن سيحاكم بالطبع على خطئه .. ولكن هذا لا يغير شيئاً من طبيعة الواقع .. وهو أننا جميعاً سمعنا المؤذن يؤذن لصلاة الفجر من فوق مدنته .. وإذن فكل النتائج القانونية المترتبة على ذلك يجب أن تأخذ بحسبها .. وفي الحال .. هلي إذن ووقعي ! ..

السلطان : (صائحاً) يا للعار ! .. كفى .. كفى ! .. أبطأوا هذا اللعب !
كفوا عن هذا الصغار ! إنها لن توقع .. إلى أرفض رفضاً باتاً أن توقع بهذه الطريقة ! .. وأنت - يا قضي القضاة -

ألا نخجل من اللب هكذا بالقانون ١٩ . .

القاضي : يا مولاي السلطان . .

السلطان : لقد خاب ظني . . خبت ظني فيك يا قاضي القضاة . . أهذا

هو القانون في رأيك ١٩ . . اجتهاد وبراعة في التحايل

والتلعب ١٩ . .

وهؤلاء الأربعة الأشخاص منهم اثنان تتقابل شخصيتا هما تقابلا كاملا ،
وهما الوزير وقاضي القضاة : فسيل كل منهما يختلف ، فالوزير لا يفهم غير
لغة السيف : إلا إذا تطلبت السياسة المصانعة والخداع والتورية ، والقاضي
لا يدرك غير لغة القانون . ولا يفقه في السياسة شيئا ، أو هكذا ادعى :
« إني لا أفقه شيئا في السياسة ولا في مهنة حكم الناس » ، ولقد حاول الوزير
أن يعتمد على القانون وهو يمارس هجومه على الغاية وهو يدبر لها الحياة ،
وحاول القاضي أن يحتال بالخداع حين أمر المؤذن بالتعجيل بالأذان ،
ولكن هذا وذاك لا يغير من واقع التضاد بين الشخصيتين .

والإثنان الآخران : السلطان والغاية — قد نرى بينهما من عناصر
التقابل الاجتماعي ما يجعلهما متعادين ، ولكنهما — لدى إمعان النظر —
يتماثلان في فكرهما وهدفهما ، وإن اختلف سلوكهما ، فكلاهما يتشدد الحرية
من طريق سبة . ولا يبالى أشواك الطريق . . وهذا الجواربينهما في الفصل
الثالث يكشف ما بينهما من تماثل :

الغاية : . . لقد نلت لك الساعة يا مولاي : إن زوجي كان من أقرباء

التجار ، له ذوق ، وكان له ولع بالشعر والغناء . .

السلطان : كنت من جواربه ١٩ . .

الفانية : نعم .. اشترايتى ولى من العمر ستة عشر عاماً .. ثم أعتقتى وتزوجنى
قبل موته بيضع سنوات .

السلطان : إن حظك خير من حظى ! .. فانت لم ينس أحد أن يعتقلك ..
فى الوقت المناسب .

وبعد أن يغوصا فى أحاديث آخر ، وتذكر له أنها من هواة الفن ،
ويبدو عليه أن لا يصدق قولها ، تقول له .

الفانية : أنت لا تصدق ! .. ولا تأخذ قولى على سبيل الجد ! ..

فليكن . ظن فى السوء ما شئت اليس من عادى الدفاع عن نفسه

ضد ظنون الآخرين ! .. إني فى أعين الناس امرأة سيئة

السيرة ! .. وقد انتهى بى الأمر إلى قبول هذا الحكم .. وقد

وجدت فى ذلك الراحة لى .. ولم يعد من مصلحتى تصحيح

رأى الناس ! .. عندما يجتاز إنسان أقصى حدود السوء فإنه

يصبح حراً ! .. وأنا .. فى حاجة إلى حريتى ! ..

السلطان : أنت أيضاً ! ..

الفانية : نعم .. لأفعل ما يحلو لى ..

وتحس تلاحظ أن كلامهما اجتاز أقصى حدود السوء ، فهى - كما أقرت -

أصبحت فى ألسنة الناس غامراً ، والسلطان نزل عن سلطانه ، وقبل أن يباع

فى السوق عبداً كالمتاع ، وهذه هى التى اشتريته ، وأصبحت الألسنة تهش

سمعته بقبوله السهر معها .

الحركة المنظورة والحركة الذهنية

لامراء فى أن القضية التى طرحتها مسرحية (السلطان الحائر) وهى قضية

الحق والقوة تحتاج أساساً إلى أعمال الفكر والروية ، وتعميق النظر ؛

ومقارعة المنطق أو السفطة ، مما يفرض الحركة الذهنية أكثر مما يفرض الحركة الجسمية المنظورة .

وبالنسبة للحركة الجسمية المنظورة نشهد - في الفصل الأول - النخاس المحكوم بأعدائه مقيداً مغلولاً ليس له حق الحرية إلا في أن يسمع أغنية الجلالاد ، وهذا الجلالاد نعان لا يريد أن يصحو ، وإن صحا فلا يرجع الخمر ، حتى يزداد كسلاً على كسل ، ويأخذ في غناء مقلق ، ثم تتحرك الغانية وتخدمها للقضاء على هذه الضجة ، وتشغل الغانية بصرف المؤذن عن أذانه ، وهنا تبدأ حركة الحدث في مجالها نحو التأزم . ثم يأتي الوزير وبعده السلطان وقاضي القضاة للمحاكمة ، وتفك أربطة النخاس ، فلا يتحرك إلا ليدافع عن نفسه ، ثم يخلو الجو لمعركة كلامية بين السلطان والوزير والقاضي ، يتبأ فيها السلطان لاستلال سيفه .

وفي الفصل الثاني يؤثر الخاتم الحمير فيطلق جانباً ، وينشط الإسكاف لمرض بضاعته ، وتبدو حركة الشرط لتسكين الناس حول منصة (المزاد) ويحتل النخاس قمة الحركة وتحميس الشراة ، ثم يخلو الجو لمعركة كلامية بين الغانية والرجال ، وتثار الجماهير وتستيقظ .

وفي الفصل الثالث نسمع حركة الجماهير بعيدة عن المسرح في الأزقة والطرافات . أما المسرح فالحركة عليه هي حركة الأيقاظ الذين قد تم لهم أن يأتوا إلى الساحة بينما الجماهير تهدر في الأزقة والطرافات لتغضب جفونها للحدث الجلل وتضالعنا من حجرة الغانية حركة الترحيب بالسلطان بالحدث والموسيقى والرقص . ثم ينشط الوزير والجلاد لتدبير مكيدة للغانية ، وينشط القاضي للتعجيل بأذان الفجر ، وهنا تنتهي الحركة داخل المجال ، وتكشف لنا السخرية (الدرامية) حين نربط بين أذان الفجر المهدر ، وأذان الفجر المزعور ، فالأذان الأول كان للنخاس علامة نهاية إجابة والتخلص من ربقة

الجلاد ، والأذان الثاني كان علامة للسلطان على بداية الحياة والتخلص من قبضة الغاية ، وحينئذ يظهر السلطان والغاية في موقف أشبه بموقف الوداع وإن كان وداع الأحرار .

ومع هذه الحركة الجسمية القليلة ، ومع الحركات التعبيرية التي تطفو على وجوه الأشخاص ، وتعبّر عن سلوكهم ونوازعهم - يمكن القول بأن الحركة الذهنية احتوت الحركة الجسمية للأسباب التي أبديناها قبل .

والحركة الذهنية في المسرحية دائرة حول الحق ، الذي يقرب به كل ، ولا يريد أن يمس شرعيته ، ومن هنا ينشأ الصراع ، ولكنته صراع يدور في نفوس الناس ، وبين بعضهم وبعض ، حول الانقياد المطلق للحق أو الاحتيال عليه ، وصلابة الحق تدفع أحياناً إلى اصطناع الوسائل لمعالجة هذه الصلابة وقد تبلغ هذه الوسائل أحياناً درجة المواجهة ، وهذا ما شهدناه في لغة السيف التي ارتفعت في بعض المواطن ، وتبلغ هذه الوسائل أحياناً كثيرة درجة المصانعة والمداواة باللجوء إلى الخيل ، واللباس الحق ثوباً باطلاً ، صفيقاً تارة ، وشفيفاً تارات ، والوسيلة في كل أولئك هو القانون .

وتتبع الحركة الذهنية من أول المسرحية ، فنرى النخاس المحكوم باعدامه يلتبس محاكمة عادلة على جريمة منسوبة إليه ، فهو يناقش جلاده الذي كفاه راحة بال أنه مأمور بتنفيذ الحكم ، فإشغل نفسه بظروف هذا الحكم ولا بشرعيته ، ثم يقوم باقناع النخاس بحاجته (أي حاجة الجلاد) إلى الراحة والهدوء حتى يطيح برأسه بضربة واحدة لا تدع له وقتاً للإحساس بالألم ، وهذا من حق النخاس عليه . ويصور الجلاد له الصورة الأخرى الفظيعة ، عندما أطاح برأس بخيل في سلة إسكاف ، وفي سبيل هذا الحق يضطر النخاس إلى أن يرنه عن جلاده .

وتظهر خادم الغاية لتلزم أجلاد أن يكف عن الصخب ، رعاية لحق البيوت

في التمتع بالهدوء ، ويجادلها الجلاد بدعوى أن بيت سيدها بيت قذر وهل من حق مثله الهدوء ، وتظهر الغاية التي تنضم إلى مولاتها وتتشدد بهض الاحترام للسيدات ، ويسلم الجلاد بهذا الحق ، ولا يسلم بالصفة التي خلعتها الغاية على نفسها ثم كانت النمل هي الفاصلة فتراجع الجلاد وابتلع شجاعته ، ولكنه زعم أنه سلب النشوة التي كان هو فيها ، وإن في رأسه تلفاً يحتاج إلى إصلاح أى إلى خمر تملأ الفراغ ، وهذا حقه في تقديره ، وتولت الغاية ملء دماغه .

وعرفت الغاية قضية النخاس ، وأرادت أن تسهم في وصول حقه إليه فاحتالت على المؤذن ، وأقنعتة بحاجته إلى شراب ساخن فيه شفاء لصوته وصفاء ، حتى يؤدي واجبه على خير وجه في هذا الشتاء ، وأقنعت الجلاد - وقد ملأت رأسه خمراً - بأنه لن يضار مادام المؤذن لم يؤذن بعد صلاة الفجر ، واعتصم المؤذن بأن الناس تغط في النوم ولما يستمعون إلى أذانه وأن الخي حتى مترفين أكثرهم تؤوم الضحا ، وأن المسجد خال إلا من رجلين غريب ومتسول ، كما اعتصم الجلاد بأن التبعة على سواء وساعدت هذه الحيل في استبقاء النخاس حيا ، فأتيحت له محاكمة عادلة ، حضرها السلطان وأعلنت التهمة على الملأ ، فأقرها النخاس ، ولم ينقها ، وإن حاول أن يزيج عن شخصه أنه مدعيها ، ويحيل مقالها على جموع الناس . وقال الوزير : فإنه يستحق الموت لثروته وانفلات لسانه ، ولم يجار السلطان وزيره في منطقه وجعل يفخر بأنه من أسرة كل أفرادها عبيد هيئوا لمهنة الحكم ، ثم يدفع بالزور والبهتان دعوى أنه لم يعتق ، ويطلب إلى القاضي أن يبرز للناس صك عتقه فلما تكشف له الواقع المروء أن ليس هناك صك يحرره ، وقع في غمة حاول الوزير أن يكشفها عنه بالاستئذان في أعمال سيفه ومجاهدة الناس بالبطش والقوة وأذكره ذهب الممزر وسيفه اللذين دالت بهما مصر ، ومال السلطان إلى هذا لولا صلابة القاضي واستمساكه بحرفية القانون ، وذهبت محاولات

السلطان والوزير معه سدى وهو يرفض ، ويدعى أنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه ولا يستطيع التخلص من القانون وهو يمثله ، ولا يستطيع الخش في عين الولاء للشرع ، ويترك السلطان والوزير يفعلان ما يشاءان لأنه مضطر - بحكم القانون - أن يعلن أن السلطان فاقد الأهلية ، مالم يأمر السلطان بعزله أو طرده من البلاد أو قطع رأسه .

وينفذ صبر السلطان ، فيأمر مرة بإيداع قاضيه السجن ، ومرة يستل سيفه للإطاحة برأسه ، وهو يرى في كلتا المراتين أن من حقه أن يفعل ما يراه ضروريا لصيانة أمن الدولة ، ويحاول الوزير - بما له من حق السياسة - أن يوافق القاضي على حل وسط وهو أن يتم بيع السلطان وعقده سرا ويحتسب القاضي بجمعية الحل القانوني الشرعي ، وهو طرح السلطان لتبيع في المزااد العلني ومن يبتعه يعقده في الحال ويرى الوزير أن لا أحد يقبل أن يخسر ماله على هذا النحو . ويتسمح القاضي بالوضعية لإقرار حق القانون ، فيزعم أن الذين يفقدون حرية السلطان بأمره والحكم كثير ويلجأ إلى الأخلاقيات حين يقرر أن من علامات المجد أن يخضع سلطان للقانون كما يخضع له سائر الناس ، وينقض الوزير هذا معتمداً على أن لسياسة الحكم أساليبها ويميل السلطان إلى وزيره ولكن القاضي لا يلبس ، ولا يرى في القانون حلا وسطاً ، وإنما القانون يعترف باللاحق ولا يعترف بالأقوى ، ويسقط في يد السلطان ، ويوازن بين سيفه الذي يقرضه ويمرضه للأخطار ، والقانون الذي يحبه وهو يتجده ، ويعلن قراره الأخير ويختار القانون .

ويبدأ الفصل الثاني بين الخمار والإسكاف ، ويرى الخمار أن له حقاً في المتعة بشهود السلطان وهو يطرح للبيع ، ومن أجل هذا أغلق حانه بينما يرى الإسكاف أن من حقه الزويج لبضاعته هذا اليوم ، ولهذا فتح حانوته وزير معرضه ، وتحين ساعة البيع فيرى الناس - حتى الأطفال - أن لهم حقاً في

الحصول على السلطان مادام صفقة مروضة لمن يتابع. وقام الخناس بمباشرة البيع ، فهذا حق له الآن بعد أن ثبتت برامته . وانتهى البيع عندما عرض رجل ثلاثين ألف دينار ، ووقع على عقد البيع بصفته وكيلًا مأوذنًا له في ممارسة الشراء ، وامتنع من توقيع صلك العتيق لأنه وكالته لاشمل هذا النطاق ، وتنفذ في ذهن الوزير الريسة في الرجل ، ويريد بمنطق التسلط أن يعذبه ليكشف خططه الخطيرة . وتظهر الغاية المشتريية تحتاج الوزير بحقها في احتياز الصفقة المروضة للبيع ما دامت : مراطنة ، ومعها نفود ، وتحتاج القاضي في شرطه الذي يسلبها حقها في الملك ، الذي استقر لها بمقتضى عقد البيع ، وسلم القاضي بمنطقها ، وإن نسه إلى فقيه من فقهاء القانون قادر ماجن فاجر ، ويلجأ إلى الطعن في أخلاقها ، واتهام مالها في مصدره ، إذ لا يجوز في منطقها أن يدفع إلى بيت المال ، وتقارعه الغاية بمنطقه ، إذ كيف قبله من قبل فيما دفعت من ضرائب ومكوس ، وظلمت تسليمها البضاعة التي اشترتها في منزلها فهذا حقها . وثارت حجة الوزير فراوده حقه في التسلط على العباد بسيفه ، ولجأ إلى تبرير شبه قانوني لاستخدامه ، فأثار جموع الناس على الغاية فحكموا عليها بالموت ودافعت هي عن حقها فيما أقدمت عليه ، فاختار إليها فريق ، ونعين على السلطان - بعد أن سدت المرأة الطريق - أن يختار بين الرجل والدم فاختار الرجل ، ثم حاول أن ينتزع من الغاية اعترافها بصفته ونظام عمله وحقه في ممارسة العمل حراً ، واعترفت له بما طلب إلا بحريته ، إذ أن حقها هو في ملكه حق لا ينازع فهي لا تريد أن تتركه أو تتخلى عنه ، ثم دغدغها منطق السلطان ، فسلمت له بحرية مشروطة وموقوتة .

وفي الفصل الثالث نرى تدافع الناس على الساحة ورفضهم معادرتها بدعوى أن من حقم الاطمئنان على سلطانهم ، وترى صفقات رهان تبرم ، ومثل هذه الصفقات لا توجد إلا حين تتعارض الأهواء ، وكيف لا تتعارض وهم يرون مصير السلطان معلقاً بهوى الغاية اللعوب . ونرى الوزير يدبر للغاية جرماً

ليشهر أمره في الوقت المناسب ، ويستدر به رضا الشعب - أو صمته - عن عمله ، عندما يطيح برأس الغانية .

أما السلطان فقد أسلم نفسه للغانية بحقها ، فهو يسألها ما تنوى أن تصنع به الليلة ؟ . وترى من حقها أن يحكى لها قصص بطولاته ومغامراته ، ولا يثأشها هذا الحق بمنطق قانوني ، وإنما يمسسه بمنطق عاطفي حين تصور أن الوضع المعكوس أملى على «شهر يار» أن يرفه عن «شهر زاد» بحكم أنها القابضة على رقبته . وتفطن الغانية لما طمته السلطان المطعونة ، فترفه هي عنه ، وترقص له ، ويخيل إليه أنها هكذا ترقص لروادها ، لقاء ما يبدلون له من ثمن ، وهنا ينسكأ السلطان جراحها ، فتكشف له عن سيرتها وسرها ، وتشجب ما انتهت به من العهر وتلوذ بالشعر والغناء والفن ، فلما لأك للناس سيرتها وجدت من حقها أن يجاهد هم ، وتبدى لهم : فلم يعد يجدى تصحيح رأيهم فيها ، وكان منطقها في هذا أنه عندما يجتاز الإنسان أقصى حدود السوء يصبح حراً .

وسأله عن الحب ومن حق المرأة أن تشغل بالحب ، وسأله عن مدى استقرارها كإنسانة في ذاكرته ، وهذا من حقها كغانية أتيح لها القرب من السلطان .

وجاء القاضي إلى الساحة ، ورأى الوزير يرمى الناس بالبلاهة ، لأنهم تعلقوا بالجانب التافه الهابط من مسألة السلطان واطرحوا جانبها الوطني الأعظم ، ثم ارتأى القاضي أن يحتمل على القانون بالتعجيل بأذان القجر ، مدعياً أنه يدينه من الحق الذي أقرت به الغانية ، وهو حق عتق السلطان ، ورأى المؤذن في سميه لاستخلاص حرية السلطان ثغراً ، كما رأى في تأخير الأذان السابق مفخرة أيضاً ، لأنه أنقذه مظلوماً ، ومن حقه أن يفخر بالأميرين على ما بين ظاهريهما من تناقض وثار الناس على المؤذن ، واتهموه بالخيال ، ومن حقهم هذا ، ودافع القاضي عن منطق القانون في عتق السلطان

والذى جاء نتيجة طبيعية لأذان المنبذن ، وإن لم يمانع فى مجازمة هذا المؤذن على خطئه — وهذه غير تلك — واعتزمت الغانية على الاحتيال ، واعتده السلطان عبثاً وصغاراً يحملان على الخجل ، ولكن القاضى يستمر فى اللعبة القانونية ولا يخجل ، فهو لم يرتكب خطأ فى تطبيق القانون ما دام لم يشترك هو فى لعبة الأذان ، وبميل السلطان إلى أن يبقى للسيدة بشرطها ، ولكونها تفيه حريته ، فإنه إذا كان من حق القاضى أن يخلص لسلطانه فن حقها أن تكون أكثر من هذا القاضى إخلاصاً .

وكان السلطان قد اطلع على حقيقة السيدة ، ورأى أن من حقها أن يحترمها الشعب كواحدة من فضليات النساء . وصدر عنه فى هذا أمر إلى الوزير ، كذلك رأى السلطان أن لها حقاً فى أن تعوض عن ما لها من جيبه لا من بيت المال ، ورأت هى أن من حقها ألا تبدد شرفاً عظيماً حازه .

ثم كانت اللحظة الأخيرة ، أعلن فيها السلطان أنه لن ينسب أنه كان عبداً لهذه السيدة الليلة ، وتكمل له السيدة الحقيقة فتذكر أنها كانت عبودية فى سبيل المبدأ والقانون .

المفارقات

حفلت المسرحية بعدد من المفارقات ، ساعد على إشاعة جو الصراع ومن ثم جعل المتذوق مشدوداً إلى المسرحية . ومن هذه المفارقات :

١ — بين الشخص المحبكم بإعدامه والجلاد ، حيث ترى السجين المقيد يرفه عن جلاده المطلق السراح ، وهذا الجلاد رجوه أن يزيل انقباضه ، فهو يقول له : « أرجوك أن تزيل انقباضى .. اغمرنى فى المرح غمراً .. أمتعنى بنفحات من الأنفاس والاعانى .. أغرقنى فى الطرب بحلو الانغام ورائع الألحان .. الشغور بالجو المشبع بالطرب من حولي يرج أعصابى ..

وأحياناً يحلو لى أن أغنى أنا نفسى .. ولكن لابد لذلك من شرط .. هو أن أجد من يسمعى . وإذا وجد السامع فحذار حذار ألا يبدى الإعجاب والاستحسان .. وإلا : . فإنى أستحى وأخجل ويرتج على .. ثم أغضب غضباً شديداً . والنخاس يتكلم به وهو يسأله : أمتعد هو للاستماع إلى غنائه ؟ . ويحبيه النخاس : . وهل أستطيع شيئاً آخر ؟ . إنك قد تركت لى أذنى حرة طليقة من أجل ذلك بلا ريب .

الجلاد : حذار أن تخجلنى بشروء ذهنك أو عدم اهتمامك !

المحكوم عليه : لى مهم

الجلاد : - هل أنت مستعد ؟

المحكوم عليه : نعم .

الجلاد : لست أراك متحمساً غاية التحمس !

المحكوم عليه : وكيف أفعل ذلك ؟

الجلاد : أريد أن تذهب بالحماسة التاباً .. اذكر لى أنك تلح

وتلح فى أن تستمع الى غنائى .

المحكوم عليه : ألح وألح .

الجلاد : إنك تقولها بفتور وبرود !

المحكوم عليه : برود ؟

الجلاد : نعم .. أريد أن يكون الإلحاح صادراً من أعماق قلبك ،

المحكوم عليه : إنه من أعماق قلبى

الجلاد : لى لا أستشعر حرارة الإخلاص فى صوتك !

المحكوم عليه : الإخلاص ؟

الجلاد : نعم .. إنه لا يبدو فى نبرات صوتك .. لأن النبرات

والخلجات تم عن حقيقة الشاعر :

٢ — لجأ الجلاد إلى النحاس المقيد المهيئ ، لكي يدفع هذا عنه شر خادم الغانية ، وعند الجلاد من سقوط الهمة وقلة الشهامة أن يرى النحاس في يد الخادم فعلا تضرب بها الجلاد ، فلا يهب النحاس للدفاع عنه ، وإنما يقف مكتوف اليدين ، يتفرج من غير اكتراث ويصغى غير مهم إلى ما يلقاه من إهانة وتحقير وسب ، وليس هذا والله من المروءة في شيء .

٣ — قام المؤذن في الفصل الأول بتأجيل الأذان ، لينعم بشراب ساخن تعده الغانية له ، ولينقذ بذلك رجلا من حبل الشفق . وفي الفصل الثالث يقدم المؤذن الأذان عن مواعده ، ليستكمل به حرية السلطان .

٤ — أشاع النحاس في السوق القول برق السلطان ، وهو في نظره قول برى ، لا خطر فيه ، ولا ضرر . وفي نظر الحكام قول جازم : المحكوم عليه : ما فعلت شيئا قط سوى أنى لفظت كلمة بريئة .. لا خطر فيها ولا ضرر !

الوزير : إنها كلمة مروعة أئيمة ! :

٥ — لا يرى السلطان فيما قاله النحاس عن عبودية السلطان السابقة وأنه باعه طفلا ما يستحق الموت ، بل يرى الأمر على النقيض ، فقد فتح له باب المستقبل ، بينما يرى الوزير أن النحاس يستحق الموت لترثرته وانقلات أسانه .

٦ — يفاخر السلطان بولائه (السبي) إلى السلطان السابق ، ويدافع عن أسرة العبيد الأرقاء ، الذين نشئوا تنشئة قوية قديمة ، أعدوا فيها لتولى الحكم : ثم يحاول فيما بعد أن يحمل القاضي على أن يبحث في خزانته عن وثيقة عتقه ، أو أن يقبل اقتراح الوزير أن تتم صفقة بيع السلطان وعتقه سرا .

٧ — حاول السلطان وتردد مرات بين أعمال السيف وأعمال القانون - بين وزيره الذي يمثل سلطة القوة وقاضيه الذي يمثل سلطة الحق - بين الوحل والدم حين امتلكته الغانية العاهرة - بين أن يستمر في طريقه المستقيم

مفلولا أسيراً للقانون الذى اختاره وأن يجبر عليه بموته التى صنعت له
أعجاء . بين هذا السيف الصانع الأعجاء وهذا السيف نفسه الذى يحذله ساعة
تقرير المصير .

٨ - يزعم الوزير الناس بسيفه ، ولكنه يلجأ إلى القانون يحتمى به
عن بطش هذا السيف ، فهو تارة يتعطل بمنطق السياسة ، وتارة يدبر للغاية
تهمة التجميس لتجبر بسلكه النائم منها ،

٩ - يدفع القاضى المؤذن إلى أن يؤذن لصلاة التجر قبل مواعده ،
ويراه يحل من الشرط الذى ارتضته الغاية . بينما رفض قبلاً أن يتم عتق
السلطان سرا ، مع أنه لا يخالف القانون فى شيء إلا فى صفة العلانية .

١٠ - وقعت الغاية فى حيرة بين الملك الخاص والملك العام ، فيها رغبة
أن تحتاز وحدها السلطان لأنه ملكها الخاص ، وبها نزعة إلى ألا تحرم منه
الشعب : وأن ندعه يحكم ويبتى سلطاناً :

الغاية : لا . . لا أريد أن أتركك . . لا أريد أن أتخلى عنك . . أنت
ملوك لى . . أنت لى . . لى .

السلطان : أنت ولغيرك من أبناء هذا الشعب كله .

الغاية : إني أريد أن تكون لى . . وحدى . .

السلطان : وشعبي . . ١٩ . .

الغاية : شعبك لم يدفع فيك ذهباً ليحصل عليك . . .

١١ - ثم يلتقى السلطان والغاية عند ضرورة التضحية ، فإما أن يضحي
هو بعرشه ليصبح خائفاً لها ، وإما أن تضحي هى برفقه ليصبح سلطاناً حراً
لا ملوكا وتشعر أن الأمر معلق بمشيئتها . . بكلمة واحدة منها يبقى سلطاناً
وبكلمة أخرى يتم عزله .

السلطان : ليس هناك غير وضع واحد يستقيم معه أن أكون لك
وحدك . . ١٠ . .

- 107 -

لأنه سيف حقيق وليس من خشب ولا هو لعبة من اللعب فلماذا يعطى ؟ .
وبجاريه القاضى وهو يقول : للسيف قوة أكيدة ، وفعل سريع ، وأثر
حاسم . . . ولكنه يعطى الحق للأقوى . ومن يدرى غداً من يكون الأقوى . .
فقد يبرز من الأقوياء من ترجح كفته .

وهنا تتم المفارقة : السيف فى يده ، والكل معترف بقوته ، ولكن من
يكون الأقوى غداً ؟

١٦ — يفتلق الخمار حاتته ، ويفتح الإسكاف حانوته ، والداعى واحد :
الإفادة من صفقة بيع السلطان .

١٧ — يرى النخاس مرتين ، فى الأولى مقبداً مهيناً ، وفى الأخرى
حرراً له الكلمة الأولى فى (المزاد) .

وهو يبيع السلطان مرتين صيا مرة بألف دينار ، وسلطاناً أخرى
بثلاثين ألف دينار .

١٨ — ينقسم الشعب فى الحكم على الغاية . بعض يدينها بالموت ،
وبعض لا يرى فى صديها ما يستوجب ذلك ،

١٩ — ترى الغاية مباشرة السلطان لمهامه فى النهار وعودته فى المساء
إليها أمراً سهلاً هيناً وشكناً ، ويراها السلطان أمراً معقداً ، فالحكم لا يحسن
القيام بمهام الحكم من بيوت الآخرين .

٢٠ — ترى الغاية شرفاً يستحق أن يدفع فيه ذهب الأرض كله أن
تسمع أنها تسمى معاملة السلطان ، إذ مامن أحد يجسر بعد اليوم على ازدرائها
وهذا فى مقابل إحساسها بضداته .

٢١ — ملكة الغاية السلطان ، وأصبحت حريته معلقة بمشيئتها ، ثم
إذا هى تستنحه قضاء ليلة فى دارها ، وإن عددنا هذا الاستنحاح من
أدب الحديث .

٢٢ — تحس الغاية بشرف نفسها وسلامة مسلكها ، إحساساً يتحطم أمام ريب الآخرين فيها ، فتعلن إفلاسها ، وهي تجد في هذا راحتاً وحرية ، وكفها أنها القوام على نفسها ، والحكمة على تصرفاتها .

٢٣ — تتحطف الغاية إلى الحب ، وترغب في معرفة أصدائه لدى السلطان ، ولعلها كانت تعرض عليه حبها من طريق غير مباشر ، ويقابل هذا كله انصراف السلطان عن الحب ، بدعوى شواغل الحكم ، التي لا يمكن أن يصفو معها المزاج للحب ، وإن لم تحل حياته من نسوة عشن على هامش حياته .

الأوضاع المقلوبة

في المسرحية عدة أوضاع مقلوبة ، تنسم الأحداث أوبعضاً منها بالخيالية ، وهي الخيالية التي قلنا : إن الحكيم ، اقتنص منها مسرحيته . ومن تلك الأوضاع المقلوبة :

— منظر النخاس المحكوم بإعدامه وهو يرفه عن جلاده ، والجلاد يدعوه إلى أن يرفع من روحه الممنوية .

— موقف الجلاد وهو يطلب إلى النخاس القيد أن تهب ليدفع عنه شر الخادم ، وهي ترفع نعلها عليه .

— حديث العبد الرقيق الذي يحكم شيئاً حراً .

— بيع السلطان المجيد علناً بيع المتاع . غير واجد لدى قاضيه الآخف قوى تنفذ ماء وجهه .

— شرط القاضى أن يتم العتق فود الملاك .

— استدراج السلطان إلى الترفيه عن الغاية بمحاكاة قصص البطولة والمغامرة (شهريار يرفه عن شهر زاد) .

- تقديم الأذان عن مرعده ، واتخاذ حجة لتنفيذ منطلق القانون ، وإتخاذ شرط الفانية .

- تملك الفانية المالك للسلطان المملوك ، ودغدغتها لعواطفه .

الأسلوب

نمى : توفيق الحكيم ، منذ شبابه - في العقد الثالث من عمره أو في العقد الثالث من هذا القرن - بالأسلوب المسرحي ، ولهذا جاء أسلوب مسرحيته من أمثل الأساليب المسرحية ، وأكثرها حيوية ، وأدار حوارها بحيث يكشف - في مجموعه - عن قيم أشخاصه ، وأفكارهم ، وتوازعهم ، ولم يشأ أن يحمل الحمار وظيفة عرض أفكاره هو .

ولنا أن نقد إلحاح الحكيم ، على أن يفنى الجلال عملاً مفروضاً على المسرحية ، يريد المؤلف منه أن يصل إلى عرض أفضيته هو يريد أن يبين لنا ولعه بالغناء ، وغرامه بالاستماع إليه ، وعرض صوته ، والتأليف فيه . وإذا صرفنا نظراً عن الوضع المقلوب الذي ربما يخدم المسرحية في نعتها بالخرافة الأسطورية ، فإن إلحاح الجلال في فرض نفسه وصوته على شخصيته لا يخدم هذا الوضع المقلوب بقدر ما يخدم المؤلف نفسه ، الذي يرى قدرته على تأليف الأغاني ، وذلك على الرغم من اتفاق موضوع الأغنية وموضوع العلاقة القائمة بين التخاص والجلاد ، ونجسيم الأغنية لهذه العلاقة عن طريق الرمز التصويري .

يا زهرة عمرها ليلة

عليك السلام من الممجدين

إذا أذن الفجر غداً تقطنين

ويسقط عنك رداء الندى
وفي صلة من حطب ترقدين
وتخفت من حولك ألحاني
ويبرق في الجو فصل الردى
مضينا في يد البستاني

هذا وقد استقامت لغة الحكيم ، بحيث يبدو عد الأخطاء عليه من
باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين) . ومن هذه الأخطاء :

ص ١٢ : « وإذا لم أشرب قل على عملي السلام » . وجواب الشرط الظلي
يقترن بالناء ، فالصواب (وإذا لم أشرب فقل ...) .

ص ١٣١ : « أنت سلطان أثناء النهار » . وظرفية (أثناء) لاتأتى من
ذاتها ، وإنما تاتى من (فى) قبلها ، فالصواب أن يقال : (أنت
سلطان فى أثناء النهار) .

ص ١٥٤ : « من أنجل زبائنك » . ويقصد أصدقاءها المترددين عليها ، وكلمة
الزبائن والزبون بهذا المعنى غير عربية أصيلة ، والزبون فى العربية :
الغبي .

ص ١٦٧ : « إنك تفهمنى جيداً » ، لأنك فى غاية الذكاء والفطنة ، بل وفى
رقعة الشمور أيضاً . وفى الجمع بين (بل) و (الواو) تمارضى ،
فالأولى للإضراب والطرح ، والواو للجمع والتشريك .

المكان

المكان فى المسرحية مكان واحد لم يتغير ، وهو مساحة فى المدينة . فى
حى مترف ، يقوم فيه مسجد للصلاة ، وحانة للسكرى ، وحانات لصنع

- 471 -

وكان تناول هذا الزمن العابر يطويه الحديث وتلفه الحكاية ، فلم يكن مقصوداً عرضه إلا بمقدار ما يحرص صاحبه على أدائه ، فالنخاس كان في معرض الدفاع عن نفسه ، والسلطان أنارته الذكري وهو يرى ما قدم من خدمات يذهب بدداً لأن مالكة السلطان الرجل أنسى ذكر عتقه ، والغاية كانت تمحى للسلطان الذي استضافته قصتها ، وهي تنوى أن تسيح أنارة الرمية فيها .

فهرس الكتاب

الموضوع	رقم الصحيفة	الموضوع	رقم الصحيفة
العصر الاندلسى	٥	تماذج للشعر الاندلسى	٥٥
فتح العرب للاندلس	٥	الرياض والازهار فى شعر	
عبد الرحمن الداخل	٧	الاندلسيين	٥٩
ملك بنى أمية	٧	ترجمة ابن زيدون	٦٤
عهد الطوائف والمرابطين		تماذج مشروحة من الادب	
والموحدين وبنى الاحمر	٨	الاندلسى	٧٣
حالة الافة العربية فى الاندلس	١٠	عصر الماليك	١٠٧
الاتصال الثقافى بين الاندلسيين		غارات التتار وأثرها فى تقويض	
والمشاركة وأثره	١٦	الحضارة العباسية	١٠٧
فضل الحركة الادبية والعلمية		خمود الادب فى العراق	١٠٩
على النهضة الأوروبية	١٩	ازدهار الادب فى الشام	١١١
الحركة العلمية	٢٠	الحركة العلمية فى عصر الماليك	١١١
من أشهر المؤلفين	٢٢	الشعر فى عصر الماليك	١١٥
الخطابة	٢٥	أغراض الشعر فى عصر الماليك	
من نماذج الخطابة	٢٨	ونماذج من	١٢٠
الكتابة الادبية	٢٢	المدائح النبوية	١٢٨
نماذج الكتابة	٢٦	النثر فى عصر الماليك	١٣٠
الشعر فى الاندلس	٢٩	الخطابة	
العوامل المؤثرة فى رقى الشعر	٤٣	الكتابة	١٣٢
موضوعات الشعر	٤٥	أشعار من الكتابة	١٣٣
خصائص الشعر الاندلسى	٤٩	نماذج من الكتابة	١٣٤
الموشحات	٥١	نماذج مشروحة من عصر الماليك	١٣٦
الازجال	٥٢	العصر الحديث	١٤٧
ما استاز به الشعر الاندلسى عن		النهضة الحديثة وعوامل بنها	١٤٨
شعر المشاركة	٥٣		

الموضوع	رقم الصحيفة	الموضوع	رقم الصحيفة
الازهر	١٥٦	القومية العربية ونماذج من	
فضل الازهر في صيانة التراث	١٥٩	الشعر فيها	٢٠٦
أثر الازهر في النهضة	١٦٠	نماذج لاغراض الشعر	٢١٥
من أشهر رجال الازهر	١٦٢	الكتابة	٢٢٤
تنظيم الازهر	١٦٩	الكتابة الادبية ونماذج منها	٢٢٨
الاستشراف وأعمال المستشرقين	١٧١	الكتابة الاجتماعية ونماذج منها	٢٣١
الشعر في العصر الحديث	١٧٣	الكتابة التاريخية ونماذج منها	٢٣٥
نهضة الشعر على يد البارودي	١٧٦	القصة	٢٤٠
حال الشعر في الاقطار العربية		الخطابة	٢٤٤
وفي المهجر	١٨٣	شوقي	٢٥١
التجديد في موضوعات الشعر		عبد الله النديم	٢٦١
ونماذج منه	١٩٠	نصوص العصر الحديث المشروحة	٢٧٤
موقف الشعر من الحركات التحررية		نصوص من شعر العصر الحديث	٢٩٨
والقومية ونماذج	٢٠٠	مسرحية السلطان الحائر	
		لتوفيق الحكيم	٢٢١

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله